

ابن رشيق الناقد الشاعر

تأليف

عبد الرؤف مخلوف

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

مقدمة

قال عضو المجمع اللغوى العربى ووزير معارف تونس
الأسبق سعادة حسن حسنى عبد الوهاب باشا : « قضى المشرق
فترة من الزمان منعكفا على أبى نواس والبحترى والمتنبى ولاسيما
المعرى وابن سناء ، وهم وإن كانوا بلا مرء من مفاخر الآداب
العربية وأمجادها ، إلا أنه لايجوز أن يقتصر جهد الباحثين عليهم
وأن يفتنوا بآثارهم فتونا ربما يحصر آفاق الشباب الناهض ،
ويجعله قانعا بذلك النصيب بينما يوجد لديه خضم تلاطمت أمواجه
وغمر عبابه الزاخر سواحل المشرق والمغرب على السواء » .
ويذكر سيادته من هؤلاء الذين ظهروا فى الغرب ابن رشيق ،
وابن حزم ، وابن رشد وابن سعيد الغرناطى وغيرهم .
ونظرت ، فرأيت من هؤلاء ابن رشيق الشاعر الناقد ، أو
الناقد الشاعر البليغ ، رأيت فى المغرب يشبه أبا نواس فى المشرق ،
ورأيت فى بلاط المعز بن باديس كالبحتري فى بلاط المتوكل ،
ورأيت فى كتابه العمدة كالجرجاني فى كتابه « الوساطة بين المتنبي

وخصومه » وكالآمدى فى كتابه « الموازنة بين الطائين أبى تمام
والبحترى » .

لذلك اتجهت بالدراسة والكتابة نحوه ، ووصلت جلى
بجبله ، لأنه فيما أرى قدم للغة العربية فى نقدها خير ما قدم ناقد
لأسيما فى مجال نقد الشعر ، وأدى لها فى شعرها ما يرتفع به الى
صفوف المقدمين من المحدثين المجيدين .

ثم هو برغم ذلك كله لم يحظ بدراسة مستقصية تكشف عن
مكانته فى النقد والشعر أو تعرف بآثاره ، وربما كان ذلك حظ
أدباء المغرب العربى ونقادہ وعلمائہ بصفة عامة ، وربما كان سبب
ذلك كما يقول السيد الجليل الأستاذ / أحمد الشايب : ان هذا
الصقع العربى من الوطن العربى « قد أصيب بانقطاع الحلقات »
بخلاف المشرق فان بقطة شعوبه ، وتوافر مصادره ، واتصال
حياته منذ فجر التاريخ « قد أعان على دراسة أعلامه ، وتتبع
جهوده »

« غير أنه مهما تكن الأسباب فانها لا تبرر ترك قرون ثمانية
فى تاريخ الحضارة الأندلسية ، كانت تزهى بأدبها العربى وطابعها
الاسلامى ،.. ولا ترك أفريقية تشقى بالجذب والنسيان طوال
هذه القرون والى عصرنا الحديث » .

فاذا كنت اليوم أكتب فى سلسلة « أعلام العرب » عن واحدة
ممن عاشوا فى هذه المنطقة وهو ابن رشيق القيروانى ، فانا

لأقطع ذلك الصمت الطويل الذي التزمه كثير من العلماء عن غير قصد حيال هذه المنطقة ولأفتح باب الاتجاه بالدراسة نحو هذا الصقع الكبير من الوطن العربي ، لاسيما ونحن اليوم نعيش نهضة عربية شاملة قد امتدت من أقصى المشرق الى أقصى المغرب في مختلف النواحي والجوانب .

وإذا كنت قد قمت بدراسة جامعية حول ابن رشيق ، وموقفه من النقد ، ولاسيما نقد الشعر ، فإن هذه الترجمة تختلف عن تلك الدراسة من حيث المنهج والخطة والأسلوب والعرض ، فإذا كانت الدراسة الجامعية تتسم بالعمق والدخول في مناقشات كثيرة ، والتصدي للآراء المختلفة والمتشابكة حول القضية من القضايا ، فإن هذه الترجمة تتسم بالوضوح وبسهولة العبارة وبالبعد عن المناقشات ، وبالقصد من أيسر الطرق الى رسم معالم الشخصية وتوضيح صورتها وسماتها بما يلائم القارئ العربي الذي ينشد الثقافة العامة أو المعرفة بمن انجبتهم أرض الوطن العربي .. على أن هذا المنهج يضع الحقيقة في الصف الأول من الاعتبار ويلتزمها ما بدت له

وقبل عرض الموضوع أشير الى أن قد سبق الى الكتابة عن صاحب الترجمة اثنان من العلماء المعاصرين ، فأما أولهما فحسن حسنى عبد الوهاب باشا فانه كتب كتابا أسماه « بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق » ، وجزء كبير منه يتصل بحياة المترجم وقد طبع الكتاب سنة ١٣٣٠ هـ . وأما ثانيهما

فالعالم المحقق الشيخ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى الأستاذ
بالكلية الشرقية فى لاهور بالهند ، فانه ألقى محاضرة باللغة
الأوردية فى الكلية عن ابن رشيق ، ثم عاد فنقل محاضراته هذه
الى اللغة العربية ونشرها فى كتاب سماه « ابن رشيق » كما
قام سيادته بجمع الكثير من شعر صاحبنا فى كتاب اسماء « التنف
من شعر ابن رشيق وابن شرف » وطبع الكتاب فى المطبعة السلفية
سنة ١٣٤٣ هـ . بالقاهرة .

ذلك كل ما كتب - فيما رأيت عن ابن رشيق - وقد أفدت
منه فى كتابتى هذه وان خالفتم فى كثير ، حتى لقد التقيت
بصاحب البساط ، وأبدت لسيادته رأى فى كثير مما جاء فى
بساطه ، ولكم كان اعجابى واكبارى له حين قال فى تواضع
العلماء : انه يعتزم إعادة النظر فى الكتاب عند إعادة طبعه .

وبعد فأرجو أن أكون بهذه الترجمة قد لفت الأنظار نحو
ذلك الجزء الكبير من الوطن العربى ، وأعنى المغرب ، كما أرجو
أن أكون قد ألفت ضوءاً على حياة ابن رشيق وجهوده فى النقد
والشعر .

وبالله عونى ومنه توفيقى ...

عبد الرؤف مخلوف

القاهرة فى يناير ١٩٦٥

الفصل الأول عصر ابن رشيق

توطئة :

يقول الأستاذ الشايب : « ان آثار الرجل ثمرة طبيعية لعاملين : هما بيئته وشخصيته وما يكون بينهما من تفاعل » ، ويظهر أن هذا القانون تحكم في كثرة الدراسات الحديثة التي تتناول الأفراد ، واذ أن هذه الترجمة تتناول « ابن رشيق الناقد الشاعر » فانه صار حتما أن أتعرض لعصره في نواحيه السياسية والعلمية والاجتماعية لأنه هو وما ترك من بصمات عقله وفكره على الثقافة العربية أثر من آثار هذه النواحي جميعا .

وهو نشأ في شمال أفريقية، وفي ذلك الجزء الذي سماه العلماء العرب باسم المغرب ، وهو الجزء الممتد من تلك القارة في شمالها على البحر الأبيض المتوسط ، وفي شمالها الغربي على المحيط الأطلسي حتى السدس الأقصى، ويتسع ذلك المغرب موغلا في داخل القارة تبعا للخصب والمطر وتوافر أسباب قيام الحياة ، ويضيق حيث تقتر الطبيعة عليه في ذلك .

وكلمة الغرب أو المغرب انما أطلقت على هذا الجزء من الدولة العربية الاسلامية في مقابل اطلاق الشرق أو المشرق على أجزائها

الواقعة فى قارة آسيا والموغة فيها الى اواسطها حيث حظ الاسلام فى اقاليمها ، واعتبر الجزء الواقع فى آسيا أصل الدولة العربية ومشرقها لأن فيه الجزيرة العربية المهد الأول والأصيل لهذه الأمة العربية أولا والاسلامية ثانيا ، ولأن منه كان انطلاق العرب مع الفتوح الاسلامية نحو الشمال الأفريقى . ومن ثم استقر فى الأذهان أن الشرق والمشرق أصل العرب والعروبة ، والغرب والمغرب فرعها، وساعد على استقرار هذا المعنى ما أصاب العرب فى الأندلس من هزائم ردتهم عن هذه البلاد بعد قرون عديدة . فبقى الأصل وذبلت فروع من فروعه .

وقد جعل الجغرافيون المغرب ثلاثة أقسام : أدنى ، وأوسط ، وأقصى؛ وأساس التقسيم عندهم القرب والبعد عن عاصمة الدولة العربية ، تلك التى كانت دائما فى المشرق ، فتارة تكون فى الحجاز وأخرى فى العراق وثالثة فى الشام ، أما العواصم العربية بعد ذلك فى افريقية وغيرها فتبع لهذه العواصم فى المشرق الأم . وعلى هذا أطلقت كلمة المغرب الأدنى على أقرب أجزاء الساحل الشمالى لأفريقيا من عاصمة الدولة العربية ، وذلك هو الجزء الشرقى من المغرب والممتد على ساحل البحر الأبيض فى مواجهة إيطاليا .. وأطلقت كلمة المغرب الأقصى على أبعد أجزاء هذه المنطقة من العاصمة العربية ، وهو الجزء المطل على المحيط الأطلسى . وبين هذين المغربين مغرب أوسط ، لأنه يقع من دار الخلافة بين بين (١).

(١) راجع مقدمة ابن خلدون فبها تفاصيل تفيد فى تحديد التقسيم ص ٦٥ - ٦٧

وابن رشيق نشأ في المغرب الأدنى على ما سذكروه ، وتنقل بين مدنه ، وكانت نهاية المطاف به في جزيرة صقلية تلك التي تقع في بحر الروم — كما كانوا يسمونه — جنوب إيطاليا ، وكانت حياته من بداية العشر الأواخر في القرن الرابع الهجرى وإلى ما بعد منتصف القرن الخامس بقليل ، ومن ثم لزم أن نعرض لهذه المنطقة في هذه الفترة بكلمة :

الحالة السياسية :

(أ) في المغرب :

يرى الناظر في خريطة هذه المنطقة — قديما — أسماء طائفة من المدن ، فالقيروان ، والمهدية والمحمدية أو المسيلة ، وصبرة ، وتونس .

غير أنه لا بد من التنبيه إلى أن تونس كانت تطلق على ما يمكن أن نسميه المغرب الأدنى ، وقد بقيت تونس بهذا التصور — بعد الفتح الاسلامي تابعة في ادارتها لولاية مصر . إلى أن انفصلت في منتصف حكم الدولة الأموية .

فلما كانت الدولة العباسية ولي الرشيد عليها ابراهيم الأغلب سنة ١٨٤ هـ . وقد أورث ابراهيم هذا ملك هذه الولاية لأبنائه من بعده . وظلوا يتعاقبون عليها إلى أن ظهر الفاطميون ، وقويت شوكتهم فانتزعوها منهم سنة ٢٩٦ هـ . وأصبحت من ذلك التاريخ جزءا من دولة الفواطم العبيدين .

ولما استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨ هـ . وبنا بها
مدينة القاهرة ، واتخذوا منها قاعدة للمكهم ، وانتقل مركز الثقل
إليها ، صارت تونس ولاية تتبعهم ، ويقوم عليها ولاية من قبلهم ،
يديرهم الحكم فيها لحساب الفاطميين .

وكان المعز لدين الله الفاطمي قد اختار لحكمها قبل مسيره الى
مصر أحد أعوانه ، ذلك هو بلكين بن زيري . في سنة ٣٦١ هـ .
واتخذ هذا من مدينة القيروان قاعدة لولايتيه تلك ، وظل بلكين
وفيا لأولياء نعمته الفاطميين يعترف لهم بالتبعية حتى مات في
سنة ٣٧٣ هـ وخلفه في حكم تونس من بعده ابنه المنصور الذي
ظل يحكم أيضا حتى مات في سنة ٣٨٦ هـ ، وقام في مقامه من
بعده ابنه باديس .

وقد تمتع باديس هذا بما لم يتمتع به أسلافه من قبل ، وصار
إليه حق تعيين العمال والولاية في البلاد التي تخضع لحكمه ، ولذا
أقراه يولى عمه حماد بن بلكين على أشير إحدى مدائن المغرب
يومئذ . ولكن حمادا ما لبث أن استشعر القوة ، فبنى القلعة
المعروفة في التاريخ بقلعة حماد ، في الغرب ، وأخذ شيئا فشيئا
يتخذ لنفسه من مظاهر الاستقلال عن ابن أخيه باديس ما جعل
حكمه أشبه بدولة في داخل الدولة وإن ظل يعترف لباديس
بالتبعية ، ثم كان على ذلك خلفاؤه من بعده . (١)

(١) وفيات الاميان ج ٢ ص ٧٥ .

وأيا ما كان فإن انتهاج الحماديين لسياسة الابتعاد عن باديس وأخذهم بمظاهر الاستقلال هيأ الفرصة لقيام فريقين في المغرب أخذت تتسع بينهما الهوة حتى صارا الى عدا ، ذاك الفريقان هما الباديسيون في مدينة القيروان والمهدية وما تبعهما من مدائن، والحماديون في قلعتهم الحصينة .

وإذا كان العبيديون قد أعلنوا انفصالهم عن الدولة العباسية في المشرق ، وخلعوا طاعتهم ، وخطبوا لأنفسهم في القاهرة ، فاند لما مات باديس سنة ٤٠٦ هـ . وخلفه على المغرب ابنه المعز ، لم يلبث هو الآخر أن أعلن انفصاله عن العبيديين في القاهرة ، خلع طاعتهم ، وولى وجهه شطر المشرق حيث الخلافة العباسية في بغداد ، فخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وكان ذلك في سنة ٤٣٩ هـ (١) . وجاء رسول المستنصر الفاطمي العبيدي فقال له: قل لصاحبك ان لنا ملك أفريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر» (٢) ومن ذلك التاريخ انطلقت يد المعز بن باديس في حكم المغرب ولكنه لم يستمتع طويلا بذلك الاستقلال ، فما أن انفصل عن الفاطميين حتى قامت بينه وبين بنى عمومته ، الحماديين ، فتن داخلية مثيرة اذ خلع هؤلاء طاعته ، ووقفوا منه موقف عدا ، وهكذا صار أبناء العمومة وكل منهم يقف لصاحبه ، يتحين به الفرص ، ويتربص به الدوائر ، وغذى هذه الخصومة من بعيد أولئك

(١) صبح الاعشى ج ٥ ص ١٢٤ وقد جعل ابن الاثير تاريخ ذلك ٤٤٠ هـ ، وفي

موضعه ج ٥ من كامله ٤٤٣ .

(٢) المعجم للمراكشي ٢٠٤

الموتورون العبيديون ، فكانوا يرسلون من القاهرة بسمومهم ،
ويؤججون نار العداوة بين الأخوين بما يوحون الى قبائل بنى
هلال أن تغير تارة على المعز وأخرى على بنى حماد ، وكل ضعف
يصيب أيا من الأخوين فانه قوة لأعدائهم على أى حال

حتى اذا كثرت غارات المغيرين على المعز فى القيروان، وأظهروا
عليه وعلى بنى عمومته من الجراءة ما عجز معه عن أن يرد غاراتهم،
أشار عليه أصحابه بالارتحال عن القيروان الى المهدية ، وكان عليها
ابنه تميم من سنة ٤٤٥ هـ . فقصدها في ٤٤٩ هـ .

وقد مكن ارتحال المعز عن القيروان للثائرين منها فاعملوا فيها
تخريبا وهدما واحراقا على جارى عادات القبائل الهسجية كما بقول
ابن خلدون .

ولحقت القيروان بذلك نكسة ، وأصابته نكبة عدت من أكبر
ما نكبت به مدينة فى التاريخ الاسلامى واندكت بهذا معالم مدينة
من أزهى وأزهر مدينيات هذه البلاد فى ذلك الحين ، وقد شهد
هذه الفتن شاعرا المعز ، ابن رشيق وابن شرف ، وقالوا فى ذلك
مرثيتين من أروع ما رثبت به المدن فى الشعر العربى ؛

وبارتحال المعز الى المهدية صار أمر البلاد الى ابنه تميم الذى
ظل يحكم حتى سنة ٥٠١ هـ وقد مكن له فى الحكم عقله وحكمته
وأدبه ، أما أبوه فقد مات فى ٤٤٩ هـ ورثاه ابن رشيق .

ب : فى جزيرة صقلية :

وصقلية التى ارتحل اليها ابن رشيق آخر العمر هى تلك الجزيرة القائمة فى البحر الابيض المتوسط - وكان يسمى بحر الروم - فتحها المسلمون سنة ٢١٢ هـ . ايام حكم الأغالبة بافريقية وظلت تحت حكم المسلمين الى أن نزع اليها جماعات من الأفريقيين فى أثر مجاعة كانت سنة ٣٩٥ هـ . وكان يحكمها يومئذ جعفر بن يوسف بن عبد الله الكلبى ، فرحب بالنازحين ، ولقى هؤلاء من أهل الجزيرة كل معونة ومساعدة ، اذ أفسحوا لهم مكان العيش ، ويسروا لهم أسباب الارتزاق وتوثقت الصلابة بين الجزيرة وشمال افريقية . (١)

لكن مطامع المعز بن باديس فى المغرب جعلته تتطلع الى صقلية ليضمها الى ملكه ، ويسيطر عليها سلطانه ، فسير اليها فى سنة ٤١٧ هـ . ولديه عبد الله وأيوب فاتحين ، وقد استطاعا أن يقتلا حاكمها ، وأن ييسطا عليها نفوذهما ، وأن يديرا الأمر فيها بحكمة ثم اتجه تفكيرهما الى التوسع فى جنوب اوربا ، وعزو النورمان ، وتأهبوا لذلك وتجهزوا ، وأمدهما أبوهما المعز من شمال افريقية بأسطول ضخم .

وبينما النفوس متطلعة الى معركة ينتصر فيها المسلمون ، هبت على الاسطول عاصفة عاتية فأغرقته ، وأعرعب معه الامال .

(١) المسلمون فى صقلية

وكانت هذه النكبة سببا لا في فشل الغزو فحسب ، وإنما أيضا في ضياع صقلية من أيدي المسلمين ، بل تجاوز أثرها الجزيرة الى المغرب ، ذلك أنها أطمعت الهلالين في ملك المعز بالمغرب وبدأ النورمان من ذلك التاريخ يجترئون على صقلية ، ويناوشون أهلها الى أن تمكنوا من نزولها ، وحاول أيوب ابن المعز أن يستخلصها منهم ، وتهيأ لذلك ، ودبر له ، ولكن جماعة من المسلمين فيها انضموا الى النورمان ، فأفسدوا على أيوب تديره ، واضطر وجوه القوم الى الانسحاب منها ، وقصدوا المهديّة على مراكبهم التي بقيت لهم من الاسطول ، حاملين معهم جميع من رأى الانسحاب من خاصة القوم وأعيانهم ، وكان ذلك في سنة ٤٦١ هـ .

وبهذا ضاعت صقلية من أيدي المسلمين بعدما أقاموا فيها حضارة عربية اسلامية وبعدها « صار أكثر أهلها مسلمين ، وبنوا بها الجوامع والمساجد » (١) ، وخلا الجو لرجال النورمان فانقضوا على بقية ما بقي من تلك الحضارة يعفون عليه حتى عادت كما كانت قبل الفتح الاسلامي .

في هذه الحياة التي تختلف بالسلم والحرب ، والاطمئنان والخوف لا يكون لرجل كابن رشيق بد من أن يتأثر في حياته ، فالسلام الذي ساد الدولة جعله يتطلع في شبابه الى لقاء رجالاتها ، والى الحياة في ظلهم ، في مدينة القيروان ، وكان له ما أراد اذ وصل

(١) معجم ياقوت في صقلية

الى بلاط المعز ، وصار شاعره الأثير عنده ، أو فى الأقل واحدا
من شعرائه . حتى اذا صارت السياسة الى فتن فغارات فحروب
جعلت المعز يرتحل عن القيروان الى المهديّة رأينا ابن رشيق
« ينحشر فى زمرة المحروبة » اليها ، ولكن مقامه فيها لا يطول
فيولى ناحية صقلية ، تاركا شمال افريقية بأحداثه وفتنه واضطرابات
ولكن فى صقلية يصمت فلا نسمع له صوتا الا ما يكون من وصفه
لركوب البحر اليها فى الأبيات التى نسبت اليه ، وفيها يقول :

ولقد ذكرتك فى السفينة ، والردى متوقع بتلاطم الأمواج
والجو يهطل والرياح عواصف والليل مسود الذوائب داج
وعلى السواحل للأعداء غارة يتوقعون لغارة وهياج
وعلت لأصحاب السفينة ضجة وأنا وذكرك فى ألد تناج

الحياة الاجتماعية :

اذا كانت الحالة السياسية فى الأمة من الأمم وجها من وجوه
حياتها فان الحياة الاجتماعية هى الوجه الآخر وهى صدى
لها ، تتأثر بها ، وتتلون بألوانها ، وتشكل باتجاهاتها ، وفى
فترات الأمن والاستقرار ينصرف الناس الى معاشهم ، ويقبلون
على الاستمتاع بأسباب العيش ما تهيأت لهم أسباب ذلك . أما
اذا أطلت الفتن برءوسها ، واضطربت سياسة الدولة ، وأصابها
مد وجزر ، واجترأ عليها أعداؤها ، فان الناس يتأثرون بذلك
كله ، ويشاركون فى مواجهته ، ولا يستطيعون الحياة بمنجى
منه ، والأدباء والعلماء من الناس ، يضربون فى ذلك بسهم ، ولو

أن تأثرهم قد يكون أحيانا بسلبية ينكمشون معها فلا ينتجون ،
وانما يلتزمون الصمت ، ولكنهم في الاغلب يعبرون عن وقع
الأحداث على مشاعرهم وأحاسيسهم .
وأكثر ما يظهر من أثر الاضطراب كما يقول ابن خلدون ،
« يكون في الأمصار التي تكون كراسى للملك » ذلك ما نلمسه
حين نستعرض أمور الدولة الصنهاجية التي عاش تحت رايتها
صاحب السيرة .

ففي فترات الاطمئنان رأينا حضارة في ذلك الجزء من الوطن
العربي لا تقل عن مثيلتها في المشرق ، فدواوين يقوم بالأمر فيها
رجالات من أصحاب الثقافات العريضة ، ومجالس تضم من
العلماء والشعراء الى بذخ يدل على غنى وترف ، يقول صاحب
بساط العقيق : « وكانت الدواوين - في القيروان - ثلاثة ،
ديوان الجيش ، وديوان الرسائل ، وديوان الجباية » .. فاذا
علمنا أن ديوان الرسائل كان يضم أكثر من مائة كاتب بليغ كابن
رشيق وابن شرف وغيرهم تبينا ما كانت عليه الحياة الاجتماعية
من انتعاش يستدعى قيام ذلك الديوان - يقول حسن حسنى
عبد الوهاب الصمادحى : « وكان يتلو الجباية ديوان المراسلات
أو تحرير المكاتبات والصكوك الصادرة عن الأمير لمخاطبة عمال
الجهات ، والولاة ، والقواد وغيرهم ، وكان هذا الديوان في
دولة المعز منتصبا بمدينة صبرة على نصف ميل من القيروان
بمقربة من منزل الملك ، وهو يحتوى على أكثر من مائة كاتب

بليغ كابن رشيق وابن شرف ، ويرأسهم أبو الحسن علي بن أبي
الرجال الشيباني مربى المعز ابن باديس وكاتب سره (١) .

وكذلك يقول صاحب كتاب « المسلمون في صقلية » عن المعز
« وكانت له مدينة من أروع ما رآته البلاد الافريقية (٢) » .

وفي فترات الفزع ينتكث جبل الدولة ، ويضطرب الناس
في معاشهم ، وتختل حياتهم الاجتماعية ، فيصيرون الى فوضى
تعقد الألسنة عن أن تقول ، وتغل الأفئدة عن أن تفكر الا
ما يكون في تصوير ذلك كالذى نراه من شعر تميم بن المعز وقد
عاش النكبة نكبة القيروان ، ورأى ملك أبيه يتقلص ويأزر الى
المهدية بعد غارات بنى هلال ، فانه يصور ذلك في أبياته التى
منها :

يادهر ما أقساك من متلون فى حالتك وما أقلك منصفاً
أتروح للنكس الجهول ممهراً وعلى الليب الحر سيفاً مرهفاً
واذا صفوت كدرت ، شيمة باخل واذا وفيت قطعت أسباب الصفا
ثم ينظر تميم فى اجترأ المغيرين على ملك أبيه ، فلا يسعه
الا أن يستنهض هم القوم للذود عن الحياض ، ورد المغيرين ،
وذلك اذ يقول فى لوعة وحسرة :
متى كانت دماؤكم تطل أما فيكم بثار مستقل

(١) بساط العقيق فى ص ٢٨

(٢) المسلمون فى صقلية ١٧٨

ونتمتع عن طلاب المجد حتى كأن العزم فيكم مضمحل
وهذا الشعر أيا تكون قيمته الفنية يحمل الدليل على أن الحياة
الاجتماعية دائما صورة وصدى لحياة السياسة التي تحياها الدولة
وعلى أن الأدب في شعره ونثره لا يمكن الا أن يكون رجعا لهذه
الحياة .

الحياة العلمية والأدبية :

رأينا فيما تقدم كيف كانت حياة السياسة تنتقل بالمغرب من
حال الى حال ، فبعد أن كان جزءا من الدولة الاسلامية التي قامت
بالمشرق والتي مدت أجنحتها الى ذلك الاقليم ، أخذ حكامه
يستقلون عنها ، ويسيرون لأنفسهم فيه ملكا خالصا لهم ، حتى اذا
انتقل الفاطميون الى مصر، وبنوا القاهرة واتخذوها قاعدة لحكمهم
رأينا باديس بن المنصور ثم ابنه المعز من بعده انفصالا عن
الفاطميين ، ويجعلان من المغرب دولة تتحدى دولة القاهرة .

واذا كان ذلك يترك بصماته على الحالة السياسية والاجتماعية
فان أثره لا يقل في جانب الحياة العلمية والأدبية ، على أن أثر
الاستقلال هنا كثيرا ما يكون خيرا وبركة على العلم والأدب ومرد
ذلك أن الوالى الذى يستقل عن مركز الحكم يجهد في أن ينافس
أصله بما يهيم للعلم والعلماء والشعر والشعراء من أسباب
الحياة والنهوض ، والممالك كالأفراد يستهويها الفخر بنهضة الحياة
العلمية ، لذلك لم يكن غريبا أن نرى المغرب ينافس المشرق ، ولم

يكن غربيا أن ترى دولة الصنهاجين على أيام باديس، والمعز وتميم تنافس الفاطميين في القاهرة ، ذلك أن اعتزاز هؤلاء بالاستقلال وزهوهم بالحكم ، ورغبتهم في الظهور أمام منافسيهم بمظهر الندى في شتى مناحي الحياة - الى جانب ما كانوا هم أنفسهم يتمتعون به من حب العلم وتذوق الأدب ذلك جميعه - هيا تربة خصبة لقيام حياة علمية وأدبية نامية حية في هذه الفترة بتلك البلاد في مدائنها المختلفة كالقيروان والمهدية .

في القيروان :

ويتحدث عنها المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب فيقول : « وكانت القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح الى أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب ، اليها ينسب أكابر علمائه ، واليها كانت رحلة أهله في طلب العلم ، وقد ألف الناس في أخبار القيروان ومناقبه ، وذكر علمائه ، ومن كان فيه من الزهاد والصالحين والمتبتلين كتب مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف ، وكتاب بن زيادة الله الطنبلي .

ولقد كان حسب الرجل أن ينتمي الى القيروان حتى يعرف بالعلم والأدب ، وقد ذكرت كتب التراجم منهم من لا يتسع المقام لذكر أسمائهم ، وانما نشير الى نفر ممن ذكرهم ياقوت في معجمه فهو يذكر من هؤلاء :

ابراهيم بن علي الحصري القيرواني صاحب زهر الآداب ومات

بالمصورة إحدى قرى المغرب سنة ٤١٣ هـ . وقد توجه إليه
ابن رشيق بيته :

رفقا أبا اسحق بالعالم حصلت في أضيّق من خاتم
لو كان فضل السبق مندوحة فضل ابليس على آدم

وكان الحصرى هم أن يضع كتابا يذكر فيه شعراء القيروان
ويرتبهم على حسب أعمارهم فبلغ ذلك ابن رشيق فخاطبه بالبيتين
منكرا عليه اتجاهه ، قالوا وكان البيتان سببا في عدول الحصرى
عما كان عزم عليه . ومنهم خلف بن أحمد القيروانى الشاعر الذى
قال عنه ابن رشيق فى كتابه « انموذج الزمان فى شعراء القيروان »
انه شاعر مطبوع تأدب بأفريقية وله شعر معروف جيد ، مات
بزويلة المهديّة سنة ٤١٤ هـ ومن شعره :

هل الدهر يوما بليلى يجود وأيامنا باللوى هل تعود
عهود تقضت وعيش مضى بنفسى والله تلك العهود
ألا قل لسكان وادى الحمى هنيئا لكم فى جنان الخلود
أفيضوا علينا من الماء فيضا فنحن عطاش وأتم ورود (١)

ومنهم ابن عيذون الهذلى اللغوى ابن الحسن التونسى ولد
فى تونس سنة ٤٢٨ يوم عيد النحر وتوفى بالاسكندرية ، قالوا
ومن جملة شعره قصيدة فى الرد على المرتد البغدادى فيها أحد
عشر ألف بيت على قافية واحدة ، وفيها فوائد أدبية .

ومنهم احمد بن أبى الأسود القيروانى ، وكان غاية فى النحو
واللغة وله تصانيف فى النحو والغريب ومؤلفات حسان وكان
شاعرا مجيدا .

ولا نطيل الحديث عن هؤلاء وغيرهم فان الاتيان عليهم مما
تكفلت به كتب التراجم والطبقات ، وحسبنا أن نشير الى أن
ابن رشيق وجد فى شعراء القيروان من الكثرة ما جعله يختصهم
بكتاب يذكرهم فيه ، ويذكر من مختار أشعارهم ، ويسمى الكتاب
« انموذج الزمان فى شعراء القيروان » فان فى ذلك الدلالة على
مبلغ ما وصلت اليه النهضة الأدبية ، ومن باب أولى النهضة العلمية
فى هذه المدينة التى كانت فى المغرب تنافس بغداد الدولة العباسية
فى المشرق .

فى المهديّة :

وهى المدينة الثانية بعد القيروان فى عصر الصنهاجيين - عصر
ابن رشيق - وتبعد عن القيروان بمسيرة السائر يومين ، وكان
قربها هذا من القيروان جديرا بأن ينال من مركزها العلمى حيث يكون
فى المدينة الكبرى . وعاصمة الملك - القيروان - ما يصرف الناس
عنها ، ولكن النهضة العلمية ، وانتشار الحركة الفكرية والأدبية
جعل من المهديّة مركزا ثانيا من مراكز الثقافة فى المغرب ، وفى ذلك
يقول أحد المؤرخين « وقد ازدان ملك صنهاجة بالمهديّة ، كما
ازدان بالقيروان ، فكان فيها بلاط فاخر ، التف حوله ثلة صالحة

من رجال العلم ، وأعلام الأدب ، وكبار الفلاسفة ، والشعراء -
يقول المؤرخ - وكانت أيام المهديّة على صغر المملكة ، وتعاقب
الحروب بينها وبين الهلاليين أياما مشهورة في تاريخ الفن والعلم
والأدب .. وفصدها من كل ناحية أمثال ابن رشد فيلسوف
الأندلس ، وكان أمير المهديّة تميم من خير الرجال عقلا وأدبا
وحسن ادارة ، ومعرفة بأصول الأدب والشعر » . (١)

ولا غرابة في أن يكون ذلك شأن المهديّة فأمرها تميم
ابن المعز الذي حكمها أكثر من نصف قرن كان هو نفسه شاعرا
يتذوق الأدب ويستشعر الجمال في الفنون ، ويقدر أثرها في حياة
الأمم » واتفق حضرته جماعة من شعراء المغرب والأندلس ، منهم
ابو اسحق بن أبي خفاجة في صباه ، وعبد الله بن عبد الجبار
الطرطوسي ، وأبو الحسن علي بن عبد العزيز الحلبي المعروف
بالفكيك وغيره ، وخدمه بالشعر من أهل افريقية أيضا جماعة
ومدحه قبل هؤلاء شعراء المعز أبيه » . (٢)

المكتبات :

وأما المكتبات والكتب التي الفت في المغرب ، ورفعت الى
حكامه في القيروان والمهديّة وغيرهما ، أو التي اجتلبت من المشرق
ومن الأندلس الى شمال افريقية ، فقد تكونت منها مكتبات كبرى
عامة وخاصة في قصور الولاة وفي بيوت العلماء وبيوت الذين
يناصرون الحركات العلمية دائما .

(١) المسلمون في جزيرة صقلية ص ١٨٤ .

(٢) المجموعة المغربية ص ٥٧ .

وحسبنا دليلا على وفرة الكتب ، وعلى ازدهام المكتبات بها ، مع أن العصر لم يكن عصر طباعة ، وانما كان عصر نسخ ، انا نجد المعز بن باديس « يهدى الى أبى بكر عتيق السوسى تسعمائة مجلد من نفائس المصنفات ، أرسلها اليه على رءوس الحمالين عقب مجلس علمى استحسن فيه الأمير آراء هذا الأديب » (١) ومهما يكن حظ الرواية ونصيها من الصحة أو المبالغة والتزيد فانها دليل على نهضة علمية ، وعلى تشجيع وتقدير من حكام المغرب للآداب والعلوم

بل انا لرى النساء يشاركن فى نهضة العلوم بهذه الاصقاع « فجددة المعز وهى حاضنة والده باديس تهدى كتباً جميلة الى المكتبة العامة ، تلك التى كانت فى البيت المجاور للمحراب من الجامع الأعظم فى القيروان ، ومن بين هديتها مصحف بخطها على رق مزوق بالذهب » وفى هذا الخبر أيضاً الدليل على أن جددة المعز لم تكن مجرد امرأة تتخذ من اقتناء الكتب مظهر أبهة وافتخار من غير أن تعلم قيمة الكتاب . وانما هى امرأة تتخذ من العلم وأسبابه شغلا لها فتكتب بخطها المصحف مزوقا بالذهب لتهديه الى المكتبة العامة .

« وبالجمللة فان العلم ازدهر بافريقية فى القرنين الرابع والخامس ازدهارا لم يسبق له مثل بسبب انتشار التعليم ، ومساعدة

(١) بساط المتيق ص ٤٩

ولالة الأمر ، والوجهاء ، الذين كانوا يفرضونه على أولادهم ونسائهم وجواريهم وخدمهم عملا بأوامر الشريعة السمحاء » (١) .

فى صقلية :

فاذا نحن يمينا سطر صقلية رأيناها لا تقل عن شمال افريقية اهتماما بالعلوم والآداب وقد وعى التاريخ ، وحفلت كتب الطبقات والتراجم بأسماء النابغين منها فى التاريخ واللغة والأدب ، والنحو والفقه والحديث أمثال ابن حمدى الصقلى الذى رحل من الجزيرة فى ظروف سياسية الى افريقية وعاش فى كنف الأمير تميم بن المعز ، واسماعيل بن خلف أبو طاهر الصقلى المقرئ ، وأصله من خوف مصر ، وصنف كتباً كثيرة فى القراءات ، أحدها كتاب اعراب انقراءات فى تسع مجلدات كما يقول صاحب معجم الأدباء (٢) وأمثال أبى عمرو عثمان بن على بن عمر الخزرجى الصقلى وهو الذى يقول :

رحلت فعلمت الفؤاد رجلاً وبكت فصيرت الاسيل مسيلاً
وحدا بها حاد حداً بى للنوى لكن منا قاتلاً وقتيلاً
واذا الحبيب أراد قتل مجبه جعل الفراق الى الممات سيلاً
وقد اختصر كتاب العمدة لابن رشيق . وأمثال على بن جعفر السعدى المعروف بابن القطاع وتوفى سنة ٥١٤ هـ الى غير هؤلاء ممن لا يمكن أن نأتى عليهم فى هذه السيرة ، وكيف وقد كانوا

(١) بساط العقيق ص ٢٨

(٢) معجم الادباء ج ٦ ص ١٦٥ .

من الكثرة بحيث اتخذ منهم العلماء مادة لكتب وققوها على ذكرهم
وذكر مناقبهم وآثارهم ، وهذا هو ابن القطاع يكتب كتابا عن
طائفة الشعراء وحدها ويسميه : « الجوهرة الخطيرة في شعراء
أهل الجزيرة » وقد قالوا : انه ضمنه ترجمات لمائة وعشرين شاعرا
كما ضمنه عشرين ألف بيت من الشعر . كما كتب كتابا آخر أيضا
عن صقلية وأسماء « ذكر تاريخ صقلية » .

شخصية الغرب العربي :

وأمام هذه النهضة العلمية والأدبية فى هذا الجزء من الوطن
العربى لابد من أن نقف وقفة ننظر فيها الى ذلك الانتاج الثرى
الغزير ، والى هذا الحشد الحاشد من العلماء والأدباء لنرى هل
اختلفت بهم الحياة العلمية والفكرية والفنية عما كانت عليه فى
المشرق ، أم أنهما تشابها وجاءا قريبا من قريب ؟ .

والذى نقرره فى هذا الصدد أن مطلع الثقافة العربية فى
مختلف فروعها انما كان فى شرق الدولة العربية ، فالشعر
وعلوم اللسان ، وكذا علوم الدين التى تفرعت عن القرآن والسنة
كلها نبتت وازدهرت فى الجزيرة العربية ، وفيما جاورها من أقاليم
تبعها تبعية سياسية ، ثم كان أن طارت هذه الثقافات على أجنحة
العرب الفتاحين والمهاجرين الى المغرب .

ولسنا ننكر أن قد قامت فى ذلك الغرب مدارس ومذاهب ، ولكننا
نستطيع أن نقول غير مجاورين الحقيقة : انه برغم امتداد السنين

بالمفاتيح والمهاجرين ، وبرغم استقرارهم في البلاد المغربية الجديدة وبرغم نشوء طبقات من المغاربة ، كان لهم حظ كبير من العلم والمعرفة - برغم ذلك كله - فان أثر المشرق في المغرب ، وأثر المشاركة في المغاربة ظل قويا وقائما على طول المدى حتى مانكاد نستبين أثر الاقليمية في تناج هذا الجزء من الدولة الاسلامية اذ « لم تضع حدود الأقاليم حواجز أو فواصل في سبيل العلماء والأدباء والكتاب والشعراء » (١) ، وانما بقى أولئك يقتفون أثر هؤلاء لأن المغلوب - كما يقول ابن خلدون - مولع ابدا بالاقتراء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت له .. وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم ، كيف تجدهم متشبهين بهم دائما وما ذلك الا لاعتقادهم الكمال فيهم (٢) وأهل المشرق على الجملة ارسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع حتى انه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب الى المشرق في طلب العلم ، أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ، وانهم أشد نباهة ، وأعظم كيسا بفطرتهم الأولى ، وان نفوسهم الناطقة اكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب (٣) .

والحقيقة كما يقول ابن خلدون بعد الذي تقدم أن « ليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة (٤) .

(٣) المقدمة ٤٨٣

(١) العربية لبوهان فك ص ١٦٨

(٤) المقدمة ٤٨٣

(٢) المقدمة ص ١٦٤

وانما تعلق المغرب بالمشرق تعلق الفرع بأصله ، أو تعلق اللاحق
بالسابق والمتأخر بالمتقدم ، وهذه حقيقة يؤكدتها تناقل المعارف
وحملها من الشرق الى الغرب ، وارتحال المتعلمين من المغرب الى
المشرق ينهلون من موارده ليعودوا الى بلادهم فيجلسوا مجالس
الأساتذة .

وهذا أبو على القالى صاحب كتاب الأمالى ٢٨٨ - ٣٥٦ هـ
يولد فى أرمينية بأقصى الشرق ، وينشأ فيها ، ثم يحصل علوم
اللغة والأدب على مشيخة بغداد ، ولكنه ينزح الى أقصى الغرب
لينشر علمه فى أسبانيا « (١) .

وحياة المتنبى شاعر العربية كان مجالها بين العراق وسوريا
ومصر وفارس ، يمدح ويهجو ، ويلقى الرضا من حكام هذه
الأقاليم أحيانا فيطيل المقام فيها ، ويقابل بالعبوس والازورار عنه
فيعجل الرحلة بعد أن يهجو العباسيين .

بل أن كثيرين ينتهزون فرص المقام بأرض المغرب كالذى كان
من أبى الفضل محمد بن عبد الواحد الدارمى البغدادى ، بيعته
ال خليفة العباسى القائم بأمر الله الى المعز بن باديس خليفة المغرب،
فى وفادة تتصل بشئون الحكم والسياسة ، فيتلقاه المعز بن باديس
بالحفاوة ويحوطه بالنعمة والرغد ، فاذا هو يستعذب المقام فى
حضرتة بالقيروان وينتظم فى سلك رجال بلاطه الأدباء ، ولا يعود
الى بغداده أبدا .

(١) الغربية - يوهان فك ١٦٨

وهؤلاء هم شعراء الأندلس في جنوب غربي أوروبا يتركون
أندلسهم قاصدين المغرب ليقيموا في رحاب أمرائه ، وهؤلاء
يبدلون لهم من الأعطيات ويمنحونهم من الهبات ، وينزلونهم منازل
الكرامة حتى ما يعود أكثرهم الى أندلسه ، ويكون من وراء ذلك
كله في المغرب علم جم وأدب غزير .

ونلفت النظر هنا الى أن المغرب بوقوعه بين مشرق الدولة
العربية وبين الأندلس طرفها الأقصى من الغرب ، قد تمهياً له بذلك
ما جعله محط العلماء من كل فج وصقع ، فهو على الطريق بين
طرفي الدولة ، والراحلون من المشرق الى الأندلس ، والآيئون
من الأندلس الى المشرق يمرون به ، وكثيرون منهم تعجبهم الحياة
فيه ، فيحطون رحالهم حط اقامة ، حتى كانت للمغرب بذلك
كله حركة علمية لا تنقل عن مثيلتها في الشرق .

ولكن بالرغم مما كان يحاوله المغرب من منافسة المشرق ، وأن
تكون له شخصيته المتميزة ، فإن علماءه وأدباءه وشعراءه ظلوا
وهم يرون في المشرق وعلمائه وأدبائه الأب الروحي لهم ، يتطلعون
اليهم تطلع الولد الى أبيه ، والتلميذ الى أستاذه ، ولا عجب في
أن يتعلق الفرع بالأصل ، « ويأخذ الأدنى عن الأعلى » (١) ومن
ثم تمنى شعراء المغرب لو أن مطلعهم كان في المشرق ، فهذا
أبو محمد علي بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٥٠٦ هـ . وقد كان
اندلسي المنشأ والمربي والمقام يتمنى لو أنه كان مشرقياً ، وذلك
حيث يقول :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيى أن مطلعى الغرب
 ولو أنتى من جانب الشرق طالع لجد على ماضع من ذكرى النهب
 ولى نحو اكتاف العراق صباية ولى نحو اكتاف العراق صباية
 وما كلفه الا لأنه كان يرى ذلك الصقع من الدولة أرسخ
 قدما فى العلوم ، وأعلى شأننا فى الفنون والآداب .

وأدرك هذه الحقيقة المؤرخون لهذه الحقبة ، فقسطاكى
 الحمصى يقول : « وكان لا يظهر كتاب علم أو ديوان شعر
 لنا بغة من نوابع العرب فى الشرق الا تهاداه أكابر الأندلس وعلماءه ،
 واستنسخوه وتداولوه . » (١)

والمرحوم أحمد ضيف يقول « وجدنا ظاهرة التقليد للشرق
 واضحة جلية اذ تصاغ الكتب الأدبية على يد الأندلسيين على
 شكل الكتب الأدبية عند المشاركة ، ويصاغ العقد الفريد - وهو
 أندلسى المؤلف - على شكل عيون الأخبار ، ويراه الصاحب
 ابن عباد فيقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا » (٢)

ويحس ابن بسام تعلق المغرب بالمشرق ولا يعجبه ذلك حمية
 أن يقول « وبالجملـة المشاركة على هذا الفن أقوم من المغاربة ،
 وسببه والله أعلم أنه كمالى فى العلوم اللسانية ، والصنائع
 الكمالية توجد فى العمران ، والمشرق أوفر عمراناً من المغرب .. »
 ويحس ابن بسام تعلق المغرب بالمشرق ولا يعجبه ذلك حمية

(١) منهل الوارد ١٨٣

(٢) مقدمة لدراسة بلاغة العرب

وعصية ، فينعى على قومه هذا ويقول فيهم : « ان أهل هذا الأفق أبوا الا متابعة أهل المشرق ، يرجعون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة ؛ حتى لو نقى بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذه صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ؛ ففاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، غيرة لهذا الأفق القريب أن تعود بدوره أهلة وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة ، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، واختص أهل المشرق بالاحسان ؟ » (١)

ولقد كان قصارى أمل أحد المغاربة أن يشبه في فنه وعلمه بأحد المشاركة ، والشعالي يتحدث عن ابن دراج ، ويريد أن يرفعه في الشعر درجات ، فلا يجد أوفى بغرضه وأبلغ لحاجته من أن يقول فيه : كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام » (٢) . وكما كانت الكتب في المغرب تصاغ على غرار الكتب في المشرق ، فان كتب المشرق بذاتها كانت تفقد على المغرب ، ما ان يفرغ المؤلف في الشرق من املاء كتابه حتى يستنسخه النساخ لبيعوه في الغرب كالذى كان في كتب الجاحظ فقد ذكروا ان البيان والتبيين ، والتربيع والتدوير قد نقلوا الى الأندلس في حياة الجاحظ (٣) .

وقد كان الوارقون أصحاب دور كبير في تناقل الكتب، ونقل

(١) الذخيرة لابن بسام القسم الاول - مجلد - لا - ص ٤

(٢) البتامة ج ٢ ص ٤٠

(٣) معجم الادباء ج ٦ ص ٧٤

الثقافة عبر الأقاليم العربية ولفت نظري الى هذه الظاهرة سعادة
حسن حسنى عبد الوهاب وزير تونس حين كتب على هامش
مخطوطتى « ابن رشيق وتقد الشعر » : « أنظر ترجمة بائع
الكتب الذى حمل من المشرق كمية عظيمة من الدواوين الضخمة
يقصد بيعها فى القيروان والأندلس - فهرست ابن خير فى المكتبة
الأندلسية العربية طبع كوديرا - مجريط ».

وخلاصة هذا الترابط بين الشرق والغرب ، مع نظرة الغرب
الى الشرق ، أن هذا الجزء من الوطن العربى ظل ينتج ويكتب
ويؤلف على غرار ما كانت الكتابة والتأليف فى الشرق ، ولم
تختلف شخصية المغاربة عن المشاركة فى أدبهم وعلومهم ، اللهم
الا اختلافا يسيرا ، كأن يضيفوا الى الشعر وزنا كالذى حكاه
العماد الاصفهاني فى باب عقده لذكر محاسن فضلاء جزيرة
صقلية ، وروى فيه شعرا صقليا بعضه على أوزان جديدة كقول
أبى الحسن بن أبى البشر فى وصف راقصة ، وذلك قوله :

وغزال مشنف قد رثالى بعد بعدى
لما رأى مالتيت

مثل روض مفوف لا أبالى وهو عندى
فى حبه اذ ضنيت

وجهه البدر طالعا تاه لما حازودى
فاننى قد سقيت

ونحن نعلم أن الشعر العربى ظل ملتزما الى أبعد حدود

الالتزام ما كان عليه فى الجاهلية وصدر الاسلام فلما نزع العرب
الى الأندلس وشمال افريقية وجزيرة صقلية نظموا فى أوزان جديدة
حملت اسم الموشحات ، وهى كما يقول ابن سناء الملك فى دار
الطراز : « كلام منظوم على وزن مخصوص » وهو فن من
الشعر أساسه الأنغام والألحان ، وأوزانه لا حصر لها حتى قالوا :
ان من لا يعرف منه مائة وزن فلا علم له بالموشحات ومن نماذجه :

كحل الدجى يجرى من مقلة الفجر
على الصباح
ومعصم النهر فى حلل خضر
من البطاح

ومنها قول ابن زمرك فى التزهيد :

والله ما الكون بما قد حوى الا ظلال توهم الغافلا
وعادة الظل اذا ما استوى تبصره منتقلا زائلا
انا الى الله عبيد الهوى لم نعرف الحق ولا الباطلا

فكل من يرجو سوى الله خاب وانما الفوز لعبد منيب
يستقبل الرجعى بقلب منيب ويرقب الله الشهيد الرقيب
وهكذا لم يزد الغرب على الشرق ، ولم يتميز منه بغير ذلك
اللون من النظم فى الموشحات . حتى لذهب ابن خلدون الى أن
المشاركة لا تقدر على هذا الفن ، وما عانوه منه جاء وهو ظاهري

التكلف ، وأحسن ما وقع لهم فيه موشحة ابن سناء الملك، المصرى
التي اشتهرت شرقا وغربا ، والتي أولها :

ياحيبى ارفع حجاب النور عن العذار
تنظر المسك على الكافور فى جلتار

كللى ياسحب تيجان الربى بالحلى
واجعلى سوارها منعطف الجدول (١)

كما استحدث أهل الأمصار فى المغرب فنا آخر من الشعر فى
أعاريض مزدوجة كالموشح ، ونظموا فيه بلغتهم الحضرية وسموه
عروض البلد . وكان أول من استحدثه فيهم — على ما يقول ابن
خلدون — ، رجل أندلسى نزل بفاس يعرف بابن عمير ، ومن
نظمه قطعة على طريق الموشح ، ولم يخرج فيها عن مذهب
الاعراب ، ومطلعها :

أبكأنى بشاطى النهر نوح الحمام
على الغصن فى البستان قرب الصباح

الخ الموشحه .

وظاهر ذلك أن المغاربة انما تميزوا بهذا الفن الذى تخلوا
فيه عن خصائص اللغة العربية فى استعمالها من حيث الاعراب
واشتقاق الكلم ونظم الجمل تخليا استباحوا معه استخدام
العامية . وفى رأى أنه هذه ليست ميزة فى المغرب ، فربما كانا

(١) المقدمة ص ١٦٦

مثلا لعوام المشرق ، ولكنه لم يصلنا . اذ لم يهتم المشاركة بتدوين ماجاء على غير أصول اللغة العربية .

وهكذا يكون علم المغرب وأدبهم وفنهم الذى صيغ على عمود اللغة العربية جاء وليس فيه جديد يخالف به علم المشرق وأدبه وفنه ، وابن رشيق مثل على صدق قضيتنا تلك ، فقد جاء ولا أثر للموطن الجغرافى فى نقده وشعره الا ما يكون من الأثر فى موضوعات الشعر المتصلة بالأشخاص والأمكنة - على أن هذا لا يعتبر أثرا فنيا ؛

ويكون ابن رشيق أيضا دليلا على أن المعارف الانسانية تتشابه الى حد كبير برغم اختلاف البيئات . وعلى أن اللغة الواحدة حينما تنتشر فى بقاع كثيرة وتسود فى مواطن متباعدة متغايرة بالشكل والمناخ والموقع ، لا تختلف فى قواعدها وقوانينها ، وان اختلفت فى موضوعاتها لاسيما اذا كانت تعتصم بكتاب مقدس يحمل عقيدة الناطقين بها ، ويقع من نفوسهم موقع الاكبار والاحلال وذلك شأن اللغة العربية التى ألف بها ونظم العلماء والشعراء ، فى المشرق والمغرب على حد سواء فانها اعتصمت بالقرآن الكريم .

ان هذا الكتاب المقدس كان الحصن الذى حمى هذه اللغة من أن تتبدل أو تتغير فى القديم أو الحديث ، فى المشرق أو المغرب ، وكان هم العلماء دائما وفى كل مكان أن يحافظوا على نقاوتها بما يؤلفون فى طرق استعمالها ، وتحديد رسومها

وقواعدها ، ومن هؤلاء صاحب السيرة - ابن رشيق - غير متأثر بالبيئة المغربية وان نأت عن المشرق ، فالنحو العراقي يحمله الى مصر والى المغرب الراحلون من العراق والمتعلمون على أساتذته ، والعائدون بعد ذلك منه ، والشعراء على أبواب الملوك والأمراء يتنقلون من بلاط الى بلاط فيوحدون مناهج النظم ، والوارقون وتجار الكتب يحملون كتاب الأغاني ورسائل اخوان الصفا من العراق الى الأندلس ، ومكتبات مصر ، ومكتبات الاندلس والقيروان والمهدية وفاس وخراسان وغزنة ، تضم في خزائنها أهم ما أنتجه العالم الاسلامى بغض النظر عن اقليمه « (١)

وتسهم هذه العوامل جميعا في تأكيد وحدة الشخصية العلمية والأدبية والفنية في أصولها بين المغرب والمشرق ، حتى ما نستطيع أن نرد أثرا الى اقليمه لذاته ، وانما نستطيع ذلك حين تقتصر بالأثر العلمى أو الأدبى عوامل أخرى تعين على تحديد موطنه. وكل ما يمكن أن يكون للاقليم على الظاهرة العلمية أو الأدبية في الثقافة العربية من بصمات لا يعدو أن يكون شيئا لا يمسها في الصميم ، وانما يقع منها في الشكل الخارجى .

وشئ آخر ظهر كأثر للاقاليم على اللغة في فنونها الأدبية هو ما أشرنا اليه من العامية التى انفرد كل اقليم فيها بمنحى خاص كاللهجة ، واستخدام مفردات بعينها استخداما تبعد به عاميته عما سواها من عاميات الأقاليم الأخرى .

(١) ظهور الاسلام ج ١ ص ١٧٧

ومن ثم كانت الدعوة الى استخدام العامية ، أو اتخاذها لغة
كتابة ، أو أدب ؛ دعوة الى تقطيع أوصال هذه الأمة ، وتمزيق
ذلك العالم العربي ، ومن ثم كانت محاربة هذه الدعوة دائماً
وأبداً مسئولية كل مخلص للعرب والعروبة ، ولتوضيح ذلك
موضعه في غير هذه السيرة .

الفصل الثاني حياته ابن رشيق

ونعني بحياته ابن رشيق أسرته التي نسلته ، ومولده ونشأته ،
وصلاته بغيره ، وسلوكه في خاصة نفسه ومع مجتمعه .

أسرته :

فأما عن أسرته فلم يحفل بها التاريخ كدأبه في أنه لا يحفل
إلا بالملوك والقادة وانتصاراتهم وهزائمهم وفتوحاتهم وغاراتهم ،
وأما من عدا هؤلاء كالعلماء والشعراء وأضرابهم فانه يكتفى بذكر
آبائهم وسنى ولادتهم ووفاتهم وشيئا من سيرتهم ان اولاهم
عناية . لذلك فانا لا نعرف من أمر أسرة ابن رشيق القيرواني الا
أن والده كان روميا وكان مولى من موالى الأزد ، ولم يكن له
شأن في ملك أو سلطان ، وانما كان رجلا يحترف صياغة الذهب
في بلدة المسيلة . فأما الأزد فقبيلة من قحطان هاجرت الى المغرب
فيمن هاجر من العرب الذين طازوا عن جزيرتهم مع الفتوحات
الاسلامية ، وحطت في المغرب ، وكان من موالىها ذلك الرومى
الصائغ وهكذا يكون ابن رشيق روميا في أصل نسبه ، عريبا
بالولاء واللسان والمنشأ والمربى .

ومع ما كان العربي يستشعر في عروبتة من العزة والشمم
فاز بن رشيق لم يكن يرى في روميته ما ينزل به عن أقرانه
وانداده من العرب ، بل كان يصرح برضاه عن نسبه في الأعاجم ،
وبفخر بوالده - قال وقد غيره منافسه ابن شرف القيرواني بأنه
ينتمي إلى أب رومي :

أما أبي فرشيق لست أنكره

قل لي أبوك وصورة من الخشب

وهو يعرض في بيته هذا بابن شرف الذي قالوا ان « شرفا »
اسم لأمه ، وليس له أب معروف ولذلك يقول ابن رشيق : « ما
أبغى به أبا ، ولا أرضى بمذهبه مذهباً ، وضيت به روميا لا دعيا
ولا بدعيا » .

واسم الوالد كما يصرح ابن رشيق نفسه في بيته المتقدم
رشيق ، وعلى ذلك أكثر المصادر التي تذكره وترجم له ، فتذكر
أنه « أبو على حسن بن رشيق » فأبو على كنيته ، وحسن اسمه ،
ورشيق اسم أبيه ، ولا يشذ عن ذلك أحد فيما رأيت الا نسخة
خطية من كتاب العمدة في مكتبة تيمور بدار الكتب العربية تحت
رقم ٩٧٩ فانها تجعل اسم الوالد عليا حيث جاء عنوانها هكذا
« أبو على حسن بن علي بن رشيق » وانفراد هذه المخطوطة من
بين المخطوطات الأخرى ، ومخالفتها لسائر المترجمين له يحمل
دليل خطأ الناسخ لاسيما وصاحبنا نفسه يقول «أما أبي فرشيق» .
وقد وقع في هذا الخطأ عينه من المحدثين يوسف الياس سر كيس

حين ترجم له في كتابه «معجم المطبوعات العربية والعبرية» فقال
«أبو علي الحسن بن علي بن رشيقي» (١) وفيما عدا هذين يعتقد
إجماع المترجمين له على أن والده رشيقي وليس عليا .
وكان الوالد يشتغل بصياغة الذهب في المسيلة إحدى مدن
المغرب ، وفيها ولد ابن رشيقي ، ولاشك في أنه نشأ بها أيامه
الأولى ، واشتغل في حرفة أبيه ، ولكنه نزع منذ طفولته الى
الأدب ، فنزح الى حيث مجالسه والى حيث يمكن أن يجد بغيته
في دراساته التي كانت تنعقد بالجامع الكبير في القيروان ، وكأني
بصنعة أبيه ظلت تلاحقه حتى بعد أن صار علما من أعلام العربية
في نقدها وشعرها ، فإذا هو يسمى أحد كتبه «قراصة الذهب في
نقد أشعار العرب» .

ولادته :

واختلف الذين ترجموا لابن رشيقي حول زمان ولادته
ومكانها ، فأما عن المكان فقد قال ابن بسام في كتابه الذخيرة :
«فصل في ذكر الأديب الكامل أبي علي بن رشيقي المسيلي» .
وهكذا يطالعنا أول ما يطالعنا في الحديث عن الرجل بنسبته الى
المسيلة إحدى قرى المغرب ، ثم يذكر ذلك صراحة عندما يقول :
«بلغني انه ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلا ، ثم ارتحل الى القيروان
سنة ست وأربعمائة» (٢) ولعل هذه أقدم ترجمة لصاحب السيرة

(١) معجم المطبوعات العربية والعبرية ج ٢ ص ١١٠

(٢) الذخيرة القسم الرابع مصور بمكتبة الجامعة ورقة ١٧٢

ومثل ذلك نجده لابن فضل الله العنبرى ، ويذكر الرجل أنه نقل ذلك عن ابن بسام .

والقفطى يقول : « الحسن بن رشيق القيروانى الفاضل الأديب الجليل القدر ... وجدت له ما صورته : هو الحسن بن رشيق الأفريقى المعروف بالقيروانى ، من أهل مدينة من مدن إفريقية تعرف بالمحمدية ، وأبوه رشيق مملوك رومى لرجل من أهل المحمدية من الأزد . » (١) ويؤكد ذلك وأن المحمدية هي مكان ولادته حيث يقول .. ونشأ بها ، وعلمه أبوه صنعته وهي الصياغة وقرأ الأدب بالمحمدية وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم ، واشتاق نفسه الى التزيد من ذلك ، وملاقة أهل الأدب ، فرحل الى القيروان وعمره ست عشرة سنة » (٢) وبمثل ذلك قال أكثر الذين ترجموا له ومنهم يافوت فى معجمه .

والمحمدية ، هي المسيلة ، مدينة من أعمال برقة من ناحية الاسكندرية ، وتعلق بها ابن رشيق ، ومدحها فى صباه اذ قال فى واديه :

تسكى غواربه غوارب بزل

جاءت بغير قوادم وهوادى

وبعد فلا قيمة بعد الذى تقدم من تحقيق مكان ولادته — وانها المحمدية — لما يقول ابن خلكان (٣) من أنه ولد فى المهديّة

(١) انباء الرواه على انباء النحاه ج ١ ص ٢٧٧

(٢) انباء الرواه على انباء النحاه ج ١ ص ٢٧٧

(٣) وفيات الاميان ج ٤ ص ١٦٤

وكذا ما يقوله المرحوم عبد الله عفيفي في كتابه : « زهرات منشورة في الأدب العربي اذ يقول عنه انه ولد في المهديّة من أعمال تونس » (١) .

والخلاف في زمان ولادة ابن رشيق ليس بأقل من الخلاف في مكانها فاليمينى من المحدثين يرى أنه ولد سنة ٣٩٠ هـ . وهو في ذلك يعتمد على ما قرره ابن رشيق عن نفسه في كتابه أنموذج الزمان .

واما صاحب بساط العقيق فيجعل مولده في سنة ٣٨٥ هـ . حتى يصح في رأيه ما تناقله الرواة من أنه مات عن اثنتين وسبعين سنة ، وقد رجح عنده أنه مات سنة ٤٥٦ هـ . فليكن ميلاده سنة ٣٨٦ لتصح الرواية في عدد سنّ حياته ، يقول : « وهذا استنتاج أولى بالأخذ من رواية الرجل نفسه » (٢) .

وثمت رواية جاءت للقفا في كتابه ابناء الرواة ، تجعل ولادة ابن رشيق « في شهور سنة سبعين وثلثمائة » .

وعندى ان رواية القفا من تصحيف النساخ وصوابها « في شهور سنة تسعين وثلثمائة » ويرجح ذلك أنه هو نفسه يذكر أن الرجل قال الشعر قبل ان يبلغ الحلم .. واشتأقت نفسه الى التزبد من الأدب فارتحل الى القيروان وعمره ست عشرة سنة ونحن نرجح اعتمادا على مصادر أخرى أنه ارتحل الى القيروان

(١) زهرات منشورة في الادب العربي ص ١١.

(٢) بساط العقيق ص ١٢.

سنة ٤٠٦ هـ وعمره يومئذ وكما يقول القفطى نفسه ست عشرة سنة ، ولا يكون ذلك كذلك الا وهو قد ولد سنة ٣٩٠ هـ .

أما رواية صاحب البساط ، فهي استنتاج جملة عليه أنه لا يعتل أن يكون ابن رشيق قد اجتمع ببعض الشعراء سنة ٤٠١ هـ لأنه لا يكون قد جاوز الحادية عشرة « وهى سن - فيما يرى - لا تسمح بهذا اللقاء » ولكننا لا نرى استحالة - فى ان يجتمع نابغة كابن رشيق مع شعراء يكبرونه فى العمر ، ويقاربهم فى قرض الشعر ، ذلك أن النبوغ لاسن له ، وقد حدثونا أن عبد الله الرازى الحافظ المؤرخ الأديب كان يحمل على الكتف للسمع وهو ابن خمس سنوات ، كما حدثونا عن مثل ذلك فى جنب الزمخشري ، فإن يجتمع ابن رشيق بالشعراء وهو فى الحادية عشرة أقرب الى التصديق من ذلك .

ونخلص من كل الذى تقدم الى ان الرجل ولد فى سنة ٣٩٠ هـ . وليس فى سنة ٣٨٦ كما قال صاحب البساط ، ولا سنة ٣٧٠ هـ . كما ذكر القفطى .

نشأته الأولى :

ومن العسير على من ينشد معرفة حياة ابن رشيق فى نشأته وتربيته أن يجد مرجعا يمكن أن يكون مصدرا لهذه المعرفة ، ذلك أنه انما يعنى بتسجيل مثل ذلك فيما لو كانت الشخصية قد ولدت فى بيت ملك أو عز أو جاه وصاحبنا ليس الا ولدا لرجل رومى ، مستعرب ، يعمل فى صياغة الذهب ، احدى الحرف

التي تقوم في آى مجتمع ، فليست للمؤرخين به ولا بأسرته عناية
ولا حفل ، وحتى بعد أن كبر ولمع في بلاط المعز ، لا نجد لأسرته
ذكرا الا ما توحى به آيات قالها يوجهها للمعز بن باديس ، ويقول
فيها :

معز الهدى لازال عزك دانيا
وزينت الدنيا لنا بحياتك
أتنى أتنى يعلم الله أتنى
سررت بها اذ أمها من هباتك
وقد كنت أرجو أنها ذو بلاغة
يقوم مقامى عن بديع صلاتك
وما نحن الا نبت جودك كلنا
وكل نبات الأرض من بركاتك

فان في هذه الايات ما يشير الى أن ابن رشيق تزوج وأقام
أسرة ، وولدت له بنت ، وسر بها ، ولو أنه كان يرجو لو كانت
غلاما يقوم مقام أبيه في مدح ولى نعمته ، كما تشير الايات الى
أن زوجه كانت جارية وكانت احدى هدايا المعز بن باديس اليه ،
أو انه فى الأقل دفع له صداقتها ، أو ان صداقها ومهرها كان من
عطاءات الأمير المتتابعة عليه وعلى أقرانه ممن هم فى خدمة المعز ،
ولم لا وكل نبات الأرض وخيراتنا انما هو نعمة من نفعات الأمير
أو بركة من بركاته .

وبرغم ما قرأت لابن رشيق وعنه فانى لم أعتد له على حديث

— فى غير هذه الأبيات — يشير الى أسرته وبنيه ، أو يتناول عاطفة الأبوة ، ورابطة البنوة ، الأمر الذى أرجح معه أن يكون كثير من شعره قد ضاع ، اذ تستبعد النفس ان يعيش رجل كابن رشيق ما عاش ، ويقول الشعر فى كثير من أبوابه وأغراضه ثم لا يكون له شعر فى هذا المجال يتصدى فيه لحديث أسرته وزوجه وأولاده وما عسى أن يكون له معهم من مواقف واحداث وصلات .

صلاته وعلاقاته :

كادت المراجع تجمع على أن ابن رشيق نشأ فى المحمدية ، فى ظل أبيه وصنعتيه ، ولاشك فى أنه تردد على المدارس أو الكتابيب فى المحمدية وأخذ عن معلمها شيئاً من ثقافة العصر، وكان عمادها حفظ القرآن الكريم ودراسة ما يتصل به من علوم اللغة والدين . وكان — ولاشك — فى هذه الفترة يساعد والده ويشاركه صنعة الذهب — وقد يكون ذلك فيما تتصور — بعد رجوعه من الكتاب فلما ترعرع وشب عن الطوق تآقت نفسه الى الأدب ومزيد منه ، ورأى أن القيروان هى محط العلم والعلماء والأدب والأدباء، فرحل اليها ونهل من مناهل الأدب واللغة والشعر والنقد فيها ثم لما أحس من نفسه نبوغاً تطلعت نفسه الى وظيفة فى قصر المعز ، ولاشك فى أنه رفع اليه مدائح فى شعر اعجبه ، فأشار بضمه الى بلاطه ومن شعره الذى قال فيه :

وذئال له رجل طحسون
يطير بأربع لا عيب فيها
لظهران الصفا منها عجيج
وخل له عن النوهم الخروج
الى الملك المعز أبى تميم
أمر بمن سواه فلا اعيج
وهو فى شعره هذا يجرى على سنة العرب فى مدائحها من
وصف المطية التى تبلغهم آمالهم ثم التخلص من ذلك الى نعت
الممدوح نفسه .

وكان على رأس ديوان المعز للمراسلات والمكاتبات رجل له
بصر ثاقب فى النقد والأدب ، والمعرفة بجيد الكلام ، وقد أعجب
بأبن رشيق لبراعته فى صنعة الشعر ، فوضعه فى وظيفة السكاتب
المختص بأمور الجيش ، ولعله يشير الى ذلك بقوله :

وقد كنت كاتب جيش الأمير ومجرى الأمور على رسمها
غير ان عمله بالديوان ، واتصاله برئيسه وبالمعز لم يبق
متصلا ، وانما قطعه هو بأطماع حدثته بها نفسه ، فترك خدمة
الديوان لعمل آخر لا يفصح عنه ، ولا يشير اليه أحد ممن أرخوه
أو ترجموا له ، ولكنه لم يلبث أن عاد الى ديوان المعز . وقد
اعتذر عن غيبته تلك وانقطاعه هذا بأبيات جاء فيها :

ولولا شقائى لم أغب عنك ساعة
ولا رام صرفى عن حياتك صارف
ولكننى أخطأت رشدى فلم أصب
وقد يخطئ الرشد الفتى وهو عارف

ومن ذلك الحين لانعلم الا أن ابن رشيق ظل في ديوان المعز ،
وفي تبعيته لرئيس الديوان أبى على ابن أبى الرجال ، لم يتخل عن
خدمتهم ، ولم يغب عن مجالسهم ، ولم ينفصل عنهم ، الا حين
قامت فتن القيروان سنة ٤٤٩ هـ ، واضطر المعز الى الارتحال عنها
للمهدية فان صاحبنا لم يكن له بد أيضا من ان يرتحل هو الآخر
للمهدية ، ويعيش في كنف أميرها تميم بن المعز ويمدحه بقوله :
أصح وأقوى ما سمعناه في الندى

من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويه السيول عن الحيا

عن البحر عن كف الأمير تميم
ولكن ابن رشيق في المهدية لا ينس حياة القيروان ، وهو في
ظلال الأمير تميم ، انه لا ينس أيامه في ظلال أبيه المعز ، ولذلك
نسمعه يقول :

أترى الليالى بعد ما صنعت بنا
تقضى لنا بتواصل وتداني
وتعيد أرض القيروان كعهدنا
فيما مضى من سالف الأزمان
أمت وقد لعب الزمان بأهلها
وتقطعت بهم عرا الأقران
فتفرقوا أيدي سببا وتشستوا
بعد اجتماعهم على الأوطان

ويبدو أن ابن رشيق لم يجد في كنف الأمير تميم في المهديّة ما يشجعه على البقاء فيها ، أو أنه وجد ما يضطره الى الرحيل عنها ، ولذا نراه يتجه نحو جزيرة صقلية ، ويحكى ابن بسام فى سبب ذلك قصة تتلخص فى أن أسطول الروم هجم ليلا على الهدبة « فأصبح النهر ثانيا تطلع منايا ، واكاما يحمل موتا زؤاما ، وان ابن رشيق دخل على المعز - الذى كان قد التجأ الى المهديّة عند ابنه تميم - فى فجر ليلة هجوم الأسطول ، فوجده ابن رشيق فى مصلاه ، والرقاع ترد عليه ، وهو ينظرها فى نور شمع بين يديه ، فقام ينشده قصيدته التى يقول فيها :

تثبت لا يخامرْك اضطراب

فقد خضعت لعزتك الرقاب

فلم يعجب المعز ذلك المطلع ، وابتدر ابن رشيق بقوله : مه ، متى عهدتنى لا أثبت ؟ اذا لم تجئنا الا بمثل هذا فما لك لا تسكت عنا ؟ وما تعود ابن رشيق من صاحبه هذه المبادرة ، وزاد المعز أن أمر بالرقعة التى فيها القصيدة فمزقت ، ثم أدنيت من الشمع فأحرقت ، فعز ذلك على ابن رشيق الذى عاش معاش فى بلاط الرجل مقربا ، وخرج من يومه على غير طريق الى أن ولى وجهه شطر صقلية ، فبقى فيها الى ان مات .

وفى صقلية تاقت نفس ابن رشيق الى الأندلس ليلقى عبادا ! أحد امرائها ، وكان كثيرا ما يسمع به فيرتاح اليه - كما نقول

ابن بسام - ارتياح الكبير الى شبابه ، وصادف ان قدم أحد تجار الأندلس الى الجزيرة من قبل عباد ، فبرقت لابن رشيق بارقة أمل في سنوح الفرصة للقاء عباد ، « وأخذ يتردد على التاجر ويعشاه ، ويقترح عليه لقاء عباد ويتمناه ، والتاجر يعده ويمنيه ، ويقرب له ذلك ويدنيه ، حتى اذا أسمحت الرياح ، وأمكن في ميدان البحر المراح ، ذهب التاجر لطيقته ، وخلي ابن رشيق وأمنيته ، ثم انه لما وصل الى الأندلس ، اخبر عبادا بذلك كأنه يتجج بما هنالك ، فبالغ هذا في نكاله ، وأمر باستصفاء أكثر ماله » (١)

وأما ابن رشيق فقد رام ركوب البحر بعد ذلك ، « فحشن ملمسه ، ولم تساعده على ركوبه نفسه » فقال :

البحر صعب المذاق مر لا جعلت حاجتي اليه
البحر ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه
وهكذا بقى الرجل في الجزيرة ، ولم تنهيا له فرصة الارتحال الى الأندلس .

مع ابن أبي الرجال :

وهو ابو الحسن على بن أبي الرجال الشيباني ، اتصل به ابن رشيق لما كان هذا رئيسا لديوان الانشاء على عهد المعز ، واشتهر بالكرم وتشجيع الأدب واليه رفع ابن رشيق كتاب العسدة ، وقال يخاطبه بعد أن حمد وصلى : أما بعد فان أحق من

(١) الذخيرة لابن بسام القسم الرابع ص ١٢٦ من المصورة بمكتبة الجامعة

جنى ثمار الألباب ، واقتطف زهر الآداب ، متنزها في
 عقول الحكماء ، متفكها في أقاويل العلماء ، بالغاً بهمته
 أعلى المراتب ، خاطباً لنفسه أسنى المطالب .. من عرف للعلم حقه
 وفضله ، وسلك به طرقه وسبله ، وأكرم في الله مشواه ونزله ،
 وخص بالقرب ذويه وأهله ... كالسيد الأمجد ، والفذ الأوحد ،
 حسنة الدنيا وعلم العليا ... رجل الخطب وفارس الكتب ، أبى
 الحسن على بن أبى الرجال الكاتب .. الذى نال الرياسة ، وحاز
 السياسة وانفرد بالبسط والقبض ، واتحد فى الأبرام والنقض . »
 الى آخر ما يقول فيه ويبالغ .

وأيا ما كانت كلمة ابن رشيق فى صدر عمدته من المبالغة ،
 فالذى لاشك فيه أن ابا على هذا كان يهتم بالأدب والأدباء ويقرب
 العلماء والشعراء ، وليس صاحبنا بالذى ينفرد فى مدحه، والمغالاة
 فى اطرائه ، وإنما غيره على شاكلته .

شيوخه :

كان طبيعياً أن يتلقى ابن رشيق المعرفة على أيدي شيوخ
 عصره ، وهو عصر حفل بالعلم والعلماء ، وإذا كنا قد ذكرنا من
 شيوخ القيروان عند الحديث عن هذه المدينة التى نافست بغداد ،
 فإنا هنا نذكر من رجال العلم نفرا ممن تلقى عليهم ابن رشيق
 علمه وأدبه ، وكان أكثره فى اللغة والشعر ونقده .

وقد بحث فى كتب التراجم عن أولئك ممن ذكر ابن رشيق
 أنه أخذ عنهم وممن لم يذكر ، على أنى بدا أعترف لابن رشيق

بتخصيصه قلما نجدها في كثيرين ، تلك هي أنه يرد الفضل الى ذويه
حين ينقل رأيا أو يحكيه .

على أنى في هذا الموضوع من هذه الترجمة أقصر الحديث
على من تتلمذ عليهم وجالسهم وسمع منهم ، وأخذ عنهم مشافهة
ومناقشة ومحادثة ؛ أما أولئك الذين قرأ لهم ، ونقل عنهم ، وتلمذ
عليهم من طريق القراءة فلا نعرض لهم هنا .

فمن هؤلاء الشيوخ على الأساس الذي بينت :

١ - أبو عبد الله التميمي محمد بن جعفر القزاز القيرواني ،
كان اماما عالما باللغة ، وأخذ عنه ابن رشيق في أول شبابه حيث
مات شيخه في ٤١٢ هـ . ومعنى هذا أنهما اجتمعا في القيروان
ست سنوات فحسب ، ولكن اعجاب ابن رشيق بالشيخ كان
كبيرا ، وكتب عنه في أنموذجه على أنه أحد شعراء القيروان .
وحقا كان القزاز شاعرا مبدعا ، يدل على ذلك شعره الذي يرويه
له صاحب معجم الأدباء ؛ فمنه قوله يتغزل :

أما ومحل حبك من فؤادي	وقدر مكانه فيه المكين
لو انبسطت لى الآمال حتى	تصير لى عنائك فى يمينى
لصنتك فى مكان سواد عيني	وخطت عليك من حذر جفونى
فأبلغ منك غايات الأمنانى	وآمن فىك آفات الظنون
فلى نفس تجرع كل حين	عليك بهن كاسات المنون
إذا أمنت قلوب الناس خافت	عليك خفى الحاظ الجفون

فكيف وأنت دنيائى ، ولولا عقاب الله فيك لقلت دينى
فهذا شعر مطبوع يضع صاحبه فى عداد الشعراء قبل أن يكون
فى عداد العلماء .

٢ - أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى : وأكث
النقل عنه ابن رشيق فقال فى عمدته : حدثنى بعض أصحابنا من
أهل المهديّة - وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكديّة ، هو
أشرفها أرضا وهواء ، قال : جئت هذا الموضع مرة فاذا عبد الكريم
على سطح برج هنالك ، قد كشف الدنيا ، فقلت أبا محمد ، قال
إنعم ، قلت : ما تصنع هنا ؟ قال : القح خاطرى ، وأجلو ناظرى ،
قلت فهل تتج لك شيء ؟ قال ما تقربه عينى وعينك ان شاء الله ،
وانشدنى شعرا يدخل مسام القلوب رقة . قلت : هذا اختبار منك
قال : بل برأى الاصمعى (١) .

ترجم له فى كتابه الأنموذج كما يقول الميمنى (٢) .

٣ - أبو اسحق الحصرى صاحب كتاب زهر الآداب قال عنه
ابن رشيق : وكان شاعرا نقادا ، عالما بتنزيل الكلام ، وتفصيل
النظام ، يحب المجانسة والمطابقة ويرغب فى الاستعارة تشبها بأبى
تمام فى أشعاره ، وتتبع لآثاره ، وعنده من الطبع ما لو أرسله على
سجيته لجرى جرى الماء ، وزق رقة الهواء :

٤ - أبو عبد الله عبد العزيز بن سهل الخشنى الضريب
ويقول عنه ابن رشيق : كان مشهورا بالعلم والنحو واللغة جدا .

مقترا اليه فيهما ، بضيرا بغيرهما ، ولم يرقط ضريرا أطيب منه
 انفسا ، ولا أكثر منه حياء مع دين وعفة (١) ، ونقل عنه في العمد
 وأيه في القطع والطوال من الشعر فيقول: حدثنا الشيخ ابو عبد الله
 عبد العزيز بن ابي سهل رحمه الله تعالى ، ولا يذكر صفته بأنه
 الضير وكأنما يأبى التلميذ أن يذكر شيخه بما لا يجب أن يذكر
 به ، تأدبا واحتراما . وكذلك كان ابن رشيق مع الناس فكيف اذا
 كان الناس شيوخه .

معاصروه :

والى جنب أولئك الشيوخ الذين أخذ عنهم نجد ثلة من
 معاصريه لا نشك في أنه افاد منهم حين ناقشهم ، واجمع بهم ،
 وتقدهم وانتقدوه ، وطارحهم وطارحوه — وان لم يكوئوا منه
 بمثابة الشيوخ .

فمن هؤلاء خلف بن احمد القيرواني الشاعر ، ترجم له
 صاحبنا في أنموذجه ، وقال عنه : شاعر مطبوع تأدب بأفريقية ،
 ودخل مصر ، ومات بزويلة المهدية سنة ٤١٤ هـ .

ومنهم أبو عبد الله الصفار الصقلي ، لقيه وأنشده شعرا
 للصنوبري ، واستمع الى بعض شعره في غلام ، والقصة على
 ما يرويها ابن بسام عن ابي عبد الله انه قال : « كنت ساكنا
 بصقلية ، وأشعار ابن رشيق ترد على ، فكنت آتسنى لقاءه حتى

(١) معجم الادباء ج ٢ ص ٦٦

قدم الروم علينا فخرجت فارا بمهجتي ، تاركا لكل ما ملكت
 يدي ، وقلت أجمع بابي على ، فبرقة شمائله ، وطيب مشاهدته
 سيذهب عني بعض ما أجد من الحزن ، على مفارقة الأهل والوطن ،
 فجئت القيروان ، ولم أقدم شيئا على الدخول الى منزله ،
 فاستأذنت ودخلت فقام الي ، وهو ثاني اثنين ، فأخذ يدي
 وجعل يسألني فاخبرته بأمرى فارتضى ، وبعد أن سكن الي
 بمجالسته قال لي يوما : يا أبا عبد الله ان ههنا بالقيروان غلاما
 سلب كبدي ، واستولى هواه على خلدي منذ عشرة أعوام فانهض
 بنا اليه ، فان أنت ساعدتني عليه ، قدمت عندي يدا لا يعدلها الا
 رضاه فقلت سمعا وطاعة ، وسرت معه حتى جئنا صاغة
 الجوهريين ، فاذا غلام وكأنه بدر تمام ، صافي الأديم ، عطر
 النسيم ، كأنما يتنسم عن در ، ويسفر عن بدر قد ركب كافور
 عارضيه ، ومسك صدغيه على بياض يجرحه الوهم بخاطره ،
 ويؤذيه الطرف بناظره ، فلما رأنا الغلام علته خجلة سلبت وجه
 أبي على ماءه ، فأنشدته قول الصنوبري :

انه من علامة العشاق اصفرار الوجوه عند التلاقي
 وانقطاع يكون من غير وعى وولوع بالصمت والاطراق
 فقال له : والله ما واجهته قط قبل يومي هذا الا غشى على ،
 ولكنني أنست بك ، وشغلت بعدوبة لفظك مع أني لم أرو طرفي
 من وجهه القمر ، ولا متعته بقده المشر ، لتنكيسه رأسه عنه
 طلوعى اليه ، فقلت ولم ينكس رأسه ؟ فوالله ما رأيت أشبه

بالدر منه خدا ، وبالفصن قدا ، ولا بالدر ثغرا ، ولا بالمسك شعرا ! فقال يا أبا عبد الله : ما أبصرك بمحاسن الغلمان ، لا سيما من فضضت كف الجمال صفحته ، وذهبت وجنته ، وخافت على تفاح خده العيون فوكلت بها الجفون ، يا أبا عبد الله : ينكس رأسه لأنى علقتة ، وخده هلالى ، وطرفه غزالى ، وفرعه ظلامى ، ولحظه بابلى ، وقده قضيبى ، وردفه كشيى ، وخصره ساجى .
 وصدره عاجى ، فكان طرفى يشرب كافوره بالعقيق ، فيخرج لذلك صدر العشيق ، حتى بدا عذاره ، فابدى من تميمه نقشا على فضى أديسه ، فتوهم ذلك الطاهر الأعراق . الطيب الأخلاق ان ذلك مما يضعف قوى محبتى ويمحو رسوم مودتى ، فقلت له : بحقى عليك يا أبا على الا قلت فى هذا المعنى شيئا ، فأطرق قليلا ثم أنشد أبياتا ستأتى فى الحديث عن مجونه .

بينه وبين ابن شرف الجذامى :

واذا كنا قد ذكرنا من الشعراء من جرى بينه وبين ابن رشيق لقاء وحديث ، ومطارحة ومناجاة ، فانا نذكر ابن شرف ، وكانت بينهما منافسة اذ جمعهما بلاط المعز بن باديس ، واذا كان مجرد التعاصر مدعاة للتنافس ، فكيف اذا كان التعاصر مقسروفا بالاجتماع فى بلاط واحد .

فأما ابن شرف فهو الأديب الشاعر الكاتب أبو عبد الله محمد ابن ابى سعيد محمد والمشتهور بابن شرف . قال ياقوت : تقدم

عند الأمير المعز بن باديس... وكان هو وابن رشيق متقدمين عنده
على سائر من في حضرته من الأفاضل والأدباء ، فكان يقرب هذا
تارة ، ويداني ذاك تارة ، فتنافسا وتنافرا ثم تهاجيا ، ولكن لم
يتغير أحدهما على الآخر بما جرى بينهما من المناقضات .

ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز الى أن هاجم عرب
الصعيد القيروان ، واضطر المعز الى الخروج منها الى المهديّة
سنة ٤٤٩ هـ . فخرج ابن شرف وسائر الشعراء معه اليها واستقروا
بها .

ثم أن ابن شرف خرج الى صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق
ومكثا بها مدة ثم استنفضه على دخول الأندلس فرفض ، وتسلل
بالبيتين - أو قالهما - على الاختلاف في ذلك :

مما يزهدني في أرض اندلس
أسماء مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

فأجابه ابن شرف بشعر له يقول فيه :

ان ترمك الغربية في معشر قد جبل الطبع على بفضهم
فدارهم مادمت في دارهم وأرضهم مادمت في أرضهم
ثم شخص هو الى الأندلس تاركا صاحبه في صقلية .

واستخلاه وصاحبه ابن رشيق ، المعز بن باديس يوما وقال
 لهما : أريد أن تصنعا لى شعرا تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف
 ينبت على سوق بعض النساء فانى أحبه واستحسنه وقد عاب
 بعض الضرائر بعضا به ، وكلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن
 هذا وأدعى أنه قديم ، لأحتج به على من عابته ، وأسر به من عيب
 عليه ، قال ابن شرف : فخلا كل منا وصنع ، فكان الذى صنع
 ابن رشيق :

يعيون بلقيسة أن رأوا بها
 كما قد رأى من تلك من نصب الصرحا
 وقد زادها التزغيب ملحا كمثل ما
 يزيد خدود الغيد تزغيها ملحا
 وكان الذى صنعت قولى :

وبلقيسة زينت بشعر
 يسير مثل ما يهب الشحيح
 رقيق فى خدلجسة رداح
 خفيف مثل جسم فيه روح
 حكى زغب الخدود وكل خد
 به زغب فمعشوق مليح
 فان يك صرح بلقيس زجاجا
 فمن حلق العيون لها صروح

قال ابن شرف : فانتقد المعز على ابن رشيق قوله : «يعيون» وقال قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه ، وهذا نقدا ما فطنت له .

وهكذا كان التنافس بين الرجلين ، يذكيه المعز تارة ، وتشعله الرغبة في السبق والتقدم أخرى .

والغريب أن يصنع ابن رشيق رسالة ينقد فيها الشعر والشعراء ويسميها قراضة الذهب فرى لابن شرف رسالة تشبهها في الموضوع ويسميها أعلام الكلام ، فهل اقتدى أحدهما بصاحبه ، أم أنه توارد خواطر كالذي رأينا في الشعر الذي حملهما عليه المعز في شعر السوق ؟.

ذلك ما نقف منه وقفة تتبين فيها وجه الصواب بمقدار ما يتسع المقام . وبديا نرى ابن رشيق ينفي عن نفسه أن يكون أخذ من بعض معاصريه ، وذلك أنه لما ألف كتاب العمدة نال منه بعضهم ، ونقدوه في بعض أبوابه ومسائله ، فقال يعرض بهم : « وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له ثقب في العلم ، ولا حذق بالصناعة كجماعة ممن وسم في بلدنا بالمعرفة ، ونسب اليها مكذوبا عليه فيها ، كاذبا فيما ادعاه منها ، ولتعرفنهم في لحن القول (١) » وقال أيضا : « وكم في بلدنا هذا من الحفاث قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين ، ولولا أن

يعرفوا بتخليدهم في الكتاب ، ويدخلوا في جملة من يعد خطله ،
ويحصى زلله لذكرت من لحن كل واحد منهم »

لكن هذا لا يمنع ، ولا يحيل أن يكون ابن رشيقي قد أخذنا
من ابن شرف في رسالته « أعلام الكلام . » ومع أنا لا نعرف
ما اذا كانت هذه الرسالة سابقة على العمدة الذي جاءت فيه
العبارات المتقدمة أم لاحقة عليه ، فانا نحاول بقدر ما توافينا
أسباب التحقيق تبين الوجه في القضية .

ويطالعنا ابن شرف في مستهل رسالته بقوله : « ... وعزوتها
الى أبي الريان بن الصلت بن السكن بن سلامان ، وكان شيخاهما
في اللسان ، وبدرا تما في البيان ، قد بقي أحقبا ، ولقي أعقبا ،
ثم ألقته إلينا من باديته الأزمات ، وأوردته علينا العزمات فامتحنا
من علمه بحرا جاريا ، وقدحنا من فهمه زندا واريا ، وأدركنا من
بره طرفا ، واجتئينا من ثمره طرفا . ونحن اذ ذاك والشباب
مقتبل ، وغفلة الزمان تهتبل » (١) .

وواضح من هذا النص ان ابن شرف كتب الرسالة في صدر
الشباب ، فاذا أضفنا الى ذلك أنه ولد سنة ٣٩٠ هـ . أمكن
القول بأنه ألفها في الفترة بين سنة ٤١٠ هـ ، سنة ٤٢٠ هـ .
على أن صدر الشباب يكون في العشرة الثالثة من العمر ، ومترى
فيما ستقبل من فصول هذه الترجمة أن العمدة ألف بين ٤١٢ هـ ،

(١) اعلام الكلام ص ١٢ .

٤٢٥ هـ . وعلى هذا يكون ما ادعى على ابن رشيق من أنه أفاد من الرسالة لا استحالة فيه .

فإذا أضفنا الى ذلك أن بين الرسالة ، رسالة اعلام الكلام لابن شرف . وبين كتاب العمدة ، وقراءة الذهب لابن رشيق مشابهة في كثير من الموضوعات زاد ترجيح الأخذ أو في الأقل لم يصبح مستحيلا .

أما المشابهة بين تأليف ابن شرف وابن رشيق فنجدها في مثل حديثهما عن ابن الرومي . يقول عنه ابن شرف : وأما ابن الرومي فشجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله في الهجاء ما ليس له في الاطراء ، فتح فيه أبوابا ، ووصل منه أسبابا ، وخلع منه أثوابا ، وطوق به رقابا « (١) .

ويقول عنه ابن رشيق « وكان ابن الرومي ضينا بالمعاني » حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، والى كل ناحية حتى يمتته ويعلم ألا مطمع فيه لأحد » (٢) .

ويستفتح ابن شرف رسالته تلك بالحديث عن امرئ القيس « الضليل » ويجعله « مؤسس الأساس وبنائه عليه الناس » .
« كانوا يقولون أسيلة الخد حتى قال هو أسيلة مجرى الدمع »
« كانوا يقولون تامة القامة وطويلة القامة وأشياء هذا ، وجيدا »

(١) اعلام الكلام ص ٢٤ .

(٢) العمدة ج ٢ ص ٢٢٧ .

وتامة العنق حتى قال هو : بعيدة مهوى القرط ، وكانوا يقولون
 في الفرس السابق : يلحق الغزال ويسبق الظلام أو الظليم حتى
 قال هو : بمتجرد قيد الأوابد يقول ابن شرف . ومثل هذا له
 كثير . » (١) أقول يقول ابن شرف ذلك عن الضليل في رسالته
 اعلام الكلام فيقول ابن رشيق في مستهل قراضة الذهب : «...وأنا
 أقنصر من جميع الشعراء في أكثر ما أورده على امرئ القيس لأنه
 المقدم لا محالة وان وقع في ذلك بعض الخلاف ، فالميز الحاذق
 بطرق البلاغة يجد لكلامه من الفضيلة في نفسه ما لا يجده لغيره
 من كلام الشعراء ، والبحث والتفتيش يزيدانه جلاله ، ويوجبان له
 على من سواه مزية » ثم أن له « قيد الأوابد » ، وأن له في
 الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه
 وأردف اعجازا وناء بكل كل

وله في الغزل والتضرع :

وما ذرفت عيناك الا لتضربي

بسهميك في أعشار قلب مقتل (٢)

وكما تحدث ابن شرف عن القدماء والمحدثين في صفحة ٢٨
 من الرسالة ، تحدث عنهم ابن رشيق في فصل قائم بذاته بهم .

(١) اعلام الكلام ص ١٩ .

(٢) قراضة الذهب ص ١٥ .

فهل بعد هذا يمكن القطع بأن ابن رشيق أخذ عن ابن شرف؟
ذلك أيضا ما نتوقف عن الذهاب اليه لأن ابن شرف يقول في
رسائله تلك : « ولعمرك ما أشكر من نفسى ولا أثنى على شئ من
حسى ، الا ظفري بالأقل مما حاولته على ما أضرمته نيران الغربة
من قلبى وثلمته صعقات الفتنة من لبي ، وقطعته أهوال البر
والبحر من خواطرى ، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائرى
وبصائرى » فمثل هذا الحديث من ابن شرف يثير الشك حول
زمان كتابة الرسالة ، وأنها انما كتبت بعد أهوال بر وبحر ، وبعد
فتن وغربة ، ووحشة ووحدة — ولا نعرف الا فتنة القيروان ،
ووحشة الاغتراب فى صقلية ثم فى الأندلس ، فهل كتب رسالته
بعد هذا كله ، واذا كان الأمر كذلك لا يكون ابن رشيق أخذ
عنه لا فى العمدة ولا فى قراضة الذهب .

ولعل ظروفنا تسمح بتحقيق هذه القضية بعد ، وفى غير هذه
السيرة التى يجب أن ننأى عن الجدل الطويل .

وبعد فأولئك شيوخ ابن رشيق وهؤلاء هم معاصروه الذين
كانت له معهم لقاءات ومطارحات ، وقد استفاد منهم علما وأدبا
على تفاوت فى ذلك .

الفصل الثالث أخلاق ابن رشيقي

ولابن رشيقي جانبان فجانبا يتصل بسلوكه الاجتماعي ، وآخر يتصل بسلوكه العلمى ، فأما عن سلوكه الاجتماعى قمصدرفنا فى ابراز معاملة انما هو شعره ، وما يروى عنه .

مسألفته :

وأول صفافه أنه كان يؤثر السلام وموادة الناس ، ورفتنجب
أكل ما فجر فلففه عداوافهم ، واذا حمل على شىء من ذلك فانه
رفكففى فى الاتفصاف لنفسه بالتلوفف دون الففرفف ، ومذهبف هذا
اففجده لف فى فافففه عن منافع الشعر ومضارفه اذ فقول : وممن
أضره الشعر وأهلكه سدفف ، فانه طعن فى دولة بنى العباس بقولا
للا فرف محمد بن الففن بالمففنة على أبى فعفر المنصور :

انا لنأمل أن فرففد ألفتنا

فعد الففاعد والشففاء والاففن

وففففف دولة أفاام قاففها

ففنا كأفاام قوم عاففدى وثن

فانهض بففففكم ، فنهض بفاففنا

ان الففلافة ففكم فابنى الففن

فكتب المنصور الى عبد الصمد بن على بأن يدفنه حيا ،
 ففعل ، ويقال ان الأبيات لعبد الله بن مصعب ، نسبت الى سديف
 وحملت عليه فقتل بها وذلك أشد . يقول ابن رشيق معلقا على
 القصة كاشفا عن مذهبه : وأحق الشعراء عندي من أدخل نفسه
 في هذا الباب أو تعرض له . وما للشاعر والتعرض للحتوف ، وانما
 هو طالب فضل ؟ فلم يضيع رأس ماله ؟ وكل شيء يحتمل الا الطعن
 في الدول ، فان دعت الى ذلك ضرورة مجحفة فتعصب المرء لمن
 هو في ملكه وتحت سلطانه أصوب ، وأعذر له من كل جهة وعلى
 كل حال ، لا كما فعل سديف . (١)

ولا أرى مذهب ابن رشيق مذهبا ، فليس الشاعر « طالب
 فضل » وانما الشاعر صاحب مبدأ ورسالة ، وأصحاب المبادئ
 والرسالات لا يجاملون ، ولا يتعصبون « لمن هم في ملكهم »
 حتى ولو كانوا مبطلين ، بل ان الشعراء ينبغي ان يكونوا فوق
 المراءاة .

وخير الشعر اكرمه رجالا
 وشر الشعر ما قال العبيد

قنوعه :

وكانت في ابن رشيق قناعة تصل به الى حد القنوع والرضا

بِالْمَنْزِلِ السَّهْلِ ، وَابْعَدَ عَنِ الْمَغَامِرَةِ وَالْأَقْدَامِ ، وَلِذَلِكَ نَرَاهُ عَاشٍ
بِحَيَاتِهِ كُلِّهَا فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَمْ يَجْتَرِءْ عَلَى تَبْدِيلِهِ أَوْ تَغْيِيرِهِ ، عَاشٍ
فِي كَنْفِ الْمَعْرِزِ فِي رِعَايَةِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي الرَّجَالِ ، وَأَخِيرًا فِي كَنْفِ
قَمِيمٍ ، وَلَا نَعْرِفُ أَنَّهُ غَيْرُ طَرِيقِهِ هَذَا إِلَّا حِينَ بَعْدَ عَنْ خِدْمَةِ الْمَعْرِزِ
وَلَكِنَّهُ سَرَعَانَ مَا عَادَ إِلَيْهِ مُعْتَذِرًا بِقَوْلِهِ :

وَلَوْلَا شِقَائِي لَمْ أَغْبِ عَنْكَ سَاعَةً

وَلَا رَامَ صَرْفِي عَنْ جَنَابِكَ صَارِفَ

وَلَكِنِّي أَخْطَأْتُ رَشْدِي فَلَمْ أَصِبْ

وَقَدْ يَخْطِئُ الرُّشْدُ الْفَتَى وَهُوَ عَارِفٌ

وَلِذَلِكَ نَرَاهُ يَجْذُبُ مَذْهَبَ الْقَعُودِ عَنِ السَّعْيِ ، وَيَقَرُّ أَنَّ الْمَرْءَ
قَدْ يَنَالُ فِي دَعْتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَنَالُ بِسَعْيِهِ وَدَأْبِهِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى
هَذَا فَفَقِيمُ التَّعَبِ وَاجْتِهَادِ النَّفْسِ ، وَابْنُ رَشِيقٍ بِذَلِكَ مِنَ الْمُتَوَاكِلِينَ
الَّذِينَ لَا يَجْبُونَ أَنْ يَبْذُلُوا فِي سَبِيلِ الرِّزْقِ ، بَلْ يَرَى أَنَّهُ رَجَاءُ اللَّهِ
وَلَوْ بَدُونَ عَمَلٍ — مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْإِرْتِزَاقِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ
خَاطِئٍ — وَهَذَا قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى :

يُعْطَى الْفَتَى فَيَنَالُ فِي دَعَا

مَا لَمْ يَنْسِلْ بِالْكَدِّ وَالتَّعَبِ

فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ فَضْلَ رَاحَتِهَا

إِذْ لَيْسَتْ الْأَشْيَاءُ بِالطَّلِبِ

إِنْ كَانَ لَا رِزْقَ إِلَّا سَبَبُ

فَرَجَاءُ رَبِّكَ أَعْظَمُ السَّبَبِ

وإذا كان ذلك مذهبه ، فلا عجب إذا رأيناه يكره المغامرة
وركوب البحر فيقول :

أخلقت طينا وماء البحر يتلفه
والقلب فيه نفور من مراكبه
فالبحر غير رفيق بالرفيق له
والبر مثل اسمه بر براكيه
ويقول في نفس المعنى :

البحر صعب المرام مر
لا جعلت حاجتي اليه
أليس ماء ونحن طين
فما عسى صبرنا عليه

وكأنه يشعر بسوء مذهبه وقبح رأيه ، ودلالته على ضعفه
ويخور عزيمته فيعلل لذلك بقوله :

تنازعني النفس أعلى الأمور
وليس من العجز لا أنشط
ولكن بمقدار قرب المكان
تكون سلامة من يسقط

ولكن أنى يكون ذلك الاعتذار مقبولا أو مستساغا ،
ولعله يكون عدل عن ذلك لما كتب الى بعض اخوانه يدعوهم
الى الأسنار كما يقول الشريشي والقصة في كتاب التنف ص ٥٩

قال : « مثل الرجل القاعد أعزك الله كمثل الماء الراكد ، ان ترك
تغير ، وان تحرك تكدر ، ومثل المسافر كالسحاب الماطر ، هؤلاء
يدعونه رحمة ، وهؤلاء يدعونه نقمة ، فاذا اتصلت أيامه ، ثقل
مقامه ، وكثر لوامه ، فاجمع لنفسك فرحة الغيبة وفرحة الأوبة ،
والسلام » وفي هذا المعنى يقول :

غب عن هلاكك وارج حسن مغبة
ان كنت حقا تشتكى الاقبالا

فالبدر لم يجحف به ادباره
ألا يسافر يطلب الاقبالا

وتقدمت قصة قعوده عن الارتحال من صقلية مع ابن شرق
الى الأندلس ، وهكذا كان صاحبنا يؤثر السلامة على الأقدام .

هجاؤه :

ورجل يؤثر السلامة ويتجنب مخاطر الحياة لاشك يؤثر
السلام مع الناس أيضا ، ولذلك لا نعرفه هجاء الا في موضعين
أحدهما حين يقول :

يا موجعني شتيا على انه لوفرك البرغوث ما أوجعا
كل له من نفسه آفة وآفة النحلة أن تلسعا
وهو ضعيف في بابه . والشعر ان لم يكن فيضا تمتلئ به
النفس لا يكون الا كذلك فلا غرابة اذا جاء هجاؤه على هذه
الشاكلة ،

وثانيهما : وقد أفحش فيه حتى قال الميمنى وهو يرويه له
« وقد أثبتناه كما وجدناه والعياذ بالله عن سفاسف الهراء »
وذلك قوله :

عرسه من غير ضمير عرس زيد بن عمير
أبدا ..

ولها رجلان من نا قة كعب بن زهير
هكذا بنى المعالى ليس الأكل خير
وقد تقدم تعريضه بابن شرف - على ما رجحت - فى كتابه
العمدة .

دعابته وملحه :

وكان ابن رشيق يميل الى الدعابة والتظرف فنراه يقول
موصيا بالبغال :

أوصيك بالبغل شرا فانه ابن الحمار
لا يصلح البغل الا للسكد والاسفار
كالبعيد ان لم تهنه جنى على الاحرار
ما اعتاض بغلا بطرف الا أخسو ادبار
ويقول فيها أيضا :

فأوصيكم بالبغل شرا فانه من العير فى سوء الطباع قريب
وكيف يجىء البغل يوما بحاجة تسرو فيه للحمار نصيب

وربما كان هو الذى فتح باب القول فى البغال للبهاء زهير
فى مثل قوله :

لك يا صديقى بغاة ليست تساوى خردلة
تمشى فتحسبها العيو ن على الطريق مشكلة

واجتمع ابن رشيق يوما ببعض أصحابه ، وكان فيهم محمد
ابن شرف وكان أعور ، والطوسي وكان أعمى ، وكان صاحبنا
أحول فقال فى صاحبيه وفى نفسه :

لابدى العور من تيه ومن صلف لأنهم يصرون الناس أنصافا
وكل أحول يلقي ذا مكارمة لأنهم ينظرون الناس أضعافا
والعمى أولى بحال العور لو عرفوا على القياس، ولكن خاف من خافا
قال الميمنى وهذا المعنى مما قال فيه غير ابن رشيق فقال
أحدهم فيه :

شمس الضحى يعشى العيون ضياؤها
الا اذا رمت بعين واحدة
فلذلك تاه العور واحتقروا الورى
فاعرف فضيلتهم وخذا فائدة
نقصان جارحة أعانت أختها
فكأنما قويت بعين زائدة

مجنونه !

وابن رشيق في هذا الباب من الشعر ما يشهد بأنه كان عابثاً
ويبدو أن المجتمع لم يكن ينكر عليه وعلى أضرابه من الشعراء
أن يجتمعوا على مجالس العبث ، لأننا نجد له فيه الكثير المضحك
من القول - حتى لنجدنا مضطرين الى القول بأن قد كانت فيه
مشابهة من أبي نواس ، والا تكن من الذئوع على ما عرف عن
أبي نواس ، ولكنها بعامة تشهد بذلك الشبه . وسأذكر من ذلك
طرفاً :

فها هو ذا يخاطب محبوباً أحبه ، وكأنما تأبى عليه فإذا هو
يستميله بقوله :

ان كنت تنكر ما منك ابتليت به

فان برء سقامي عز مطلبه

أشر بعود من الكبريت نحو فمي

وانظر الى زفرائي كيف تلهيه

ويحكى لنا قصة محبوب أشار اليه بطرف العين أن يأتبه في
منزله آخر الليل في خفية من الرقباء وقد حقق أمله ، وتحدث عما
كان بينهما فقال :

ومهفهف بحميه عن نظر الوري

غير ان ، سكنى الموت تحت فبابه

أومى الى أن انتنى فأتيتــــــــــــه
والفجر يرمق من خلال نقابه
فلثمت خذا منه ضرم لوعتى
وجعلتها أطفى حرها برضا به
وضمته للصدر حتى استوهبت
منه ثيابى بعض طيب ثيابه
فكان قلبى من وراء ضلوعه
طربا يخبر قلبه عما به
فهذا حديث ما يكون بين العاشقين .
ويتعشق غلاما أو جارية لايبين الشعر عن أيهما - من صبرة
احدى القرى من القيروان فيقول :
بنفسى من سسكان صبرة واحد
هو الناس والباقون بعد فضول
عزيز له نصصفان : ذا فى ازاره
سمين وهذا فى الوشاح نحيل
مدار كتوس اللحظ منه مكحل
ومقطف ورد الخد منه أسيل (١)
ونجتزئ فى هذا الباب بما ذكرنا على أن له فيه غيره كثيرا
نشور فى مطاوى الكتب والتراجم ، وقد جمعه او جمع أكثره
الميمنى - ومنه أفدت .

(۱) مقطف اسم مکان . آی مکان قطف الورد یعنی خده .

تدينه :

وشاعر هذا بعض شعره لانتظر منه أن يكون حريصا على
مظاهر التدين ، كيف وهو الذى يقول فى غلام :

ان زارنى يوما على خلوة أو زرته فى موضع خال
اكنث له رفعا على الابتدا وكان لى نصبا على الحال
بل انه ليصرح برقة دينه فى قوله :

انى لقيت مشقة فابعث الى بشقة
كمثل وجهك حسنا ومثل دينى رقعة
ذلك هو ابن رشيق فى سلوكه الاجتماعى وهو سلوك ينم فى
جملته عن شخصية لا تقيم للخلق ولا الدين كبير وزن أو اعتبار .

سلوكه العلمى :

فاذا نحن جاوزنا ذلك الى خلقه العلمى رأينا فيه أمانة العلماء
وتواضعهم ومعرفته بمقدار نفسه ومقادير شيوخه ومن يأخذ
عنهم .

فأما أمانته فانها تتجلى فى رده الرأى ينقله الى صاحبه فتراه
يقول وقد تحدث عن التكرار فى الجزء الثانى من العمدة « وقد
نقلت هذا الباب نقلا من كتاب عبد الله بن المعتز الا مالاخفاء به
على أحد من أهل التمييز، واضطرنى الى ذلك قلة الشواهد » (١)

(١) العمدة ج ٢ ص ٧٦ .

فأين ذلك من كثيرين ينقلون من غيرهم ويأنفون أن يذكروا ذلك أو
يشيروا إليه .

ويتحدث عن أغراض الشعر فيقول : « وقد كنت أردت ذكر
هذا الفصل فيما تقدم من باب عمل الشعر وشحن القريحة له ، فلم
أثق بحفظي حتى صححته فأثبتته بمكانه من هذا الباب » ؟ .

ويحكي ابن رشيقي الرأي في المسألة فيرده الى أصله كأن
يقول : الا يغال ضرب من المبالغة كما قدمت الا أنه في القوافي
خاصة لا يعدوها ، والحامى وأصحابه يسمونه التبليغ وهو تفصيل
من بلوغ الغاية .. وحكى الحامى عن عبد الله بن جعفر عن محمد
ابن يزيد المبرد قال حدثني التوزي قال : قلت للاصمعي : من أشعر
الناس ؟ قال الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيرا .. « (١)

فهذا دأبه فى كل ما ينقله ثبت وأمانة ، وأخذ بيد الراى
حتى يصل به الى مصدره الأول . وهذه طريقة العلماء الأثبات .

وحين يشك فى قضية فانه يشير الى ذلك — يقول فى باب
تنقل الشعر فى القبائل « .. ومنهم سعد بن مالك الذى يقول ..
يا بؤس للحرب التى وضعت اراط فاستراحوا
ولا أدرى هل هو أبو عمرو بن قميئة الشاعر والمرقش الأكبر
أم لا ؟ » (٢) .

وكذلك كان في ابن رشيق تواضع نراه حين يحكى لنفسه شعرا في باب التقسيم فيقول « وقد صنعت على ضعف متنى وتأخر وقتي :

إذا أقبلت أقعت ، وإن أدبرت كبت
وتعرض طولاً في العنان فتستوى
وكلفت حاجاتي شبيهة طائر
إذا انتشرت ظلت لها الأرض تنطوى» (١)

والشعر في وصف بقلة

ويقول يخاطب ابن أبي الرجال : « وأنا أ طال الله بقاء السيد محروس النعمة - كثير الحسان - وإن لم أعلق من العلم الابحاشية ولا أخذت منه إلا في ناحية لسوء المكان وقلة الامكان ، وزمانة الزمان ، وجدت الشعر أكبر علوم العرب ، وأوفر حظوظ الأدب » فتراه وهو يؤلف مثل العمدة لا يتيه ، وإنما يذكر أنه « إنما علق من العالم بحاشية . وما أخذ منه إلا في ناحية » .

ولكن هذا التواضع لا يمنعه أن يبدي الرأي فيما ينقل كأن يقول بعد بيتي .. أبى كبير الهذلي :

فالطعن شغشغة ، والضرب هيعة

ضرب المعول تحت الديمة العضدا

(١) المعصدة ج ٢ ص ٢٢

وللقى أزاميل وغممة
حس الجنوب تسوق الماء والبردا

وأنا استحسن هذين البيتين جدا (١) .
ثم يحكى عن الرمانى أنه أنشد بيت ذى الرمة الذى يقول
فيه :

كأنه كوكب فى اثر عفريت

مسموم فى سواد الليل منقضب

وانه قال : قد اجتمع الثور والكوكب فى السرعة الا أن
انقضاى الكوكب أسرع ، واستدل بهذا على جودة التشبيه،
ثم يعقب عليه بقوله : وأنا أرى أن فيه دركا على الشاعر واغفلا
من الشيخ المفسر .

ولا يلقى ابن رشيق بذلك الحكم فى البيت وفيمن فسرّه من
غير أن يبين وجهة نظره فيقول :

« وذلك أن الثور مطلوب ، والكوكب طالب فشبهه به فى
السرعة والبياض ، ولو شبهه بالعفريت ، وشبهه الكلب وراءه
بالكوكب لكان أحسن وأوضح ، لكنه لم يتمكن له المعنى الذى
أراده من فوت الثور الذى شبه به راحلته ، وأما ما أغفله الشيخ
فان الشاعر انما رغب فى تشبيه الثور بالكوكب ، واحتمل عكس

التشبيه بأن جعل المطلوب طالبا لبياضه فان الثور لهق لامحالة ،
وأما السرعة التي زعم ، فان العفريت لو وصفه به ، وشبهه بسرعته
لما كان مقصرا ولا متوسطا ، بل فوق ذلك كله « (١)

ذلك هو ابن رشيق في اعتزازه برأيه يديه مع تواضع وخفض
جناح ومن هذا القبيل قوله : « وسأذكر قطعة من أشعار الكتاب
يظهر فيها مرماهم ، ويستدل بها على مغزاهم ، ويعرف حسن اختيار
الجاحظ فيما ذهب اليه من تفضيلهم ، وتشهد لى بجودة الميز ،
وفرط التشبث والانصاف ان شاء الله تعالى » (٢)

(١) المدة ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) المدة ج ٢ ص ١٠٠ .

الفصل الرابع آثار ابن رشيق ومؤلفاته

يذكر الرواة أن ابن رشيق ترك ما يزيد على ثلاثين كتاباً ،
يجد أسماءها منشورة في بطون الكتب لاسيما كتب التراجم ،
ونحاول في هذا الفصل أن نحصيها بمقدار ما واثت المراجع ،
واسعفت المصادر ، مع ذكر كلمة عما يمكن أن نجده أو نجد له
قللاً من هذه الكتب .
فمن ذلك كتابه :

١ - العمدة في صناعة الشعر ونقده ، وهو الكتاب
الذي حمل اسم ابن رشيق وجعله في عداد الخالدين من أعلام
العرب وسنخصه بحديث عند الكلام عن ابن رشيق الناقد .
٢ - قراضة الذهب في نقد أشعار العرب وهو لطيف الجرم
أكبر الفائدة .

٣ - أنموذج الزمان في شعراء القيروان .
٤ - الشذوذ في اللغة يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في
إياها .
٥ - الرسائل الفائقة والنظم الجيد .

وقد ذكر له هذه المجموعة ابن خلكان في الترجمة التي عقدها لها . كما ذكر له مجموعة أخرى من المؤلفات في ترجمته لابن شرف الجذامي هي :

٦- ساجور الكلب .

٧- نبح الطلب .

٨- رفع الاشكال .

٩- قطع الأنفاس .

١٠- نسخ الملح وفسخ الملح .، وهذا الكتاب ذكره صاحب معجم الأدباء ، وقال ان من شعره فيه قوله :

المرء في فسحة كما علموا	حتى يرى شعره وتأليفه
فواحد منهما صفحت له	عنه وجازت له زخاريفه
وآخر نحن منه في غرر	ان لم يوافق رضاك تثقيفه
وقد بعثنا كيسين ، ملؤهما	نقد امرىء حاذق وتزييفه
فانظر ومازلت أهل معرفة	يامن لنا علمه ومعروفه (١)

وموضوع الأبيات كما يبدو في تقديم كتاب يرفعه الى احد ذوى الجاه ، ولا أخاله الا أبا على بن أبى الرجال فهو الذى كان يستأثر باعجاب ابن رشيق ، ويجد ابن رشيق في رحابه حاجته وبغيته . واذا كان هذا الشعر قيل في رفع كتاب نسخ الملح

[١] معجم الادباء ج ٨ ص ١١٢ .

قانه يكون ألف قبل سنة ٢٥ هـ وهى السنة التى توفى فيها
ابن أبى الرجال .

١١ - سر السرور ، وذكره له ياقوت ، ثم قال وله فيه قوله :

معتقة يعلو الجباب متونها

فتحسبه فيها ثبير جمان

رأت من لجين راحة لمديرها

فطافت له من عسجد بينان

وهو صورة بديعة فى وصف الخمر ومن يدور بها على السقا
والشراب . وله فى هذا الباب باع طويل سنعرض له عند
الحديث عن شاعريته .

أما صاحب كشف الظنون فنسب اليه طائفة غير هذه منها :

١٢ - شرح موطأ مالك .

١٣ - تاريخ قيروان .

ونسب اليه صاحب بساط العقيق :

١٤ - الروضة الموشية فى شعراء المهديّة .

١٥ - المساوىء فى كشف السرقات الشعرية .

١٦ - ميزان العمل فى تاريخ الدول .

واليمينى بقرر أن له :

١٧ - جزءا من ديوانه ، وان هذا الجزء لا يزال قائما الى اليوم فى مكتبة اسكوريا .

وفى حاشية كتاب وفيات الأعيان التى كتبها الاستاذ نيجاتى اقراه يذكر أن له فوق ما تقدم :

١٨ - طراز الأدب .

١٩ - الممدوح والمذام .

٢٠ - متفق التصحيف .

٢١ - تحرير الموازنة .

٢٢ - الاتصال .

٢٣ - المن والفدا .

٢٤ - غرائب الأوصاف ولطائف التشبيهات مما انفرد به المحدثون .

٢٥ - كتاب الرياحين .

٢٦ - صدق المدائح .

٢٧ - الأسماء المعربة .

٢٨ - اثبات المنازعة .

٢٩ - معالم التاريخ .

٣٠ - التوسع فى مضائق القول .

٣١ - بلغة المشتاق فى ذكر أيام العشاق - ذكره داود
الانطاكى فى كتابه تزيين الأسواق .

٣٢ - الحيلة والاحتراس .

رأى :

ويرى الأستاذ نجاتى أن بعض هذه الأسماء انما هى أسماء
لفصول وأبواب من كتب ابن رشيق . وكنت هممت أن أخالفه
لولا أنه احترس فقال « بعض هذه » ذلك لأن كثيرا منها كتب
مستقلة قائمة بذاتها ، نقل عنها الذين كتبوا عنه وترجموا له .
فهذا سر السرور ، ونسخ الملح ، والانموذج . وقد تقدم بعض
ما نقل عنها .

ويضيف اليه الدكتور بدوى طبانه كتابا يسميه «تزييف نقد
قدامة» فيقول وقد سمع به ضياء الدين بن الأثير ولكنه لم يره
- ويقول - وكذلك لم نعر عليه ، وكفانا صاحب تحرير
التحبير مئونة رأى فى هذا الكتاب بقوله : ولو رأى ضياء الدين
رحمه الله كتاب ابن رشيق الذى سماه تزييف النقد يرد به على
قدامة لرأى كتابا يحلف الحالف صادقا أنه ما تكلم فيه بحرف
واحد الا وهو مطبق الجنون ليس له وقت افاقة ألبتة » (١) .

(١) قدامة بن جعفر والنقد الادبى ص ٣٦٨ .

وهكذا يعتنق الدكتور رأى صاحب التحجير فى الكتاب وفى
اقتبسته الى ابن رشيق ، وأنه كفاه مئونة الرأى فيه — الأمر الذى
لا بد من وقفة عنده ، نقفها لنشكك فى أن يكون لابن رشيق
كتاب بهذا الاسم ، بل لنؤكد ان ليس له هذا الكتاب .

وانما نذهب الى ذلك لأننا حين نقرأ ابن رشيق فى كتابيه
الباقين : العمدة وقراضة الذهب نراه وهو يعجب بقدامة
ابن جعفر ، وينقل عنه ، وحتى الدكتور بدوى نفسه يعلم ذلك
ويقرره فى كتابه ذاته فيقول عن ابن رشيق انه « يجعل كلام
قدامة فى مقدمة الآراء التى ينقلها فى أكثر مباحث كتابه » (١)
فكيف يكون ذلك شأنه ثم يؤلف كتابا يقفه على تزييف آراء
قدامة أو تزييف نقده ؟ هذا من الناحية العقلية ، ومن ناحية
الرواية فان جميع المصادر التى وقعت لى لم تذكر أن له مثل هذا
الكتاب ، فلم يبق الا المصدر الذى اعتمد عليه الدكتور فى نسبه
الكتاب الى الرجل وهو كتاب « بديع القرآن » لصاحب التحجير
— وجاء ذكر الكتاب فى مقدمة البديع التى يقول فيها : « كتاب
بديع القرآن جمعته من كتاب وكتابين منها ما هو منفرد بهذا
العلم ومنها ما هذا العلم داخل فى اثنائيه كتنقد قدامة ، وبديع
ابن المعتز وحلية المحاضرة للحاتمي ، وكشفت عن الحالى والعاظم

(١) قدامة بن جعفر والنقد الادبى ص ٢٦٩ .

له الذى أشرت اليه فى الحلية ، فلم أظفر بمن يعترف بوقوعه عليه
 الا ابن منقذ فى بديعه والصناعتين للعسكرى والعمدة لابن رشيق ،
 وتزييف نقد ابن قدامة له ، ورسالة الآمدى فى الرد على قدامة
 والموازنة بين الطائيين له ، وكشف الظلامة للموفق البغدادي
 ودلائل الاعجاز للجرجاني واسرار البلاغة له ، واعجاز
 ابن الخطيب « (١) » وبالنظر فى هذا الجزء نرى شيوع الخطأ
 وكثرته ، ففى اول يقول : جمعته من كتاب وكتابين وصوابها :
 جمعته من ستة وستين كتابا ، ثم يقول والوساطة له ، ومرجع
 الضمير عبد القاهر الجرجاني فى حين أن الوساطة للقاضى عبدالعزيز
 الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ .

فاذا بلغنا بمناقشة الرجل الى قوله « تزييف نقد ابن قدامه »
 رأينا فيها خطأ الرواية اذ كلمة « ابن » زائدة لأننا لا نعرف ابنا
 لقدامه له كتاب فى النقدحتى يزيفه ابن رشيق والأقرب فى تصويب
 هذه العبارة انها « تبين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد
 الشعر » فذلك علم على كتاب للآمدى — وهو كان مولعا بالتبعية
 على الشعراء والنقاد وقد أشار اليه فى كتابه الموازنة بين الطائيين .
 وعلى هذا فليس لابن رشيق مثل هذا الكتاب .

مسألة أخرى هل كان ابن رشيق مؤرخا ؟
 رأى الدكتور حسين مؤنس — فيما أقدر — ابن رشيق وقد

(١) يدعى القرآن مخطوط ٤٠٥ بلافه الورقة الاولى بدار الكتب العربية

انسب اليه كتاب تاريخ قيروان فذهب الى أن الرجل كان « من
ثقات أهل البلاد .. ممن تناولوا الكتابة في تاريخ المغرب » (١)
ولست أرى ابن رشيق من المؤرخين فضلا عن ان يكون من
ثقافتهم . على أن صاحب بساط العقيق يقول هو الآخر : « أما
الفن الذي أصاب فيه ابن رشيق عرفانه واطلق فيه للقلم عنانه
فهو التاريخ وفروعه فانه وضع فيه ميزان العمل في تاريخ الدول
.. أتى في ضمنه على الدول العربية قبل الاسلام وبعده والى
زمانه » (٢) .

وهذا أيضا يتعرض لمثل ما تعرض له كلام الدكتور حسين
مؤنس من حيث الشك فيه وبنى ردنا هذا ، أو شكنا
في الأقل على أنهما لم يذكرنا مصدرا يمكن أن يفيد أن الرجل كان
مؤرخا وأما أن له كتاب ميزان العمل في تاريخ الدول أوله له تاريخ قيروان
فقد انفرد بذكر ذلك صاحب كشف الظنون - ولكن حتى صاحب
كشف الظنون لم يذكر أنه أتى فيه على الدول العربية قبل الاسلام
وبعده والى زمانه ، ولم يذكر أنه في التاريخ وفروعه ، وإنما كل
الذي قاله عن هذا الكتاب « انه اقتصر فيه على عدد الأيام من دول
الملوك » (٣) وفرق بين ان يكون اقتصر على الأيام .. وان يكون

(١) فتح العرب للمغرب ص ٣٠٩ .

(٢) بساط العقيق ص ٨٦ .

(٣) كشف الظنون ج ٢ ص ٣٧٥ .

اتى فى الكتاب على تاريخ الدول العربية قبل الاسلام وبعده
والى زمانه ..

وحين نرجع الى كتاب العمدة — وهو الكتاب الثانى من
مؤلفات ابن رشيقي — نجد له فيه حديثا عن أيام العرب ووقائعهم
فى باب من أبواب الجزء الثانى ، ويقول فيه : « قد أثبت فى هذا
الباب ما تأتى الى من أيام العرب ووقائعهم ، ولم أشرط استقصاءها
اذ كان فى أقل مما جئت به مقنع ، ولأن أبا عبيدة ونظراءه قد
فرغوا مما ذكر » (١) .

ثم يعقد بابا للملوك العرب ويقول فيه « وأنا أذكر فى هذا
الباب من ملوك النواحي من أخذه حفظى وبلغته روايتى على شريطة
الاقتصار والتلخيص » (٢) .

وهكذا لم يدع الرجل لنفسه أنه مؤرخ فضلا عن أن يكون
« من ثقات المؤرخين الذين أصابوا فيه عرفانهم ، أو اطلقوا للقلم
فيه العنان » .

وكل الذى لابن رشيقي فى هذا الباب — على ما نرجح الى أن
يظهر خلافه — انما هو « معلومات أخذها حفظه ، وبلغتها روايته
وتأدت اليه من أيام العرب » كما يقول هو . فاذا أضفنا الى ذلك
أن العمدة كتبه ابن رشيقي فى أربعة مجلدات ، وان أيام العرب

(١) العمدة ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) العمدة ج ٢ ص ١١٤ .

ووقائعهم هي موضوع أحدها فان ذلك يرجح ان تكون هذا الجزء هو مقصود من قال انه ألف في التاريخ .

وعلى هذا لا يكون الرجل مؤرخاً ولا يجوز عده في المؤرخين فكل الذى له مما يمكن أن يدخل في التاريخ تجوزا هو ما كتبه في العمدة تحت عنوان أيام العرب، وهو الصفحات من ١٨١-٢١٩ في الجزء الثاني ، والكتاب معقود أصلاً لدراسة الشعر ونقده ، فإذا جاء فيه شيء يشبه التاريخ أو يتعلق بأنساب العرب، وملوكهم ووقائعهم فانما ذلك لاستكمال الحديث في الشعر لما لهذه الثقافة من العون الذى تمد به دارس أشعار العرب فهي أشعار تتصل بالأنساب ، وبالأيام وبالوقائع ، فالإمام بهذه الأبواب يسعف في فهم الشعر - ومن هنا - فيما أذهب إليه - تحدث ابن رشيق عن هذه المعلومات . ولم يتناولها أبداً بنية المؤرخ ، ولم يطلق فيها لقلمه العنان .

وموقفه من الحديث وأنه شرح موطأ مالك كموقفه من التاريخ وانه كتب فيه ما جعله في نظر بعضهم مؤرخاً ثقة - على أن صاحب كشف الظنون قد انفرد أيضاً بذكر الحديث وبأن ابن رشيق له شرح الموطأ ، وليست ثقافة الرجل على ما عرفنا بالتى ترشحه لشرح الموطأ . ولا هو بالذى اتجه إليها ، وانما تنزع ثقافته منزع اللغة وشعرها ونقدها - وما يتصل بذلك ، دون الحديث وشرح الموطأ .

الفصل الخامس ابن رشيق السّاقد

-١- مصادر المادة النقدية

- كتاب العمدة :

لما كان كتاب السمدة هو الذى خلد اسم ابن رشيق ، ولما كان هو الذى ضم آراءه فى النقد والبلاغة فلا بد لنا من وقفة تفقها عنده نكشف فيها عن تاريخه وقصته وتأليفه .

وأول ما يطالعنا فى الكتاب ان الرجل يرفعه الى « السيد الأ مجد والفذ الأوحد، حسنة الدنيا، وعلم العليا ، وبانى المكارم ، وآبى المظالم ، رجل الخطب ، وفارس الكتب : أبى الحسن على ابن أبى الرجال ، الكاتب ، زعيم الكرم ، وواحد الفهم ، الذى قال الرياسة ، وحاز الكياسة . »

وابن رشيق بصنيعه هذه ، انما يجرى على سنة العصر الذى كان يعيش فيه ، فقد كان العلماء يرفعون كتبهم الى أمير او وزير أو عظيم ، يرجون من وراء ذلك ذبوع الصيت ، وانتشار الكتاب، وجزيل العطاء عليه ، والهبة من أجله . فلا على صاحبنا اذا هو

أسرف في مدح ابى الحسن على حتى ليتصاغر أمامه حين يقول :
« ولم أرسم كتابى باسم السيد - زاده الله تعالى سموا -
لأكون كجالب التمر الى هجر ، ومهدى الوشى الى عدن ، لكن
تزيننا باسمه الشريف ، وذكره الطيب واستسلاما بين يدي علمه
الطائل وأدبه الكامل :

ان قصرت عن غرض رمية أو زل فكر أو نبا خاطي
لأننى فيه على نية يخبر عن باطنها الظاهر .

الى أن يقول : وقد نفضت جراب صدرى ، وانتقدت كنز
معرفتى ، وأيقنت أن صورة الانسان فضلة عن القلب واللسان ،
وان استحقاقه للفضل انما هو من جهة النطق والعقل ، فمشت
له نفسى وأهديتها اليه ، ومثلت بها حقيقة بين يديه اذ كانت
الأنفاس منوطة بالأنفس والمرء لولاهما موات ملقى لا خير فيه ،
ولا نفع عنده ... ثم انى لا أظهر حرفا من كتابى هذا الا عن أمره
وبعد اذنه لأكون به أقوى ثقة وله أشد مقة فان وقع منه بموقع ،
وحل من قبوله فى موضع بلغت الارادات ، ورجوت الزيادات :

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه

وأول الغيث قطر ثم ينسكب

والا سترته ستر العورة ، وطرحته طرح القلامة ، لعل الله
يحدث بعد ذلك أمرا . »

واذا كان أبو على هذا قد مات سنة ٢٥ هـ . فإن العمدة يكون قد ألف قبل ذلك التاريخ ، ويكون ابن رشيق قد كتبه يتيقن وهو دون الأربعين .

وأما متى بدأ كتابته فيمكن أن نقول انه بدأها بعد سنة ١٢ هـ لأنه يذكر عند الحديث عن موت دعل الخزاعي بزويلة بنى الخطاب قبر ابن شيخه أبي عبد الله محمد بن جعفر النحوى - ويقول : « رحمه الله » فإذا قلنا ان الدعاء بالرحمة انما هو لشيخه ، وانه كان قد مات فى أثناء كتابة قصة دعل وخبره ، وهو مات سنة ١٢ هـ . اذا ذهبنا الى هذا فانه يمكن ان نقول بأن العمدة الف فى الفترة ما بين ١٢ هـ - ٢٥ هـ . وقد قال صاحب البساط انه ألف قبل سنة ٢٥ هـ وهذا قريب مما تذهب اليه على أن من أغرب ما رأيت أن يتصور الميمنى أن يكون الكتاب ألف بعد سنة ٤٩ هـ . وهو فى ذلك يعتمد على قصة آيات جاءت فى الكتاب وهى قوله :

وذبال له رجل طحون لما نزلت به ويد زجوج
يطير بأربع لاعيب فيها لظهران الصفا منها عجيج
أخرجت به الى الاوهام سبقا وقل له عن الوهم الخروج
الى الملك المعز ابى تميم أمر بمن سواه فلا أعيج
فانه يقول « صنعتها بديهة بالمهدية ساعة وصولى اليه »
فيرى الميمنى أن ابن رشيق انما ذهب الى المهدية بعد خراب
القيروان سنة ٤٩ هـ « وهى سنة انجلاء المعز الى المهدية » ولكننا

تناقشه فنقول : من الذى قال ان المعز لم يذهب الى المهديّة الا بعد خراب القيروان ، ولم لا يكون زارها في أثناء ازدهار الملك — وهى احدى المدائن الكبرى الداخلة في ملكه والتي ولى عليها ابنة تميم — ثم ألم يذكر صاحب بساط العقيق أنه كان هناك يوم مات أبوه سنة ٤٠٦ هـ في صحبة جدته . (١)

على ان القصة ترد برواية أخرى في النسخة الخطية — أقدم نسخ الكتاب — تقول هذه الرواية :

« ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهديّة قبل وصولي اليه — يريد المعز — ادام الله عزه عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا » فهي صريحة في ان الشعر قيل قبل ان يصلّى ابن رشيق حبله بحبل المعز — وأن ذلك كان عن اقتراح أحد شعراء الوقت — ولو كان ابن رشيق قال الايات بعد سنة ٤٤٩ هـ لما كان بحاجة الى أن ينتظر اقتراح غيره عليه ليقول — وانما يكون الاقتراح قبل أن يتصل به فيجرئه المقترح على ان يقول — وبذلك يسلم لنا الرأى في زمن التأليف ولا يكون ألف بحال بعد ٤٤٩ .

على أنه كيف نستطيع ان يعيش ابن رشيق اكثر عمره ٦٠ عاما لا يؤلف شيئا حتى اذا اضطربت أمور الدولة ، ووقعت فتن القيروان ، ونزح الى المهديّة راح يؤلف مثل هذا الكتاب ؟ وصاحب هذه الدعوى يقول عنه « ولكن لما اتقل المعز من سبيل اعراب مصر الى المهديّة ، وتبعه صاحبنا طار فكره ، وقال رأيه فكان »

(١) بساط العقيق ص ٤٢ .

يتمتع من أدنى فلتة ، ويجبه على أحقر بادرة ، ويسىء الظن
بصديقه الوفى ، وصاحبه الحفى ، فارتحل الى صقلية وهو كاره
مع أنها لم تكن أحسن حالا من أفريقية » (١) .

ان رجلا هذه حاله ، وتلك نفسيته لا يمكن أن يكون ألف
مثل العمدة فى ذلك الحين وانما الاقرب فى منطق العقل أن يكون
الفه قبلا والدنيا مقبلة والزمان موات . والميمنى نفسه يذكر عنه
وعما كان عليه حاله بعد سنة ٤٤٩ : « ان هذا العهد كان عهد
هرمه وهومومه ، وانه لم يعمل فيه عملا يصلح للذكر أصلا أو على
ما بلغنا » (٢) ولا يقولن قائل انه يتحدث عنه وهو فى صقلية
لأننا نقول انه ذهب اليها عقب رحيله الى المهديّة من القيروان ،
ولم يكن هو فى المهديّة خيرا منه فى صقلية .

عناية الناس بالكتاب :

واذا كنا قد وجدنا فى الكتاب ما رفع من قيمته الفنية
والأدبية من حديث النقد والبلاغة فقد وجد فيه الناس والعلماء
قبلنا مثل ذلك . فقرأه وأعجب به واختصره أبو عمر عثمان بن على
ابن عمر الصقلى الذى لقي ابن رشيق وحادثه فى قضية السرقات
وقد نقل فى مختصره أبيات ابن رشيق التى يقول فيها :

دمع رأى برق الحمى فتحسّدا

وجوى ذكرت له الحمى فتسّعرا

(٢) ابن رشيق ص ٦٠ .

(١) ابن رشيق ص ٥٠ .

لو لم يكن هجر لما عذب الهوى
أنا اشتهى من هاجرى ان بهجرا
بينى وبين الحب نسبة عنصر
فمتى وصلت وصلت ذاك العنصر

ورآه أيضا واختصره ونبه على أغلاطه الأعلام الشنتمرى
المتوفى سنة ٥٤٩ هـ . وسمى مختصره العمدة والتنبيه على
أغلاطه .

وكذلك اختصره موفق الدين البغدادي ، وأخيرا كان القفطى
على نية أن يصنع كتابا عن مؤلفات ابن رشيق ، ولا نشك في أن
العمدة كان يكون في طليعة ما يتحدث عنه لو أنه صنع ذلك
الكتاب .

وأما عناية المحدثين فتتجلى في أنه لا يكاد كاتب يكتب في
النقد والبلاغة إلا وهو يرجع الى العمدة يستفيد منه مستشهدا
أو ناقلا أو ناقدا وحسبنا هذا دليلا على اقبالهم للكتاب ووضعه
في موضع الاعتبار .

نسخ الكتاب :

لما كان الرجل مغربى النشأة ، مغربى الحياة ، والكتاب على
ما تقدم ألف في القيروان ، فقد حاولت التعرف على ما عسى أن
يكون في مكتبات تونس والمغرب من أصول له او نسخ ، ورجعت
في ذلك الى فهارس مكتبات هذه الجهة فلم أجد فيها

ما يشفى الغلة ، فرجعت الى مكتبات مصر وفهارسها فاذا له أكثر من مخطوطة بين قديم يرجع به العهد الى أكثر من بضعة قرون وحديث كتب في القرنين الأخيرين وعلى وجه التحديد سنة ١٢٩٨ هـ .

وأقف من ذلك جميعه عند نسخة هي أقدم النسخ ويرجع تاريخ نسخها الى سنة ٦٧٩ هـ ، وقد سجلت في الفهارس على هيئة توحى بأن الجزء الأول منها كتب في زمان ؛ والجزء الثانى كتب في زمان آخر ، لكنى رجعت أنهما كتبا بخط واحد وفى وقت واحد ويبد واحدة لأسباب منها تشابه الخط فى النسختين ، ووحدة العنوان فى الجزئين وحدة تشهد حتى فى شكل الخط بأن الكاتب واحد . فعلى الجزء الأول نجد العنوان هكذا : « الجزء الأول من العمدة فى محاسن الشعر ، تأليف أبى على حسن بن رشيق الازدى الشاعر » وعلى الجزء الثانى مثل ذلك . وعليه عبارة كتبه لنفسه الفقير الى رحمة ربه الراجى عفوه وغفرانه ثم كشط يأتى بعده : وفقه الله لمرضاته ، وتغمده برحمته ، وغفر له ولوالديه وللمسلمين ، وصلى على محمد وحسبنا الله ونعم الوكيل

وفى نهاية الجزء الثانى أيضا نجد عبارة هذا نصها : كمل كتاب العمدة فى محاسن الشعر وآدابه لأبى على بن رشيق الازدى والحمد لله منتصف النهار من يوم الأربعاء لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة آخر شهور سنة تسعة - كذا - وسبعين وستمائة

— كاتبه يستغفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين انه غفور
رحيم .

وهكذا ، لتشابه الخط في جملة وفي دقائقه ، ولوحدة
العنوان في القطعتين ، ثم لوحدة عبارة الناسخ عليهما ودعائه
لنفسه بصيغة واحدة فيهما ، رجحت أن القطعتين تؤلفان نسخة
الكتاب في أقدم ما وصلنا .

هذا وفي النسخة اضطراب يمكن أن نرى منه . في وضع
الورقة التاسعة من الجزء الأول في غير موضعها وحققا أن تتأخر
الى باب « المبدأ والخروج » حيث أن مادتها تتصل بذلك الباب .
ونرى منه في اختلال ترتيب الأبواب الواردة في الورقات من
٣٢ حتى ٣٦ ، كما نرى بها نقصا نلمسه في عدم وجود الأبواب
الآتية بها ، وهي :

١ — باب من رفعه الشعر ومن وضعه .

٢ — جزء من باب تعرض الشعراء .

٣ — باب التكسب بالشعر والأنفة منه .

٤ — باب تنقل الشعر في القبائل .

٥ — باب الاستعارة .

٦ — باب التمثيل .

٧ — باب المثل .

٨ — التشبيه .

٩ - باب الاشارة .

مع وجودها فى بقية النسخ الأخرى .

وأما الجزء الثانى فكامل غير مضطرب ولا منقوص .
وتبين هذا كله من مقارنة المخطوطات الأخرى المتأخرة بهذه
المخطوطة .

وقد وردت للقبطى عبارة يقول فيها : « ومن تصانيف
ابن رشيق كتاب العمدة فى صناعة الشعر - أربع مجلدات »
وتفسير أنه أربع مجلدات فى حين أن ما بأيديهم مجلدان فقط ،
نجده فى المخطوطة القديمة - فانه بعد باب «القدماء والمحدثين»
يقول : تم الجزء الأول من العمدة فى محاسن الشعر وآدابه - ثم
يقول - بسم الله الرحمن الرحيم - باب تنقل الشعر فى القبائل
وهذا يدل على أن الرجل كان قد جعل الكتاب أربعة أجزاء لا
جزئين كما هو فى صورته الحاضرة والمتناقلة اخيرا - وان القفطى
وآه فى صورته الأولى التى كان عليها فى أربعة أجزاء - فقال
ماقال من أنه اربعة مجلدات وقدمت أنه ربما كان هذا هو سبب
التخليط فى نسبه الى التاريخ . وقد طبع الكتاب فى مجلدين
طبع فى تونس ، وفى مصر بمطبعة السعادة ، واخيرا فى التجارية .
وفى طبعة السعادة نلاحظ اخطاء كثيرة ، فمن ذلك ما نراه فى باب
حد الشعر اذ تقول هذه النسخة « باب حد الشعر : البنية من أربعة
أشياء . هى اللفظ والمعنى والوزن والقافية لأن من الكلام

موزونا مقفى وليس بشعر لعدم الصنعة » والصواب (يقوم الشعر بعد النية من أربعة أشياء ، هى اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، لأن من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر لعدم القصد) .
والغريب أن بعض المتأخرين ممن اعتمدوا فى تعريف الشعر على ما قاله ابن رشيق أخذوا هذا التعريف عن هذه النسخة بخطه وزيفه وراحوا يناقشونه من غير أن يفتنوا الى ما فيه من تصحيف ، فقد صحفت كلمته النية فصارت : البنية ، وصحفت كلمة القصد فصارت : الصنعة . وجل من لا يسهو .
وفى هذه النسخة أيضا خطأ حول بيتى امرئ القيس اللذين يقول فيهما :

كأنى لم أركب جوادا للئدة
ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروى ولم أقل
لخيلى كرى كرة بعد اجفال
فقد قالوا أنشد البيتان فى حضرة سيف الدولة ، وشهد
المجلس رجل بغدادى يعرف بالمتخب وكان لا يسلم منه أحد من
القدماء والمحدثين ، ولا يذكر شعر بحضرته الا عابه وظهر على
صاحبه بالحجة الواضحة فأنشد يوما هذين البيتين فقال : خالف
بينهما امرؤ القيس ولو قال :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل
لخيلى كرى كرة بعد اجفال

ولم أسبأ الزق الروى للسدة
ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

لكان قد جمع بين الشيء وشكله بذكر الجواد والكر في بيت ، وذكر الخمر والنساء في بيت قالوا فالتبس الأمر بين يدي سيف الدولة وسلموا للمنتخب ما قال ؛ فقال رجل ممن حضر : ولا كرامة لهذا الرأي ، الله أصدق منك حيث يقول : « ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنت لا تظماً فيها ولا تضحى » فأتى بالجوع مع العرى ولم يأت به مع الظماً فسر سيف الدولة وأجازه بصلة حسنة (١) .

ذلك هو الوجه في القصة ولكنها ترد في طبعة السعادة مختلة مبتورة بترا يفقدها كل معنى ، ويقطع صلتها بأصلها الصحيح (٢)
موضوع الكتاب :

تضمن الكتاب طائفة من الأبواب معظمها في نقد الشعر وصناعاته وتاريخه وما يتصل به من مباحث الوزن والقافية - والصور الفنية التي تتصل بفن القول عموماً وفن الشعر بخاصة. ولكن ابن رشيق - على جاري عادة المؤلفين قبله وإلى عصره يضم إلى ذلك الموضوع الأصيل في كتابه العمدة موضوعات أخرى لا تجتمعها والشعر ودراساته جامعة لا من قريب ولا من

(١) العمدة ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) انظر القصة في باب النظم بنسخة مطبعه السعادة .

بعيد الا بتكلف كان يتحدث في باب عن أصول النسب وبيوتات العرب ، وفي باب آخر عما يتعلق بالأنساب ، وفي باب ثالث يذكر وقائع العرب وأيامها ، وفي باب رابع يتناول ملوك العرب ، وفي باب خامس يذكر العتاق من الخيل ، وفي باب سادس يحدثنا عن حكم البسملة قبل الشعر ، وفي سابع يذكر الجوائز والصلوات ، وفي ثامن يعرض لأحكام القوافي والخط ..

ولولا أنه جعل عنوان الكتاب العمدة في محاسن الشعر لما وقفنا منه عند ذكر أبواب لا تمت الى الشعر بصلة فان هذه كما أسلفت كانت عادة العصر والتأليف من حيث الشمول وعدم التخصص .

ب - كتاب قراضة الذهب في نقد أشعار العرب :

وهو أيضا كاسمه موضوعه النقد الذي جلى فيه ابن رشيق — فلزم أن نقف منه هو الآخر وقفة تعرف به ، وهو قد ألفه بعد العمدة بيقين ، وقد أشار لذلك حين قال في العمدة : « على أن المحدثين شاركوا القدماء في كل ما ذكرته أيضا .. كما خالطوهم في صفات النجوم ، وكثير مما لا يتسع له الباب ولكنني أفرد له كتابا قائما بنفسه أذكر فيه ما انفرد به المحدثون ، وما شاركهم فيه المتقدمون (١) وذلك الذي يشير اليه هو موضوع قراضة الذهب

(١) العمدة ج ٢ ص ٢٢٩ .

الموجود بأيدينا فانه يتحدث فيه عن ابتداءات الشعراء ، واخذ المتأخرين منهم عن المتقدمين مع الزيادة والفوق أو العجز وانتقصير. كما يتحدث ابن رشيق في العمدة أيضا عن ابن الرومي وأنه أكثر الشعراء اختراعا ، ثم يقول وسيأتي برهان ذلك في الكتاب الذي شرطت تأليفه ان شاء الله سبحانه (٢) « ويسنأثر ابن الرومي فعلا في القراضة بنصيب كبير يصدق ما وعد به الرجل في العمدة ، فيقوم ذلك دليلا آخر على ان القراضة كتب آخرًا .

واصرح من ذلك قوله في القراضة بعد سياقة أبيات أخذ فيها بعض الشعراء عن بعض : « وفي كتاب العمدة من ذلك جملة كافية » (٣) ومرة أخرى يقول : « والحذق في الأخذ على ضروب أنا ذاكر منها ما أمكن وتيسر اذ ليست هذه الرسالة موضع استقصاء لاسيما وقد فرغت في كتاب العمدة مما يراد أو أكثر » (٤)

واذا كنا رجحنا قبلا أن كتاب العمدة قد ألف قبل سنة ٤٢٥ فانا بيقين نقطع بأن رسالة قراضة الذهب كتبت بعد سنة ٤٢٧ وذلك لأنه يقول فيها : « وكنت أنا صنعت منذ سنين عدة ، وقد خرجنا للاستسقاء فرجعنا وقد انتشر الجراد حتى كاد يحول بيننا وبين الشمس ، وشق ذلك على الذي خرج للاستسقاء وكان شيخا

(٢) العمدة ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٣) قراضة الذهب ص ٢٠ .

(٤) قراضة الذهب ٢٩ .

صالحا مات سنة سبع وعشرين - بعد القصة بمدة طويلة -
صنعت ..

بينما نرتجى سحابة مزن غشيتنا سحابة من جراد
ليس من قلة ولا يخل رب انما ذاك من ذنوب العباد

فان القصة صريحة في الدلالة على أن الرسالة ألقت بعد ذلك
التاريخ الذي مات فيه هذا الشيخ سنة ٤٢٧ هـ .

هذا وقد طبعت الرسالة في مطبعة النهضة سنة ١٣٤٤ هـ ..
ومنها مصورة في دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨٣١ ادب س١ سج
واربعين لوحة .

٢- قضية اللفظ والمعنى

عرض ابن رشيقي لقضية اللفظ والمعنى - وقبل أن نعرض لرأيه أرى لكى تستبين جهود صاحبنا أن أمهد لذلك بكلمة عن القضية فمن عهد ارسطو واللفظ والمعنى يشغلان بال النقاد ، ويجرانهم الى خلافات حول أهمية كل منهما فى مجال فن التعبير بالكلمة كعنصر من عناصره .

أما ارسطو فيذهب - فيما يرى بعض النقاد الى أن الأهمية فى التعبير الفنى ترجع الى اللفظ ، ويعتمدون فى ذلك على أنه يقول : « اذا أخطأ الشاعر فى قوة التعبير فخطأه فنى ، اما اذا اخطأ لجهله بمسألة طبيعية او فنية فلا لوم عليه لأن المطلوب منه هو التعبير الفنى لا التدقيق العلمى » (١) .

وواضح أن مفهوم اللفظ فى مقابل المعنى فى هذا المجال انما هو التأليف ونظم الكلمات فى جمل والجمل فى موضوع - وليس اللفظ هو الكلمة المفردة على مايتوهم فريق من النقاد .
والذى أراه فى ارسطو انه متردد بين أن يجعل اللفظ أو المعنى القيمة الكبرى فى الأثر الفنى ، اذ بينا ننقل عنه الـ « باره السالفة » فراهم ينسبون اليه قوله :

(١) النقد الجمالى ص ١٨ .

ولو برع المرء فى تأليف أقوال تكشف عن الأخلاق ، وتمتاز
 بفخامة العبارة وجلال الفكرة لما بلغ المراد من المأساة ، انما يبلغه
 حقاً بمأساة أضعف عبارة ، وفكرة لكنها ذات خرافة وتركيب أفعال ،
 أضف الى ذلك ان مصدر اللذة الحقيقى لنفس المشاهد للمأساة
 انما هو فى أجزاء الخرافة أعنى التحولات والتصرفات (١) وظاهر
 النص أن براعة الشاعر أو الكاتب ، وتميزه بفخامة العبارة وجلال
 الفكرة لا يبلغان بأحدهما المراد ، وانما يبلغهما ذلك أن تكون
 القطعة الفنية ذات تركيب وخرافة — وكان المضمون عنده هو
 الذى ينبغى قصده وتحقيقه — وربما ايد ذلك انه يقول بعد عبارته
 المتقدمة : « وشبيه بهذا ما يقع فى الرسم ، فلو أن رساما أفاض فى
 التلوين بأجمل الألوان ، ولكن بغير خطة مرسومة لجاء عمله ادنى
 منزلة وجمالاً من رسام يرسم صورة تخطيطية » (٢) .

فواضح من هذا المثل الذى يضربه أرسطو أن الفكرة أكثر
 أثراً فى تحقق الفنية من مجرد الألفاظ التى تقع من غير أن يكون
 تحتها طائل . وربما كان قصده من ذلك هو قصد الذى قال حين
 سمع أبيات ابن هانىء :

أصاحت فقالت وقع أجرد شيطان
 وشامت فقالت لمع أبيض مخدّم

(١) فن الشعر

(٢) فن الشعر

وما ذعرت الا لجرس حليها
ولا رمقت الا برى من مخنم

فقال اسمع جعجة ولا أرى طحنا .

ولكن يعكر علينا صفو القول المحدد في مذهب أرسطو ،
وتقرير أى جانبى القضية أكثر أهمية عنده انه يقول فى تفسير
الفكرة مايشبه أن يكون تفسيراً للفظ أو العبارة وذلك حين يقول:
« ... واعنى بالفكرة القدرة على ايجاد اللغة التى يقتضئها
الموقف وتتلاءم واياه ، وهذا فى البلاغة من شأن السياسة
والخطابة » (١)

ولست أدرى أذلك اللبس والغموض فى وجهة نظر أرسطو
مرجعه اضطراب أرسطو ذاته ، أم مرجعه الترجمات التى ترجمته
الى مختلف اللغات اذ كيف تكون الفكرة هى القدرة على ايجاد
اللغة التى يقتضئها الموقف (٢) وذلك أشبه باللفظ منه بالمعنى ،
اللهم الا أن يريد أن تركيب الجملة معناه تركيب عناصرها
مجموعة من المعانى التى تلبس الألفاظ .

وأيا ما كان رأى فى وجهة نظر أرسطو فان النقاد من بعده ،
وفى سائر الآداب واللغات — ومن بينهم نقاد العرب — طامعروا
لهذه المسألة وانقسموا حولها .

(١) فن الشعر — بدوى ص ٢١ .

(٢) العمدة ج ١ ص ١٠٢ .

فاذا ما بلغنا الى ابن رشيق رأينا بعض النقاد يقول فيما يحدث
به عن القضية « ان الجاحظ من أنصار اللفظ وان ابن رشيق
مثله يؤثر اللفظ أيضا » . غير أن التحقيق الذي انتهت بى اليه
دراساتى حول الرجل هو أن ابن رشيق أقرب الى القول باهمية
الفكرة والمعنى منه الى القول باهمية العبارة واللفظ ويصدر
كلامه فى ذلك بقوله « اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به
كارتباط الروح بالجسد » ونحن نعلم منزلة الروح من الجسد .

ويحكى ابن رشيق آراء الناس فى ذلك قبله فيقول ان «منهم
من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده ، ومنهم من يؤثر
المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالى حيث وقع من هجنة
اللفظ وقبحه وخشوتته » ثم يشبه البيت من الشعر بالبيت من
الشعر وأنه « قراره الطبع وسمكه الرواية ، ودعائمه العلم - الى
ان يقول : وساكنه المعنى ولا خير فى بيت غير مسكون » (١)
فها تان تنضحان دلالة على أن ابن رشيق يكبر المعنى عن اللفظ
ويرجع ذلك انه يروى بيتى ابن هانئ المتقدمين ثم يقول :
« وليس تحت هذا كله الا الفساد وخلاف المراد ، ما الذى يفيدنا
ان تكون هذه المنسوب بها لبست حليها فتوهمت بعد الاصاحة
والرمق وقع فرس أو لع سيف غير أنها معززة فى دارها ، أو
جاهلة بما حملته من زينتها .. »

(١) المدة ج ١ ص ١٠٤ .

لمى أنه اذا صح أن شيوع مذهب فى قضية ببلد ، يمكن أن يدل على أن أهل البلد يعتقدونه فانا نقول ان مذهب المعنى كان أكثر شيوعا فى بيئة المغرب فهذا ابن شرف القيروانى - وكان معاصرا لابن رشيق ، ومرافقا له فى قصر المعز يقول فى أفضلية المعنى على اللفظ « وان من الشعر ما يملأ لفظه السامع ، ويرد على السامع منه قعاقع ، فلا ترعك شماخة معناه ، وانظر الى ما فى سكناه من معناه ، فان كان فى البيت ساكن فتلك المحاسن ، وان كان خاليا فاعدده جسما باليا ، وكذلك اذا سمعت الفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما فى أضعافها ، فكم من معنى عجيب فى لفظ غريب والمعانى هى الأرواح والألفاظ هى الأشباح » (١) .

ولا أسرف على الحقيقة اذا أنا قلت ان هذه العبارة هى عبارة ابن رشيق التى اسلفنا وان تفاوتت العبارتان باللفظ دون المعنى ، بل لا أشك فى أن أحدهما أخذ عن صاحبه فيكون المذهب عند ابن رشيق ايثار المعنى بالناية والاهتمام .

على انا لا نفسر ابن رشيق بابن شرف ، وانما نفسره بنفسه وبما يقول فى كتابه العمدة - يقول الرجل : حكى عبد الكريم عن العباس بن حسن العلوى فى صفة بليغ قوله : معانيه قوالب لألفاظه .. وهو الذى يقتضيه شرط كلامه ثم خالف فى موضع آخر فقال : ألفاظه قوالب معانيه ، وقوافيه معدة لميانيه .. ويعقب

(١) رسالة اعلام الكلام ص ٢٧ .

على هذه الرواية فيقول : والسجع يشهد بهذه الرواية الأخرى ، وهى التى اعرف ، والقالب يكون وعاء كالذى تفرغ فيه الأواى ، ويعمل به اللبن والآجر . وقد يكون قدرا للوعاء كالذى يقام به اللوالك وتصلح عليه الأخفاف ، ويكون مثالا كالذى تحذى عليه النعال وتفصل عليه القلائس.. فلهذا احتمل القالب أن يكون لفظا مرة ، وأن يكون وعاء مرة .

وإذا كان هذا هو تفسيره لمدلول كلمة القالب فى هذا الموضع وأنه يمكن أن يراد منها اللفظ ويمكن أن يراد منها المعنى ، فانه هو نفسه يكبر المعنى ويقدمه على اللفظ .

وإذا كان يحكى الرأيين فى باب اللفظ والمعنى فانا نراه فى غيره من الأبواب يميل الى المعنى . نجد ذلك فى حديثه عن البحرى اذ يقول عنه « ورأيت البحرى اذا مدح الخليفة كيف يتعمل للأبيات ويرز وجوه المعانى (١) » . ويقول : « ومما يؤيد كلام ابن قتيبه — فى تفضيل المعنى — كلام على رضى الله عنه اذ يقول : لولا أن الكلام يعاد لنفد ، فليس أحدا أحق بالكلام من أحد ، وانما السبق والشرف معا فى المعنى على شرائط نأتى بها فيما بعد من الكتاب ان شاء الله (٢) »

وكذلك نجد له حين يتحدث عن صنعة الكلام والتهدى فيها الى التوليد على ألا يكون رقيقا سفاسفا ولا باردا غثا . وليس التوليد فما أرى الا صفة من صفات المعانى .

(٢) العمدة ج ١ ص ٧٤

(١) العمدة ج ٢ ص ١٢٢ .

ثم هو اذا تحدث عن امرئ القيس وتقدمه على سائر الشعراء فانه يرد ذلك الى ابتكاراته فى المعاني فيقول : وانما تقدمهم لأنه خسف لهم عين الشعر فافتر عن معان عور أصح بصرا ، ثم يقرر بعد أنه لم يتقدمهم لأنه قال ما لم يقولوا ، ولكن لأنه سبق الى أشياء استحسناها الشعراء واتبعوه فيها وقد قيل : أول من لطف المعاني واستوقف على الطلول ، ووصف النساء بالمها وبالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وجسيع ذلك فيما نرى يرجع الى المعنى ولا شئ منه يرجع الى اللفظ والعبارة. وابن رشيق حين يعجبه شاعر فانما يعجبه منه معنى جديد يكون قد وقع له ، أو تهتد اليه قريحته ، فنراه يحكى قصة الحسين بن الضحاك مع ابي نواس ، وكيف اعجبه فى شعر الحسين معنى فاستلبه جهارا - يقول ابن رشيق : قال الحسين أنشدت أبا نواس قولى :

وشا طرى اللسان مختلق التكريه
 شباب المجون بالنسك
 الى أن بلغت الى قولى :
 كأنما نصب كأسه قمر
 بكرع فى بعض أنجم الفلك

فنفر نفرة منكرا ، فقلت مالك قد أفزعتنى ؟ فقال هذا معنى مليح ، أنا أحق به منك وسرى لمن يروى ، ثم أنشدنى بعد أيام

إذا عبيها شارب القوم خلته

يقبل في داج من الليل كوكبا

فقلت هذه مصالته يا أبا علي ، فقال : أتظن انه يروى لك معنى
مليح وأنا في الحياة » (١)

وهكذا انما يتنازع الشعراء على المعاني والفكر ، حتى ما
يتخرج شاعر كأبي نواس من أن يغتصب الحسين لضحك بيته
عنوة واقتدارا ، ثم يجعله في جملة شعره لا لشيء الا لأنه تضمن
معنى كريما .

وهكذا أيضا يرجع ابن رشيق الميزة في الأثر الفني الى
المعنى على ألا ينال ذلك من منزلة الألفاظ ، فانه حين يفاضل بين
القدماء والمحدثين ويفضل شعراء الاسلام على شعراء الجاهلية ،
يرد ذلك الفضل الى المعاني حيث يقول « واذا تأملت هذا تبينت
ما في أشعار طبقة جرير والفرزق وأصحابها من التوليدات
والابداعات العجيبة التي لا يقع مثلها للقدماء الا في الندرة القليلة
والقلته النادرة » (٢) .

ويقول : ثم اتى بشار بن برد وأصحابه فزادوا معاني مامرت
بخطا جاهلي ولا مخضرم ولا اسلامي . والمعاني تتردد وتتولد ،
والكلام يفتح بعضه بعضا .

ويعجبه قول يزيد بن الطثرية حين خلق أخوه ثور جمته :

(٢) العمدة ج ٢ ص ٢٢٦ .

(١) العمدة ج ٢ ص ١٧٢ .

فأصبح رأسي كالصخرة أشرفت
عليها عقاب ثم طارت عقابها
وقول بشار :

يا قوم اذني لبعض الحي عاشقة
والاذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى ، فقلت لهم
الاذن كالعين توفي القلب ما كانا
فهل أعجبه غير ابداع التصوير في بيت يزيد ؟ وحسن التصور
والتعليل في بيتي بشار ، وهل مرد التصوير والتصور الا الى
المعاني التي هي قدرة على التخيل والتركيب والضم والتشبيت ،
وجميع ما يكون من عمل القريحة في تشكيل الصورة !.

ويعجب ابن رشيق بابن الرومي فما الذي يعجبه فيه ؟ انما
يعجبه منه حسن تصويره ، وتأنيبه لما لا يتأتى له غيره من الشعراء
ويصرح بذلك فيقول :

وكان ابن الرومي ضنينا بالمعاني حريصا عليها يأخذ المعنى
الواحد ويولده فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ويصرفه في كل وجه
والى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم الامطح لأحد فيه بعده (١) .
ويذكر من ذلك قوله :

عيني لعينك حين تنظر مقتل
ومن العجائب ان معنى واحدا
ثم يذكر لابي نواس قوله :
لست ادري اطلال ليلي أم لا
كيف يدري بذاك من يتقلى

(١) المدة ج ٢ ص ٢٢٦ .

لو تفرغت لاستطالة ليلى ولرعى النجم كنت مخلا
ولاين الرومى ايضا قوله ولم يسمع أحسن منه :

وما يعتريها آفة بشرية من النوم الا انها تتبخر
وغير عجيب طيب انفاس روضة منورة باتت تراح وتمطر
كذلك انفاس الرياض بسحرة تطيب وأنفاس الورى تتغير

وبعد فمع أن الكتاب معقود لترجمة ابن رشيق أجدنى مدفوعا
الى أن أدخل فى قضية اللفظ والمعنى برأى فأقول : ان جانب المعنى
أحق بالرعاية من جانب اللفظ ، والآثار الفنية ترتفع بمقدار مايتها
لها من غرابة الفكرة وطرافة المعنى ، وفى مجال اللغة يتسرك
الفنان لفظا الى غيره لأن هذا يؤدى معنى لا يؤديه المتروك ، وليس
صحيحا مايقوله بعضهم من أن المعنى يتعاوره اكثر من شاعر ، اذ
الحقيقة انه اذا اختلفت العبارة بتقديم او تأخير ، او بنقص او بزيادة
اختلف المعنى وان دق الاختلاف وعمى على كثيرين - ولو أنا نظرنا
فى قوله تعالى «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن
ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه »
ثم عدانا عن كلمة الظمآن الى كلمة الانسان مثلا - وهى شبيهتها
فى الجرس والنغم - لبدا لأول النظر الفرق بين الاستعمالين من
حيث النسج والصورة والنغم ، ولكن فى الحقيقة يختلف المضمون
وتذهب تلك اللمحة التى تحملها لفظة «الظمآن» من الاشارة الى
شدة الحاجة واللهفة على الماء ، وما يتبع ذلك من أثر اخلاف الظن

عندما يتوقع الظمان في السراب ماء ويسعى نحوه مجهودا ، حتى
إذا ما اقترب منه تكشف له الحقيقة عن سراب وحسرة . وهكذا
في كل تغاير بين تعبيرين نلمس فروقا وان بدا لنا أن هناك معنى
واحدا . لكن حفلنا بالمعاني يجب ألا ينسينا قيمة اللفظ والعبارة
قالبلاغة كما يقول الأستاذ أحمد الشايب ، تقوم على حسن التعبير
كما تركز على قيمة التفكير .

٣- الشعر وما هيئته

الشعر فن كغيره من سائر الفنون يصدر عن موهبة ويعتمد على الحس المرهف وعلى الذوق اكثر مما يعتمد على العقل والمنطق لذلك لم يكن من اليسير تحديده او فى الاقل الاتفاق على تحديده .

وما الاختلاف بين النقاد فى سائر اللغات حول حقيقة الشعر ومفهومه الا مظهر من مظاهر هذه القضية ، غير ان ذلك لم يمنع المشتغلين بالدراسات النقدية من أن يقوموا بمحاولات فى هذا الصدد .

وفى اللغة العربية نجد كثيرين عرفوا الشعر وحددوا أركانه وعندى انهم فى جميع ماذكرون او فى أكثره على الأقل ، انما يعرفونه بمظاهره الخارجية المتبدية فى شكله وصورته اكثر مما يعرفونه بحقيقته وجوهره .

فالجاحظ مثلا يقول هو صناعة وضرب من الصبغ والتصوير وابن قتيبة يقول : انه الكلام الموزون الحسن اللفظ ، اللطيف المعنى ، ويروى بيتى المرقش :

هل بالديار ان تجيب صمم لو ان حيا ناطقا كلم

بأبى الشباب الاقوزين ولا تغبطن أخاك أن يقال حكم
ثم يقول : والعجب عندى من الاصمعى حين أدخله فى متخيره
وهو شعر ليس بصحيح الوزن ، ولا حسن اللفظ ولا لطيف
المعنى .. فترى كيف لم يعجبه ادخال البيتين فى الشعر المتخير
لأنه لم يتحقق فيها حسن اللفظ ، ولا صحة الوزن ، ولا لطف
المعنى . وكأن هذه هى صفات الشعر الجيد .

وأما أبو العلاء المعرى فيقول على لسان ابن القارح لما سأله
رضوان : ما الاشعار .. الاشعار جمع شعر ، والشعر كلام موزون
تقبله الغريزة على شرط ان زاد أو نقص ابانه الحسن . فتراه وقد
رده الى الوزن - ورد الوزن الى الحسن والذوق .

ثم كان الآمدى صاحب الموازنة بين الطائيين ، والجرحاني
صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، فعرفا الشعر ولكن عن
طريق مدارس الاشعار وبيان جيدها من رديئها وصحيتها من
سقيمها ، وكأنما أحسا ان خير ما يصنع بالفنون فى التعرف على
كنهها وحقيقتها انما هو استعراضها ، والنظر فيها ، وليس وضع
الحدود او التعاريف لها .

واتى بعد ذلك قدامة بن جعفر ، وكان المنطق اليونانى قد انتقل
وشاع فى الأوساط العلمية ، وظهرت آثاره ومظاهره فى الثقافة
العربية ، ولم ينبج منه الشعر ، فاذا قدامة يطبقه عليه فيضع له
تعريفا بالجنس والفصل والعرض .

ويأتى بعد هذا كله ابن رشيق ، ويؤلف العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ، فلا يكون له بد من أن يعرف الشعر ، وهو كان قرأ قدامة ، وأعجب بكثير من آرائه ونقل منها ، فلما أراد أن يعرف الشعر نقل تعريفه فى باب جعل عنوانه « باب حد الشعر » وهو عنوان تظهر فيه صيغة المناطق وعبارتهم واعنى بذلك كلمة الحد ، فهى كلمة ليست من الشعر ومفهومه فى شىء . وتحت هذا المعنى :

يقول : يقوم الشعر بعد القصد والنية من أربعة أشياء وهى اللفظ والوزن والمعنى والقافية . لأن من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر لعدم القصد والنية كأشياء اتزنت من القرآن وكلام النبى صلى الله عليه وسلم .

ويلفت النظر فى تعريف ابن رشيق نضه على القصد والنية فى اعتبار الكلام شعرا أو غير شعر واعتباره لهما فصلا يخرج به ما اتزن من القرآن وكلام النبى ، على انه ليس فى هذا بأول ولا آخر فقبله قال الجاحظ مثل ذلك ، وبعده قال الباقلانى : « ثم يقولون ان الشعر انما يطلق متى قصد القاصد اليه على الطريق الذى يتعمد ويسلك ولا يصح ان يتفق مثله الا من الشعراء دون ما يستوى فيه العامى والجاهل ، والعالم باللسان والشعر وتصرفه ، وما يتفق من كل أحد فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم الشاعر ، لأنه لو صح ان يسمى كل ما اعترض فى كلامه الفاظ تتزن بوزن

الشعر وتنتظم انتظام بعض الاعاريض كان الناس كلهم شعراء» (١).

وكما هو واضح فيمن أكد حديث القصد والنية فان ذلك الشرط انما قال به العرب المسلمون دون غيرهم من نقاد اللغات الأخرى لأن المسلمين نظروا فرأوا في القرآن وزنا كقوله تعالى : هبهات هبهات لما توعدون ، فانها تصلح تكملة لمن يقول : قد قلت لما حاولوا سلوتي

وبذلك يتألف منهما بيت من الشعر الموزون بوزن عربي : ورأوا فيه قوله تعالى : وجفان كالحواب وقدور راسبات فالآيتان موزوتتان بوزن من اوزان الرمل . ورأوا قوله تعالى : ومن يتق الله .. يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، فانها تشبه أن تكون من المتقارب . ورأوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول : هل انت الا اصبع دميت ، وفي سبيل الله مالقيت ؟ فانها عبارة تشبه الشعر في وزنه .

رأوا ذلك وأمثاله في القرآن ، وفي كلام العامة ، والخاصة ، وشيء منه لم يرد به الشعر ولا تحققت اركان الشعر فيه ، وانما جاء موزونا بالعرض فقالوا باشتراط النية والقصد ، ولا سيما وقد رأوا القرآن ينفي عن نفسه أن يكون شعرا ، وعن النبي أن يكون شاعرا .

(١) امجاز القرآن ص ٨٥ .

والرأى عندى ان ذلك ليس من قضية الشعر فى شيء لأن الوزن ليس هو كل شيء فى الشعر ، ومجىء الكلام موزونا لا يدخله فيه ، وما كان لنقادنا ان يخافوا على القرآن ان يدخل فى جملة الشعر ، ولا على النبى صلى الله عليه وسلم ان يدخل فى جملة الشعراء بوضع كلمات وافقت فى وزنها أوزان بعض بحورهم واشعارهم ، ولكنهم - عفا الله عنهم - جسموا صغيرا ، وجعلوا من الحجة قبة - كما يقول المثل ، والذين تحدثوا فى الشعر ثم لم يتعرضوا للقصد والنية عندى أولى بالتقدير والاكبار لثقوب نظرهم ، ودقة بصرهم بالشعر والقرآن .

الالتزام والشعر المرسل :

على انا ونحن نعيش فترة من حياتنا ترتفع فيها أصوات تنادى بالتحلل من الوزن الملتزم . والقافية الموحدة ، وترى أن يدخل فى مفهوم الشعر هذا الذى يطلقون عليه اسم « الشعر المرسل » نرى لزاما أن نقول : ان كلمة الشعر كلمة قديمة اطلقت ولها فى أذهان العرب اصحاب اللغة مفهوم ، واصبحت علما منذ أطلقوها على لون خاص يسلكونه فى صياغة الكلام ليميزوا بينه وبين سائر ألوان الصياغة الأخرى ، وذلك اللون هو الكلام الذى تتحقق فيه عناصر فى مقدمتها الوزن والقافية المتحدة والخيال ، وهكذا يكون الوزن على هيئة من هيئات بحورهم ، والقافية الموحدة فى آخر أبيات القصيدة شرطين من شروط اعتبار الكلام شعرا ، ولا نكاد نرى عربيا تعرض لتعريف الشعر وأغفل ذكر هذين ، ولا نكاد نرى

كلمة الشعر وقد استعملت فى غير هذا اللون من الصياغة ، حتى العرب لما قالت فى القرآن الكريم انه شعر لما رأوا فيه فواصل قليل لهم ليس بشعر وانهم عرضوه على أقرء الشعر فلم يوافق شيئا منها .. وعلى ذلك فتسمية هذا اللون الجديد من الصياغة باسم الشعر ، وأن وصفوه بالمرسل ، تسمية غير صحيحة واستعمال لكلمة الشعر فى غير ما عرفت به ، وماذا عليهم لو لم يسم صنيعهم هذا شعرا أصلا ، قد يكون لونا جميلا من نظم الكلام ، وله حلاوة وفيه جرس ، ولكن ذلك لا يمكن بحال أن يجعل منه شعرا والشعر فى الاصطلاح يشترط تمام الوزن ووحدة القافية .

وأما ما يذهب اليه بعضهم من أن الوزن والقافية انما هما من مقاييس العروضيين وانهم هم الذين شرطوها فى الكلام ليكون شعرا فوهم ، وانما الشعراء القدماء والعرب جميعا - وقبل ان يظهر علم العروض بمئات السنين - ومنذ كان الحس العربى هو الحكم فى فنية الكلام وفى تبين الشعر منه من النثر ، قالوا بختمية الوزن المكتمل وبختمية وحدة القافية .

وهذا هو النابغة الذبياني يقول :

زعم البوارح ان رحلتنا غدا وبذاك تنعاب الغراب الأسود
بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد
فيقوى ويخالف بين قافيتى البيتين ، اذ تأتى واحدة بالكسر
فى آخرها وتأتى الثانية بالضم فيه ، ويسمع العرب ذلك ، فيقع

من آذانهم موقع النفرة ، ومن ذوقهم موقع الإنكار ، ولكنهم
يهابون ان يسألوا الشاعر عن ذلك ، فقد يكون مذهبا جديدا -
كمذاهب المحدثين - وقد يكون ابداعا لم يسبق اليه ، غير ان
نفوسهم لا تطمئن لهذا الخروج على المألوف ، فاذا هم يحتالون
للأمر ، ويدسون على الشاعر جارية تتغنى بالبيتين ، ويوحون اليها
أن تطيل الصوت بأواخر القوافي حتى تبين المخالفة بينهما بالضم
والكسر ، والنابعة يسمع لها ، فاذا هو يفتن لذلك ، واذا هو
يدرك أنه قد خرج على عمود الشعر بما خالف بين القوافي
بالحركات واذا هو يعدل في شعره بحيث يحقق تمام التشابه
في القافية ، واذا هو يجعل البيتين هكذا :

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك حدثنا الغراب الأسود
بمخضب رخص كأن بناه عنم يكاد من اللطافة يعقد

ويقول مسرورا - ان خلا شعره من الاقواء قبل أن يشيع
في العرب وهو شاعرها - دخلت المدينة أو دخلت يشرب وفي
شعري أقواء وخرجت منها وأنا أشعر الناس (١)

ومثل ذلك ما يحكم عن بشر بن خازم واخيه سودة فقد
أنشد بشر بيتيه :

ألم تر أن طول الدهر يسلى وينسى مثلما نسي جدام
وكانوا قومنا فبغوا علينا وينسى مثلما نسي جدام

(١) موسيقى الشعر ص ١٥٥

فقال له سوادة أقوىيت ! لما سمع : « جذام والشامى » ، فيقول
بشر وما الاقواء ؟.

فيقول له قلت : نسيت جذام ويمد الصوت بحركة الميم
وقلت الشامى ويمد بها الصوت ايضا .
فيقول له : أدركت ولست بعائد .

وهكذا يدرك العرب بحسهم ان ليس شعرا مستساغا ماتخالفت
فيه القوافى وأما اشتراط تمام الوزن فهذه قصيدة عبيد بن
الأبرص :

أقفر من اهله ملحوب فالقطيبيات فالذنوب
لم يعييوها بأكثر من اختلال الوزن فيها وقالوا ان وزنها
ردىء النعمة مكروه على الأذن .

وهكذا يكون الحس هو الذى يدرك قيمة الوزن فينفر من
مختله ، وليس العروضيون هم الذين ينكرون ، وانما العروضيون
يضعون الموازين للمقبول والمردود بعد أن يستفتوا حس العرب
وذوقهم .

وهذا ابو العلاء المعرى - وهو من لانكر عليه حسه وذوقه
يسمع قصيدة عبيد ويرى فيها من الخلل ما يجعلها عنده مضرب
المثل اذ يقول :

وقد يخطئ رأى امرؤ وهو حازم
كما اختل فى وزن القريض عبيد

وعلى هذا يكون الوزن وتمامه ، والقافية ووحدتها من مقاييس الشعر الذى يستحق هذا اللقب ، وذلك برأى أهل الذوق والبصر باللغة وجمالها ، يقول الدكتور ابراهيم انيس :

والشعر منذ القدم جاء موزونا مقفى ، وهو لا يزال فى جل الأمم موزونا مقفى ترى موسيقاه فى أشعار البدائيين وأهل الحضارة ، ويستمتع بها هؤلاء وهؤلاء ، ويحافظ عليها هؤلاء وهؤلاء ، فليحاول النقاد اذا ماشاءت لهم المحاولة التفتيش عن كل اسرار الشعر وليصورها لنا ماشاء لهم التصوير وليكشفوا لنا عما قد يكون فيه من أخيلة واستعارات وتشابيه ومجازات ، وليؤلفوا لنا من مثل هذا علما او فنا .. غير أنا نطمع منهم ان يضعوا موسيقى الشعر فى محلها الأسمى وألا يقرنوها بشيء قد يعثرون عليه فى بعض الأشعار ، اذ يتعثرون فى البحث عنه والتنقيب ، فليس الشعر الحقيقى الا كلاما موسيقيا تنفعل لموسيقاه النفوس وتتأثر القلوب ! ومن تمام الموسيقى القافية الواحدة ذات الجرس المنتظم . وهكذا يكون ابن رشيق اصاب لما جعل تمام الوزن ووحدتها القافية قوام الشعر ، ويكون أولئك المحدثون الذين يتحللون من الوزن والقافية أو يتسهلون فيها بمنأى عن الصواب حين يدخلون فى جملة الشعر ما ليس موزونا ولا مقفى ويكون أولئك الذين يريدون أن يدخلوا فيه مالم يكتمل لهذان الركنان مسرفين على العرف وعلى ما استقر عليه النقد منذ عصور خالية - وليس هذا تجميدا لمفهوم الشعر وانما هو التزام بعموده

وفى اللغة متسع لتسمية كل جديد باسم يناسبه من غير ما تخطيط
أو اهدار للقديم وما استقر عليه الناس والعرف .

وبعد الوزن والقافية فى الشعر يأتى عنصر الخيال ، وقد
أدرك ابن رشيق حتميته فى الكلام ليعد من الشعر حين قال :
« وانما سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا
لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استطراف
لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعانى أو نقص
مما أطلاله سواه من الألفاظ أو صرف معنى الى وجه عن وجه
آخر كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ولم يكن له الا فضل
الوزن ، وليس بفضل عندي مع التقصير » (١)

ثم لابن رشيق مزية أخرى فى حديثه عن الشعر ، فإذا كان
غيره يقف عند حد ذكر التعريف وقيوده ومحتجزاته كما فعل
قدامه ، ويوجز فى الاستشهاد لما يقول فان صاحبنا سلك طريقا
آخر هو بالدراسات الأدبية أليق ، وكأننى به تبين عدم جدوى
تحديد الفن بتعريف فأخذ نفسه بذكر الأشعار وتبين أوجه الحسن
فيها ، والكشف عن مظاهر الجودة والرداءة من جهة الاستعراض
لآثار الشعراء وقصائدهم .

وفى فصل ابن رشيق بين الشعر والحكمة حين يقول (وانما
الشعر ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع ، فهذا باب الشعر

الذى وضع له وبنى عليه لا ما سواه .. والفلسفة وجر الأخبار
باب آخر غير الشعر فان وقع فيه شيء منها فبقدر ، ولا يجب أن
يجعلا نصب العين فيكونا متكئا واستراحة (١) .

ونلمح في كلمة ابن رشيق المتقدمة ريح العاطفة التي يهزها
الشعر ويحركها وهي التي أشار إليها رسكن لما قال عن الشعر :
انه عرض البواعث النبيلة والعواطف بواسطة الخيال (٢) واذا كان
بعض نقادنا يطير فرحا لمثل هذا التعريف فاني أقرر ان ابن رشيق
قد لمح قبل رسكن بمئات السنين .

وقال كروتشى عن الفلسفة وموقف الشعر منها : «عالم الشعر
يخلو من التفكير والنقد والفلسفة ، فهو عالم الخيال المطلق
بينما الفكر والفلسفة عالمهما الواقع والحقيقة ، والفلسفة تقتل
الشعر » وقد لمح ذلك وصرح به ابن رشيق قبل كروتشى بمئات
السنين كذلك .

وبعد فهذا هو ابن رشيق في تعريف الشعر ، يمسسه مسن
الفنان ، ويتصوره على ما يكون عليه الفن الشعري من العناية
بالخيال دون الفلسفة وجر الأخبار ، ولا يهمل ما به قوامه من
الوزن وتمامه ، والثقافية ووحدتها .
واذا كان ثمة شيء يؤخذ عليه فهو توسعه في إطلاق الشعر

(١) المدة ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) قدام بن جعفر والنقد الادبي ص ١٤٨ .

على المنظوم كله وجعله قسيما للمنثور وذلك في قوله : وكلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، والحقيقة التي يجب أن تتحراها في مجال الدراسة الواعية الدقيقة تقتضيها أن تقول ان الكلام كله منظوم ، والمنظوم شعر وثر ، ولكنه جرى على ما جرى عليه غيره من استعمال كلمة المنظوم في مقابل الشعر . ثم يفرقون بينهما بالخيال وأنه اذا تحقق للموزون المقفى عنصر الخيال كان شعرا ، واما اذا التزم في الموزون المقفى البحث عن الحقيقة تمريرها كما فى ألفية ابن مالك فذلك هو المنظوم .

وأيا ما يكون فان ابن رشيق عرف الشعر بخير ما يعرفه به ناقد متذوق يدرك الجمال ويعرف اسراره ، وذلك فى أسلوب علمى شائق يشيع فى أكثر فصول كتابه العمدة متبعا تعريفه بالنماذج الكثيرة من الشعر . وهو بهذا يؤكد أن الفنون تعرف بنماذجها أكثر مما تعرف بالحدود أو الرسوم .

٤- - طفولة الشعر ونشأته

لم يفت ابن رشيقي - وكتابه العمدة في محاسن الشعر وأدبه - أن يتحدث عن أولية الشعر العربي وكيف نشأ - وإذا كان حديثه عن هذه القضية يعتمد في أكثره على نقول نقلها عن المتقدمين ، فإن الحديث في أولية الشعر لا يبدو أن يكون مجرد حدس واجتهاد إذ لم يسجل الأولون لنا في هذا المجال ما يمكن أن يغنى أو يقنع ، وإنما هي روايات يتناقلها الخالف عن السالف ، كأن يقولوا : « كان الكلام كله منشورا فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأمجاد ، وسمحاتها الأجواد ، لتعز أنفسها الى الكرم ، وتدل أبناءها الى حسن الشيم ، فتوهموا أعاربض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه ، سموه شعرا ، لأنهم شعروا به أى فطنوا » هذه إحدى أقاويلهم التي ذكر ابن رشيقي (١) ، على أن له رواية أخرى تقول : « ويقال ان أول من أخذ في ترجيع الحذاء مضر بن نزار ، فانه سقط عن حمل ، وانكسرت يده ، فحملوه وهو يقول : وايداه وايداه ، وكان أحسن خلق

(١) العمدة ج ١ ص ٨٠

الله جرما وصوتا فأصغت الأبل إليه ، وجدت في السير ، فجعلت العرب مثالا لقوله : هايدا ، هايدا ، يحدون به الأبل .
ثم يحكى رواية ثالثة في ذلك فيقول : « وزعم ناس من مضر أن أول من حدا رجل منهم ، كان في ابله ايام الربيع فأمر غلاما له ببعض أمر ، فاستبطأه فضربه بالعصا فجعل ينشد في الأبل : يا يداه يا يداه » فقال له : الزم الزم ، واستفتح الناس الحداة من ذلك اليوم .

وأيا ما كان حظ السند في الروايات الثلاثة ، وهو حظ مشوب بالشك ، بل بأسباب الرد ، فإن متن الروايات يشير الى حالة انفعال أثر سقوط عن جمل ، شعر معه من سقطت بألم فصار يعبر عن ألمه بقوله : وايداه وايداه ، أو حالة انفعال لألم أحسه غلام لما ضربه سيده ، فجاشت نفسه بالذى أحس ، واذا لقلبه وجيب ، ونبض خاص غير نبضه الطبيعي ، ولأنفاسه ترديد غريب (١) عبر عنه باللغة فكانت عبارته ذات تقاسيم مرددة : وايداه ، وايداه . أو وايدا وايدا . فأصغت الأبل ، ورفعت رءوسها ، ونصبت آذانها وأغذت السير ، أو أخذت هذه التقاسم بلب الرجل الذى ضرب غلامه ، فاذا هو يقول له : الزم الزم .

ثم كان أن استفتح الناس بالحداة من ذلك اليوم ، ثم أخذ الحداة يتطور مع مرور الزمان حتى صار الى ذلك الشعر فى أسمى صورته ، وكان من أهم أركانه الوزن الذى هو ظاهرة

طبيعية لتصوير العاطفة التي لا يمكن الاستغناء عنها مطلقا « (١) .
وواضح كما قدمت مافى الروايات من تصنع يبعد بها عن أن
تكون موضع اطمئنان في الدلالة على تصور نشأة الشعر وأوليته .
ذلك أن التحديد يحادثه في هذا المجال ، ثم ربط الحادثة بمضر
ابن نزار - في إحدى الروايات - أو برجل من مضر في رواية
أخرى - يساعد على تسليط الشك على جميع الروايات . وانما
كانت على ذلك للعصية في اثبات الفضل ، ونسبة المزيه الى مضر
في كل شيء حتى في الاهتداء الى أولية الشعر عند العرب .

وربما لم تكن العصبية لمضر وحدها هي التي أعانت على
خلق هذه الروايات ، وانما الدين أيضا كان له دخل في ذلك فان
النبي صلى الله عليه وسلم ينتهي في نسبه الى مضر ، فلتكن مضر
صاحبة فضل على الشعر كما هي صاحبة فخر بأن الرسول عليه
السلام كان منها . ويؤيد ذلك أو في الأقل يزكيه أنا نجدهم
ينسبون الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لقوم من بنى غفار
وكان سمع حاديهم بطريق مكة ليلا يحدو فمال اليهم : ان أباكم
مضر خرج الى بعض رغاته فوجدها قد تفرقت ، فأخذ عصا ف ضرب
بها كف غلامه فغدا الغلام في الوادي وهو يصيح : وايداه
وايداه ؛ فسمعت الابل ذلك فعطفت ، فقال مضر : لو اشتق مثل
هذا لاتنفعت به الابل واجتمعت فاشتق الحداء « (٢) .

(١) أصول النقد الادبي ص ٢٩٦ .

(٢) المدة ج ٢ ص ٢٩٧ .

وفى رأى أن ذلك من خلق الرواة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل ذلك ولم تكن أولية الشعر لتشغله ، بل كانت تشغله رسالته والقيام على تبليغها وتوضيحها .

على أنه لو كان من هم الرسول أن يتحدث فى ذلك لكانت له مناسبة فاما أن يميل الى قوم من بنى غفار ليحدثهم ان مضرا ضلت له ابل ... الخ القصة فشىء يحيله المنطق ، أو فى الأقل يراه بعيدا .

والغريب أن ابن رشيق يسوق هذه الروايات ثم لا يبدى فيها برأى ، وكان أجدر به أن ينظر فى طبيعة اللغة والحياة ، أى لغة كانت وأى حياة ، واذا لرأى أن الشعر فن من التعبير بالكلمة عن النفس ووقع الأشياء عليها فى كل لسان — وليس العرب — ولا مضر — دون غيرهم قد انفردوا بهذا اللون من التعبير المنغم ، واذا كان هذا هو الشعر ، وهو عام فى جميع اللغات ، وهو تعبير عن النفس البشرية وعن وقع الأشياء عليها فلا بد وأن يكون مرحلة من مراحل الحياة تمر بها الشعوب جميعا على اختلاف الستتها ومستوياتها ، والأقرب الى المنطق — وهذا أمر الشعر — أن تكون جميع اللغات قد تكلمت بكلام منظوم تعبيرا عن أحاسيس ومشاعر وانفعالات ، قد يكون مصدرها سرور فتغنى ، أو حزن فتنوح وفى كليهما تنعيم ، ثم أعجبت الأمم بذلك الكلام ذى الجرس والمنغم ، فعدلت فيه ومضت به نحو أشكال وقوالب

محدودة باختلاف طبائع الشعوب وأصواتها ، وطبائع لغاتها
وما تطبق في ألفاظها وتراكيب جملها .

أو أن اللغات بدأت بالمنثور ، وليس المنثور الفنى ، وإنما
المنثور العادى الذى يقوم بحاجات الانسان الضرورية ثم رأت
منه نوعا كالسجع فى فواصله ، ارتقت به الى الرجز وما يشبهه
ثم أخيرا الى مرحلة القصيد ، ويمكن تطبيق ذلك على اللغة العربية
فنقول انها بدأت بكلام منشور يتصل بحاجات الحفاظ على الحياة ،
ثم اتفق منه كلام ذو جرس ونغم ارتبط بالعواطف البدائية ،
والمشاعر الانسانية ، فاستراح له أصحاب اللغة ، وأدخلوا عليه
من التعديلات قصدا بعد أن كان يصدر عنهم عفو خاطر ، فكان
السجع ، وهو مرحلة قبل الشعر وجدوا فيها امتاعا وتأثيرا كالذى
يروى عن كهان العرب ، ثم كانت مرحلة أخرى رؤى فيها أن
تتبادل الفقر تعادلا كاملا كقول القائل :

يا ليتنى فيها جذع أخب فيها وأضع

وهكذا . يقول بروكلمان فى تصور أولية الشعر (ويختلف
عادة المقال الذى يعبر به الانسان عن مشاعره القوية عن الكلام
العادى ، بما يتطلبه أولا من تعديلات صوتية فى الالتقاء ثم بما
يدخل عليه من مميزات خاصة فى الألفاظ ، فانقسم الكلام الى
أجزاء ، لم يراع فى أول الأمر التماثل فى تركيبها ولكنها تنشد
لانسجام فى الجمال الذوقى بوساطة تقريب التجانس بينها ...

وأول حلية أدخلها العرب عليها هي السجع .. وكان النثر المسجوع دائما أبدا يلازم الحالات الخطيرة والمناسبات الرهيبة ، أو الطقوس والحفلات الرسمية ، ولم يقصد به بعد التسلية وإدخال السرور على السامعين ، وإنما قصد به وقتئذ الاستيلاء على قلوب العرب السامعين ، وسحر أفئدتهم فاستحسنه العرافون والكهنة ، وتدرج العرب من النثر المسجوع الى وزن تفعيلى بسيط بعد ان سيطرت على مشاعرهم القافية والتوقيع بفضل الأسباب والتأثيرات الخارجية ، ثم تطور الوزن بعد ذلك الى الاشكال العديدة (١) .

وعلى هذا يكون ما ذهب اليه ابن رشيق ونقله فى كتابه غير سديد ولا مقبول .

٥ - إبداع الشعر

كان ابن رشيق شاعرا ، وشاعرا من النمط العالى على ما سنذكره بأدلته فى موضعه من هذه الترجمة ، والخبرة بشىء تدفع صاحبها الى الحديث عنه ، لذلك لم يكن عجيبا أن نرى بالقصد - وربما كان لأول ما نرى فى تاريخ الشعر ونقده - حديثا لابن رشيق عن ابداع الشعر ، وكيف يصدر عن الشعراء . عاقدا لذلك بابا مستقلا فى كتابه .

واذا كنا نجد لأمثال ابن قتيبة وبشر بن المعتمر والجرجاني صاحب الوساطة كلمات عن تخير الأوقات لاتتاج الشعر، ونصائح يهدونها للشعراء فان ابن رشيق بعد هؤلاء هو الذى عقد للقضية بابا فى عمدته ، وتحدث فيها عن خبرة ومعاناة لقول الشعر فكان حديثه أقرب الى الصواب .

واذا كان المحدثون من دراس هذه القضية يتعقبون الشعراء يسألونهم كيف ينزل عليهم رأى الشعر ، وفى أى الحالات ، وعلى أى الصور يأتهم ، فان ابن رشيق من ألف سنة الا قليلا فعلا مثل ذلك فسأل شعراء عصره وتعقبهم ولحظهم - ثم كتب ما كتب عن بينة .

وأول ما يلمس الرجل من أطراف القضية هو تقريره أن لا بد من طبيعة فنية ويعنى بها ما نطلق عليه كلمة الموهبة أو الاستعداد الفطرى . ويستشهد لذلك بعبارة صاحب الوساطة من أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية ، ثم تكون الدرجة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه — فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيب الشاعر منها تكون مرتبته من الاحسان .

غير أن ابن رشيق لا يتعرض للموهبة وحقيقتها ومصدرها ، رجل هى شىء يورث وتساعد عليه عوامل أم أنه شىء لا يد للانسان به ، ذلك ما لم يحدث عنه . ولكنه ليس وحده بالذى يلتزم الصمت ازاء هذه الظاهرة، فان العلماء قبله وبعده لا يزالون فى حيرة من أمر الموهبة ، وغاية ما يقول بعض الباحثين فيها أنها استعداد فطرى تلعب فيه الوراثة وقوانينها دورا كبيرا ، لكن هذا أيضا لا يعدو أن يكون رأيا ما يزال بحاجة الى الأدلة التى تجعل منه حقيقة علمية ، وفى سبيل ذلك قامت وتقوم دراسات تبحث الابداع الفنى ، وعند الشعراء خاصة (١) وهى دراسات تقوم على دراسة تاريخ الشعراء واستقراء صور انتاجهم وطرائقهم فى قرض الشعر وصناعاته كما تقوم على بحث مسوداتهم وما يتعاورها من المحو والاثبات . ومثل ذلك لم يكن على عهد ابن رشيق — لكنه مع هذا لم يفقه أن يستبطن من نفسه طريقة قول الشعر فيشير على

(١) من ذلك كتاب الدكتور مصطفى سويف : الانيس النفسية للابداع الفنى عند الشاعر خاصة

من يستشعر فى نفسه هذه الموهبة بأن يأخذ نفسه بحفظ الشعر والأخبار ومعرفة النسب وأيام العرب ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار ، وضرب الأمثال ، وعليه أن يعلق نفسه ببعض أنفاسهم ، ويقويها بقوة طباعهم ، ويعمل لذلك بما رأى من دراساته للشعراء فيقول : وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل صاحبه برواية الشعر ، ومعرفة الأخبار ، والتلمذة لمن فوقة من الشعراء ؛ فيقولون : فلان شاعر راوية ، يريدون انه اذا كان راوية عرف المقاصد ، وسهل عليه مأخذ الكلام ، ولم يضق به المذهب (١) واذا كان مطبوعا لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم ، وربما طلب المعنى فلم يصل اليه وهو مائل بين يديه لضعف آله ، كالمقعد يجد فى نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة (٢) .

ثم ما يزال يتحدث عن الرواية وعن قيمتها فى انتاج الشاعر ويكبر من شأنها بالنسبة للمولدين خاصة ويحتم عليهم ضرورة الوقوف على أشعار اسلافهم الذين افتنوا فى صنعة الشعر ، واشعار اقرانهم الذين ملكوا زمامه — وكأنه يريد ان يقول ان الدراسة تعدى على العلم ، ثم يشير على المولدين ألا يقصروا نظرهم فى الشعر على شعر الفحول المقدمين ، كما يحذرهم من الاكتفاء برواية اشعار المحدثين ، فان ذلك مدعاة الى أن يأتى

(١) العمدة ج ١ ص ٧٢ .

(٢) العمدة ج ١ ص ٥٧٢ .

نسجهم ضعيفا مهلهلا . يقول (ولا يستغنى المولد عن تصفح
أشعار المولدين ، لما فيها من حلاوة اللفظ وقرب المأخذ ، وإشارات
الملح ، ووجوه البديع الذى مثله فى شعر المتقدمين قليل ، وإن
كانوا هم فتحوا بابه وفتقوا جلبابه ، وللمتعقب زيادات وافتنان ،
على الا تكون عمدة الشاعر مطالعة ما ذكرت دون شعر الفحول
المقدمين - فانه متى فعل ذلك لم يكن فيه من المتانة وفضل القوة
ما يبلغ به طاقة من تبع جادته ، وإذا اعاتته فصاحة المتقدم وحلاوة
التأخر اشتد ساعده ، وبعد مرماه ، فلم يقع دون الغرض ، وعسى
ان يكون ارشق سهاما ، واحسن موقعا ممن لو عول عليه من
المحدثين لقصر عنه ووقع دونه .

ذلك هو صاحبنا فى القرن الخامس الهجرى يتحدث عن
الرواية وأثرها فى مساعدة الموهوب على انتاج الفن والشعر ،
وهو فى اكبار أمرها والتفطن لقيمتها لا يقل عن توفيق الحكيم فى
القرن الرابع عشر الهجرى ايضا حين يذكر مثل ذلك فيقول : انى
اطالع فى اليوم مالا يقل عن مائة صفحة فى مختلف ألوان المعرفة ،
مائة صفحة فى اليوم أى ثلاثة آلاف صفحة فى الشهر « (١) وهو
يقرأ فى تأن وتؤدة وبطء حتى يعرف لمن يقرأ فنه وسر صناعته
وطريقة أسلوبه فى البناء ، وخلق الأشخاص ، ونسج الجو
واحداث التأثير ، بل انه ليعيد قراءة الصفحة الواحدة مرات .

(١) زهرة العمر - ٧٧

وكذلك لا يقل ابن رشيق في اكبار أمر الرواية عن الشاعر
أحمد رامى الذى يقول : لقد قرأت كثيرا وكثيرا جدا حتى كدت
أجن ، كنت أقرأ حتى أصاب بدوار ، ولقد تعلقت تعلقا شديدا
ببيرون ولامرتين وشوقى . وجنت شغفا بربايعات الخيام .
وهكذا يكون صاحبنا أدرك قبلا ما أدركه المتأخرون ، وأدرك
حتمية التنوع في القراءة فلا يقف الفنان عند شاعر بعينه ، وانما
عليه أن يقرأ للمحدثين والمتقدمين .

واذا كان علماء النفس الذين عرضوا لدراسة الابداع الفنى
في الشعر قد جعلوا منه ابداعا مفاجئا وابداعا بطيئا ، وابداعا
يقظا لا شعوريا ، وابداعا يخضع لحكم العادة ، ورددوا ان هذه
الأنواع يحددها الاستعداد الفطرى ولايد للفنان بالتحكم في
زمانها ، فاني أذكر ان ابن رشيق سبق - على تقدمه في الزمن -
الى قريب من ذلك التقسيم .

ولست اتصيد له الكلمة فأحملها مالا تحمله حتى أقول ان
منهجه يوافق منهج المحدثين ، وانما اذكر - بالاعجاب - أنه
تصور القضية تصورا متكاملا ، وكتب فيها باين وان لم يكونا
بلغا علماء النفس المحدثين ، وبأسلوبهم وطريقتهم ، فانه انتهى
فيهما الى مثل ما انتهى اليه هؤلاء من تقسيم .

انه يتحدث عن الابداع المفاجيء والابداع البطيء تحت
عنوان البديهة والارتجال ، ويفرق بينهما فالارتجال ما كان
انهمارا وتدفقا لا يتوقف فيه قائله ، والبديهة دون ذلك فيها ريث

وأناة — وقد عارض ابن رشيق من ذهب الى أن البديهة هي الارتجال فقال : وليست به « لأن فيها الفكرة والتأيد. والارتجال ما كان انهمارا . » (١)

وأفضل البديهة عنده بديهة أمن وردت في موضع خوف ، فما ظنك بالارتجال وهو اسرع منها . واستعرض ابن رشيق الشعراء ووضعهم من البديهة والارتجال حيث كانوا ، فأبو نواس قوى البديهة والارتجال لا يكاد ينقطع ولا يروى الا فلتة ، قال له الخصب يوما بمازحه وهما بالمسجد الجامع : يا أبا نواس أنت غير مدافع في الشعر ولكنك لا تخطب فقام من فوره يقول :

منحتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب
وماكم أمير المؤمنين بحية أكل لحيات البلاد شروب
فان يك باق سحر فرعون فيكم فان عصا موسى بكف خصب
ثم التفت اليه وقال : والله لا يأتي بمثلها خطيب مصقع فكيف
رأيت ؟ فاعتذر اليه الخصب وقال : ان كنت الا مازحا

ويروى ابن رشيق أن أبا العتاهية صحب يوما رفقة فسمع زقاء الديوك فقال لرفيقه :

هل رأيت الصبح لاحا

قال نعم :

وسمعت الديك صاحا

(١) المدة ج ٢ ص ١٦٤ هـ

قال ابو العناهية :

انما يبكى على المغتر بالدنيا وناحا
فاستيقظ رفيقه للكلام وأنه شعر فرواه .

يقول ابن رشيق فما جرى هذا المجرى فهو ارتجال .

وأما البديهة فبعد أن يفكر الشاعر سريعا أو يكتب سريعا
ان حضرت آلة الا أنه غير بطيء ، ولا متراخ ، فان أطل حتى
يفرط ، أو قام من مجلسه لم يعد بديها .

ويذكر ابن رشيق أن شعر البديهة دون شعر التروية فيقول :
وكان أبو الطيب كثير البديهة والارتجال الا أن شعره فيهما نازل
عن طبقتة جدا . ويلتمس له العذر ، وأنه في سعة منه لأن البديهة
كما قال فيها ابن الرومي :

فار الروية نار جد منضجة وفي البديهة نار ذات تلويح
وقد بفضلها قوم لسرعتها لكنها سرعة تمضي مع الريح
وابن المعتز يقول :

والقول بعد الفكر يؤمن زيفه شتان بين روية وبديه

ولكن من الشعراء من شعره في بديته ورويته سواء وهو
كذلك في الأمن والخوف لقدرته وسكون جأشه وقوة غريزته
كمرة بن محكان السعدي اذ يقول وقد أمر مصعب بن الزبير رجلا
من بني أسد يقتله :

بنى أسد أن تقتلونى تحاربوا
تميما ، اذا الحرب العوان اشمعلت
ولست وان كانت الى حييصة
يبالك على الدنيا اذا ما تولت

يقول ابن رشيقي : وهذا شعر لو روى فيه صاحبه حولا كاملا
على امن ودعه وفرط شهوة أو شدة حمية لما أتى فوق هذا .

وما يزال ابن رشيقي يسوق للشعراء من شعر البديهة والارتجال
ما يرد على قسطاكي الحمصي مذهبه الذي ينكر أن تكون العرب
قالت الشعر على البديهة الا ان يكون في بيت واحد كالذي يروى
عن أبي تمام في سنيته يقصد قوله :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس
وحتى هذه أيضا يشك فيها الحمصي مع استفاضة الروايات
بها ، ويقول ان ذلك ان صح به الخبر فهو من الخوارق التي
لا يروى مثلها الا في مدى مئات السنين — ثم يقول — وحسبك
ما ورد بالتحقيق عن فرجيل ثاني شعراء الدنيا من أنه لم ينته من
نظم قصيدته « المساء » الا بعد اربع عشرة سنة .

وهذا كلام لا يحتج به في قضيتنا — فليس فرجيل — وان
صح أنه ثاني شعراء الدنيا بحجة تلغى ما تواترت به الروايات عن
شعراء العرب وأن كثيرا من شعرهم كان عن ارتجال — وهذه

معلقة الحارث بن حنظلة قيلت في ظروف أعجلته عن التروية
والاعداد.

ابن رشيق واللغة :

وابن رشيق الناقد كان على بصر باللغة ومنايع الكلم ومصادر
اشتقاقها لذلك يتحدث عن اصل الكلمة فيذكر « ان اشتقاق
البديهة من يده بمعنى بدأ ، ابدلت الهمزة هاء كما أبدلت في
أشياء كثيرة لقربها منها ، فقد قالوا في مدح مده ، ولهيك تفعل
كذا بمعنى لأنك وهو كثير .

والارتجال مأخوذ من السهولة وا لانصباب ومنه قيل شعر
رجل اذا كان سبطا مسترسلا غير جعد ، وقيل هو من ارتجال
البئر وهو أن تنزل برجلك من غير حبل . « وكأنه يريد انك ترد
الماء بغير تأهب او استعداد ثقة واقتدارا على الورود بغير عدة .

ثم يتحدث ابن رشيق بعد عن الابداع اليقظ الشعوري فيذكر
أنه حالة شعورية ، يقول فيها الشاعر الشعر عن قصد واختيار
وارادة كالشعر في المناسبات ، فليس مثل ذلك فيضا وانجاسا ،
وانما هو شيء يتعمده الشاعر ويتأهب له ويقصده . يقول : وكان
أبو تمام يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك في شعره . قال
أحد أصحابه : استأذنت عليه يوما . وكان لا يستتر عني —
فأذن لى فدخلت فاذا هو فى بيت مصهرج قد غسل بالماء ، يتقلب
يمينا وشمالا ، فقلت : لقد بلغ الحر بك مبلغا شديدا ، قال لا ،
ولكن غيره . ومكث كذلك ساعة ثم قام كأنما أطلق من عقال ،

فقال الآن اردت ، ثم استمد وكتب شيئا لا أعرفه ، ثم قال :
اتدرى ما كنت فيه منذ الآن ؟ قلت كلا . قال قول أبى نواس :

كالدهر فيه شراسة وليان

أردت معناه فشس على حتى أمكن الله منه فصنعت :

شرست ، بل لنت ، بل قانيت ذاك بذا

فأنت لاشك فيك السهل والجبل

يقول ابن رشيقي : ولعمري لو سكت هذا الحاكي لنم البيت
يما كان داخل البيت ، لأن الكلفة فيه ظاهرة والتعمل بين .

ومثل حكاية أبى تمام حكاية عبد الكريم النهشلى - معاصر
ابن رشيقي - قال ابن رشيقي : حدثني بعض اصحابنا من أهل
المهدية وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكدية - هو أشرفها أرضا
وهواء - قال جئت هذا الموضع مرة فاذا عبد الكريم على سطح
برج هنالك قد كشف الدنيا ، فقلت أبا محمد : ما تصنع هنا ؟
قال القمح خاطرى ، واجلو ناظرى . قلت فهل تنج لك شيء ؟ قال
ما تقر به عيني وعينك ان شاء الله تعالى ، وانشدني شعرا يدخل
فى مسام القلوب رقة ، قلت هذا اختبار منك اخترعته ؟ يريد
الوقوف بالمكان العالى . قال لا بل برأى الاصمعي .

قال : وكان جرير اذا أراد أن يؤبد قصيدة صنعها ليلا ، يشعل
سراجيه ويمتزل ، وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه
رغبة فى الخاوة بنفسه ، ويحكى ان صنع ذلك فى قصيدته التى
اخزى بها بنى نمير لما قال فيها :

قفض الطرف، انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ثم يلجأ ابن رشيقي الى الاستبطان في دراسة الظاهرة، ولذلك اقراه يحكى ان أبا تمام كان ينصب القافية للبيت ليعلق الأعجاز بالصذور، ولا يأتي بذلك الا شاعر مصنع كجيب ثم يقول عن نفسه: والصواب الا يصنع شاعر بيتا لا يعرف قافيته، غير اني لا أجد ذلك في طبعي جملة، ولا أقدر عليه بل اصنع القسيم الأول على ما اريده، ثم التمس في نفسي ما يليق به من القوافي بعد ذلك فأبني عليه القسيم الثاني، افعل ذلك فيه كما يفعل من يبنى البيت على القافية، ولم أر ذلك بمخل على، ولا يزحزحني عن مرادى، ولا يغير على شيئا من لفظ القسيم الأول الا في الندرة التي لا يعتد بها أو على جهة التنقيح المفرط.

ثم يذكر ان من الشعراء من يسبق اليه بيت واثنان وخاطره في غيرهما، يجب أن يكونا بعد ذلك بأبيات أو قبله بأبيات، وذلك لقوة طبعه وانبعث مادته..

ثم ما يزال يحكى من طرائق الشعراء في نظم الشعر حتى يقول حاكيا عنهم: «من أراد ان يقول الشعر فليعشق فانه يرق، وليرو فانه يدل، وليطمع فانه يصنع». ثم يقول وقالوا: الحيلة لكلام القريحة الحمام، وتصيد ساعات النشاط. وهذا عنده انجع وبه يأخذ واليه يذهب.

وينهى ابن رشيقي حديث الابداع الفني بذكر صحيفة يشر بن المعتمر في الدلالة على نطاق الفصاحة والبلاغة.

وبعد فهل نسرف على الحقيقة اذا قلنا ان ابن رشيق بحديثه فى الابداع الفنى ، والبدية والارتجال سبق الدكتور مصطفى سويف حين جعل الباب الثانى من كتابه الأسس النفسية للابداع الفنى عند الشاعر خاصة ، بابا عنوانه : « محاولة تفسير ديناميات الابداع فى الشعر على أساس النهج التجريبي الموجه » وقال فى صدره : المشكلة التى نريد ان نعالجها فى هذا الباب هى كيف ينشئ الشاعر قصائده أو بعبارة أخرى : ما هى خطوات الشاعر التى يتخذها فى عملية الابداع ، وكيف تتعدد به ، وما هى العوامل التى تساهم فى تحديدها ؟ وكيف يمضى هذا التحديد ؟ » (١)

ان هذه المشكلة هى التى عرض لها ابن رشيق وتحدث عنها ، وحاول جاهدا أن يصورها فى ضوء تجربته كشاعر ، وفى ضوء ملاحظاته على معاصريه ، وعلى الروايات التى عرضت لذلك على المدى الطويل فى تاريخ الشعراء .

وكل ما بين ابن رشيق والدكتور سويف انما هو ما بين العصرين من اتساع أفق المعرفة ، وتفتح صور ومناهج للدراسات لم تكن معروفة على عهد ابن رشيق ، ولكنه لمح لها ووضع بذورها فى حديثه هذا المستفيض عن الروية والبدية والارتجال وحسبه أن يكون فتح الباب .

(١) الأسس النفسية للابداع الفنى ص ١٠٦ .

٦- الطبع والصنع

والطبع والصناعة فى عمل الشعر باب لم يكن لابن رشيق - وقد كتب كتابه العمدة فى نقد الشعر ومحاسنه ، او فى نقد الشعر وآدابه - بد من ان يتحدث فيه ، وهو قد رأى بين يديه شعرا كثيرا لشعراء يختلفون بالزمان والمكان ويختلفون بالبيئة وبالمزاج الذى عاشوا فيه ، فاولئك جاهليون وهؤلاء مخضرمون أظلمتهم الجاهلية ولحقهم الاسلام ، وثبت من نشأوا فى كنف الاسلام ، ولم تتغير وجوههم بتراب الجاهلية ، وفريق عاش والاسرة الأموية ترفرف بجناحيها على الدولة الاسلامية ، وآخرون رفرت عليهم اعلام الدولة العباسية الممتدة من وسط آسيا الى شمال افريقية ، الى آخرين عاشوا فى جنوب غرب اوربا حيث الدولة الاندلسية .

ومن هؤلاء من كان موطنه البادية حيث العرار والشيخ والقيصوم ، ومنهم من تقلب فى حضارات أصيلة ومجتمعة فى الجزيرة العربية وخارجها على طول امتداد الدولة وتجنحها فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب .

وهؤلاء واولئك مختلفون من حيث الموهبة والطبع والغريزة والنقاد قبل ابن رشيق قد عرضوا لهم بدراسة وبآراء قالوها فى شعرهم ، ووصلت اليه هذه الآراء فيهم وفى اشعارهم وفى طرائقهم حين يقرضون الشعر ، وفى طبيعة الشعر الذى يصدر عنهم ، فلم يكن بملك — وهو الناقد — الا أن يعرض لذلك كله ليقول فيه برأيه — فكان ذلك الباب .

وليس من ههنا هنا — ونحن نترجم للرجل — ان نستقصى مآل النقاد قبله ، وانما حسبنا ان نعرض لرأى ابن رشيق بالقدر الذى يجعل من هذه الترجمة صورة تكشف عن شخصية الرجل وعن جهوده فى هذا المضمار حتى تستكمل الترجمة جميع جوانبها .

وأول ما نلاحظ على منهجه فى علاج الموضوع انه عقد له بابا ينفرد بالحديث فيه وان مسه فى مواطن أخرى من كتاب العمدة ، وقد جعل من الشعر مطبوعا ، وانه الأصل الذى وقع أولا . وجعل منه نوعا آخر اسماء المصنوع ، ولكنه ليس بالمتكلف تكلف اشعار المولدين ، وانما استحق لقب المصنوع لما وقع فيه من هذا الذى يسمونه صنعة .

وفرق بين الشعر المطبوع وشعر الصنعة « على أساس ان الاول وان جاء فيه من صور البديع الا انه جاء من غير ان يقصد اليه الشاعر او يتعمل له أو يتكلفه ، وانما جاء عفوا وبطباع القوم

واستحسنوه فمالوا اليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره
على غيره» (١)

وابن رشيق حين يقول - وانما جاء عفوا وبطباع القوم - انما
يريد ان يقول : ان ماجاء فى الشعر القديم من استعارة او جناس
أو تشبيه انما كان شيئا يسيرا لم يقصد اليه شاعر ، ولا تعمده ،
وانما هو شئء فراه بين الفينة والفينة وليست عليه مسحة
التكلف .. والعرب لا تنظر فى اعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق
أو تقابل فتترك لفظة للفظه او معنى لمعنى كما يفعل المحدثون .

والعرب عنده هم المتقدمون الذين عاشوا فى الجزيرة العربية
جاهليتها وصدر الاسلام ، وقد جعل بعضهم ذلك آخر عصر
الاستشهاد للغة وحددوه بالفرزدق على الراجح ، وهم على هذا
العرب الذين لم يخالطوا العجمة والعجم بعدما اتسعت رقعة
الدولة .. وخالط ابنائها ابناء الشعوب الداخلة فى حكمها ،
ففقدوا بهذه المخالطة نقاوة العنصر العربى ، وبالتبع نقاوة اللسان.

وعلى هذا يكون المصنوع من الشعر ما حفل به الشاعر ،
واكثر له وتكلف فيه زينة اوجاء به وعليه مسحة الصنعة من مثل
حسن النسق والعطف فى قصيدة ابى ذؤيب التى يقول فيها يصف
حمر النوحش والصائد :

(١) المدة ج ١ ص ١٠٨ .

فوردن والعيون مقعد را بىء الف رباء خلف النجم لا يتسلع
فكر عن فى حجرات عذب بارد حصب البطاح تغيب فيه الأكرع
فشرين ثم سمعن حسادونه شرف الحجاب وريب فرع يقرع
فنكرنه فنفرن فامترست به هوجاء هادية وهاد جرشع

يقول ابن رشيق : فانت ترى هذا النسق بالفاء ، كيف اطرده
له ، ولم ينحل عقده ، ولا اختل بناؤه ، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته
اياه - وقصده اليه - لما تمكن له هذا التمكن (١) والشاعر لاشك
قد اجهده نفسه وحملها على هذا الصنيع - ولو أن مثل ذلك كان
فى بيت أو بيتين لقليل شئ جاء بالعفو والطبع - لكن متانة
الاسلوب واتساق الابيات ، وتمكن الشاعر من احكام النسج
لم يخرج بالأبيات الى ذلك النوع الثالث الذى يسميه المتكلف .

وقد حاول ابن رشيق تحديد الأنواع الثلاثة ، فالمطبوع من
الشعراء من ينال عليه الشعر انشالا لايجهده نفسه فى نحت البيت
أو قرض القصيدة كالذى نراه عند الحارث بن حنظلة فى معلقته
على ما اشتهر من أنه انشدها بين يدي عمرو بن هند فانهم قالوا انى
بها كالخطبة ، ومثله شعراء الجاهلية حين يقولون على السجدة
لا ينظرون فى أعطاف اشعارهم بزينة وانما نظرهم فى فصاحة
الكلام وجزالاته وبسط المعنى وابرازه واتقان بنية الشعر واحكام
عقد القوافى وتلاحم الكلام ببعضه ببعض .

(١) العمدة ج ١ ص ١٠٩ .

وفى ذلك يقول الجرجاني : « فكانت العرب تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق لمن وصف فأجاد ، وشبه فقارب وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوارى أمثاله ، ونوادر آيائه ولم تكن تبعاً بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالابداع والاستعارات اذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض » .

وشعر الصنعة فى نظر ابن رشيق ضربان اولهما : ما كان فيه قصد الى التجويد ، ومحاولة من الشاعر لتبرئة شعره من كل ما يشينه مع تحقيق جمال فنى فيه على غير تكثر او تكلف ، وفى هذا النوع يأتى الشعر وفيه من التشبيهات ، وتجسيم الصور وتتابع الاستعارات القريبة المشتقة من طبيعة الحياة ، والمستمدة مادتها من البيئة ، مع تأييد عن كل متكلف مسرف فى العلاقات البعيدة التى تبعد بالعبارة عن المراد بها . فمن ذلك مثل قول زهير :

فبينما نبغى الصيد جاء غلامنا	يدب ويخفى شخصه ويضائله
فقال شياه راتعات بقفرة	بمستأسد القرى ان حو مسايه
ثلاث كأقواس السراء ومسحل	قد اخضر من لس الغمير جحافله

فهذا اللون من الفنية على المعنى المتقدم شائع عند الشعراء المتقدمين او الشعراء العرب كما يسميهم ابن رشيق ، وهو لون وان ظهرت فيه الصنعة المحكمة ، والنسج المبدع الا انه جاء بغير تكلف وبغير اسراف فى الحلى .

ويشير ابن رشيق الى أن تنخل الشعر واختيار جيده لا يدخله
في باب التصنيع ولا يخرجه عن شعر الطبع ولا يخرج صاحبه
عن جملة الشعراء المطبوعين فهذا امرؤ القيس يقول : (١)

اذود القوافي عنى ذبادا ذباد غلام جرىء جوادا
فلما كثرن وعينيه تخيرت منهن شتى جبادا
فاعزل مرجانها جانبيا وآخذ من درها المستجادا

فهذا التخير لا يعدو ان يكون مجرد انتقاء مما يتوارد عليه
فأما ماوراء ذلك من القصد الى المجيء بتشبيه او استعارة ، أو
العمد والاصرار على مطابقة او تجنيس فليس هؤلاء الشعراء منه
فى شيء فاستحقوا بذلك اسم المطبوعين .

أما شعراء الصنعة فهم أولئك الذين يسعون الى الحلى اللفظية
والمعنوية يوشون بهم شعرهم قال ابن رشيق : وأول من فتق البديع
من المحدثين بشار بن برد وابن هرمة ، وهو ساقاة العرب ، وآخر
من يستشهد بشعره تم تبعهما مفتونا بهما كلثوم بن عمرو العتابي
ومنصور النيرى ومسلم بن الوليد وابو نواس ، واتبع هؤلاء
حبيب (٢) - وهم جميعا كانوا طلاب صنعة يستهدفونها فى
اشعارهم ويسعون اليها فى قصائدهم على حين كانت قبلهم نبذا
فى الشعر تستحسن ، ونكتا تستظرف مع القلة وفى النادرة
لاتدل على كلفة . يقول الرجل : وانما هرب الحذاق من هذه

(١) الوساطة ص ٢٧ .

(٢) العمدة ج ١ ص ١١٠ .

الاشباه لما تدعو اليه من التكلف لاسيما ان كان فى الطبع أسر
شئ من الضعف والتخلف « (١) ويقول ايضا « فاما اذا كثرت
فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وايتار الكلفة » .

ويتحدث ابن رشيق عن زحمة الشعر بصور البديع فيرفضها
ولكنه فى الوقت ذاته لا يحب « ان يكون ايضا خاليا منها مغسولا
كثير من شعر أشجع واشباهه من هؤلاء المطبوعين جملة » (٢)
ونقف منه وقفة قصيرة عند هذا الحكم اذ يبدو انه فيه
متأثر بنظرية الوسط فلا كثرة الصور البديعية ترضيه ولا خلوه
منهاما يستحسنه . واذا كان مذهب الوسط مما يقول به الاخلاقيون
فانى لا أرى الأخذ به فى الأحكام الفنية ، ذلك انه قد تكثر
الحلى فى شعر شاعر ولكن حسن سبكها وبديع تناولها وخفاء
تأتى لها ينبو بها عن أن تكون مستقلة أو مستسجة أو غير
مستملحة ، بل قد يضاف عليها مسحة من جمال يرتفع بها الى أعلى
مستوى فى الفنية .

ورب حلية واحدة أو تصنع قليل لا يوفق فيه صاحبه يأتى فى
الشعر فاذا هو سمج مستثقل ، ومعيب مردود ، وهكذا لا يكون
الأمر أمر الكم ، وانما الأمر فى الفن ومنه الشعر — أمر الكيف
كما يقولون . فمتى وجدنا صنعة حسنة ، وتصويرا بديعا كان الشعر
مقبولا وان تراحت عليه الصور . وهذه أبيات لأبى تمام يقول
فيها :

(١) المدة ج ٢ ص ٢٥٥

(٢) المدة ج ٣ ص ٢٥٥

دعنى وشرب الهوى يا شارب الكاس
فاننى للذى حسيته حاسى
لا يوحشك ما استسمجت من سقى
فان منزله من أحسن الناس
من قطع الفاظه توصيل مهلكتى
ووصل الحافظه تقطيع أنفاسى
متى أعيش بتأميل الرجاء اذا
ما كان قطع رجائى فى يدى ياسى

فلم يخل بيت فيها من معنى بديع ، وصنعة لطيفة ، طابق وجانس
واستعار ، فأحسن فى جميع ذلك ، والأبيات معدودة فى المختار
من غزله ، وحق لها فقد جمعت على قصرها فنونا من الحسن ،
وأصنافا من البديع ، ثم فيها من الاحكام والمتانة والقوة ماتراه
وهذا بيت له هو نفسه أيضا يقول فيه :

فاضت سحائب من نعمائه وكفت
بؤسا على البؤس حتى اضنت البؤسا

فتراه وقد صنع فيه فأساء الصنعة ، وأغرب وكرر حتى سمح
وأصبح البيت ثقيلًا على اللسان يكده ان ينطق به ، وعلى العقل
يعتصرده حتى يصل الى ما أراد به ، وعلى هذا لانحكم الكم فى
الشعر وانما ينبغى ان نحكم الصنعة والتهدى لها من أجمل
الطرق وأسرها وأوضحها .

ثم يمضى ابن رشيق يحدث عن الشعراء ويصنفهم من حيث الطبع والصنعة ، وهو فى كل ذلك يكشف عن شخصية خبرت الشعر وأصدرت حكمها فى الشعراء على بينة من الدراسة ومن التمرس بقرض الشعر والتصرف فيه فالبحترى عنده أملح صنعة واحسن مذهبا فى الكلام ، يسلك منه دماثة وسيولة مع احكام الصنعة وقرب المأخذ ، لاتظهر عليه كلفة ولا مشقة . أما ابن المعتز فلم يكن ابن رشيق يعلم — فيما بدا — شاعرا اكمل منه ولا أعجب تصنيفا ، فان صنعته خفية لطيفة ، لاتكاد تظهر فى بعض المواضع الا للبصير ، وهو ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعا وافتنانا ، واقربهم قوافى وأوزانا ، ولا ترى وراءه غاية لطالبا فى هذا الباب .

وأما حبيب ومسلم فشعرهما أكثر الشعر نفعا لمبتدئ فى طلب التصنيع ومزاولة الكلام لما بينهما من الفضيلة لمبتغيها ، ولأنهما طرقا الى الصنعة ومعرفتها طرقا سابلة ، وأكثرنا منها فى اشعارهما فكثيرا سهلا عند الناس وجسرهم عليها « (١) » .

ومع جمع ابن رشيق بين مسلم وحبيب فى تلك الصفة فانه لا يفوته ان يدرك ما بينهما من فروق ، فمسلم اول من تكلف البديع من المولدين ، وأخذ نفسه بالصنعة واكثر منها ، وهو عنده زهيرهم لأنه كان يبطئ فى صنعته ويجيدها ، ثم هو مع ذلك اسهل — عنده — شعرا من حبيب ، وأقل تكلفا .

(١) المدة ج ١ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

ويحكى ابن رشيق بيت ابى تمام الذى يقول فيه
بحوافر حفر وصلب وصلب صلب

وان ابن الرومى نص فى بعض تسطيراته على محمد بن ابى
حكيم الشاعر حين عاب عليه قوله فى الفرس :

فله شـهامة سودنيق باكر وجوافر حفر ورأس صنتع
بأنه حاكى فيه كلمة حبيب : بحوافر .. وحفل بها ، واعتذر له ..
وخرج التخاريج الحسان فيه . وذكر ان الحافر الوأب والحافر
المقعب ونحوهما أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر — الا أن
الطائى عنده كان يطلب المعنى ، ولا يبالى باللفظ حتى لو تم له
المعنى بلفظة بظية لأتى بها . ذلك رأى ابن الرومى فى ابى تمام
ويعلق عليه ابن رشيق فيقول : « والذى اراه ان ابن الرومى أبصر
بحبيب وغيره منا » وهذا تواضع من صاحب الترجمة ، ولكنه تواضع
العلماء الذى لا يمنعهم من أن يبدو رأيهم حين يعتقدون
الرأى فاذا هو يقول بعد ذلك : « غير انى لو شئت ان أقول ،
ولست رادا عليه — يريد ابن الرومى — ولا معترضا بن يديه —
ان المعنى الذى أراده وأشار اليه من جهة الطائى انما هو معنى
الصنعة كالتطبيق والتجنييس وما أشبههما لامعنى الكلام الذى هو
وجهه وروحه ، وان اللفظ الذى ذكر انه لا يبالى به انما هو فصيح
الكلام ومستعمله ، ويدلك على صحة ما ادعيتة على ابن الرومى
أن الحافر الوأب والمقعب أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر » ثم

يُخْتَمُ اعْتِرَاضُهُ هَذَا وَتَفْسِيرُهُ ذَلِكَ بِأَحْسَنِ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ مَتَوَاضِعُ
جَمِيعِ التَّوَاضِعِ إِذْ يَقُولُ : «وَأَمَّا هَذَا مُعْرَضٌ لِلْكَلَامِ لَا مُخَالَفَةَ» .

وَيَكْشِفُ هَذَا التَّعْقِيبُ مِنْ ابْنِ رَشِيقٍ عَنْ شَخْصِيَّةٍ تَلْمِحُ إِدْقَ
الْفُرُوقِ فِي الاسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيِّ ، وَمَا يَكُونُ بَيْنَ عِبَارَةٍ وَعِبَارَةٍ مِنْ
التَّخَالَفِ فِي الْمَعْنَى لِلتَّخَالَفِ فِي اللَّفْظِ وَإِنْ بَدَأَ أَنَّ الْأَلْفَاظَ مُتَقَابِلَةٌ
أَوْ مُتَشَاكِلَةٌ — وَهَذِهِ هِيَ الْفُرُوقُ الَّتِي يَتِمَّازُ بِإِدْرَاكِهَا الْعُلَمَاءُ .
فَالرَّجُلُ يُوَضِّحُ لَنَا مَا بَيْنَ الْحَافِرِ الْإِحْفَرِ وَالْحَافِرِ الْوَأَبِ وَالْحَافِرِ
الْمُقْعَبِ ، كَمَا يَفْسِرُ الْمَعْنَى وَإِنْ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ فِي كَلِمَةِ ابْنِ الرَّومِيِّ
مَا يُقَابِلُ اللَّفْظَ ، وَأَمَّا الْمَعْنَى فِي الْعِبَارَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ هُوَ الْمُحْسِنَاتُ
الَّتِي كَانَ يَسْعَى لَهَا أَبُو تَمَامٍ وَيَرْكَبُ فِي سَبِيلِهَا كُلُّ مُرَكَّبٍ وَإِنْ
صَعِبَ . وَأَمَّا اللَّفْظُ فَيُرِيدُ بِهِ فَصِيحَةُ الْمُسْتَعْمَلِ .

وَهَكَذَا وَرَاءَ مَا يَكْتُبُ ابْنُ رَشِيقٍ عَقْلِيَّةً تَنْقُدُ فَتَفْسِرُ وَتَقْبَلُ
وَتَرُدُّ ، وَلَيْسَ مُجَرَّدُ حَاكٍ لآرَاءِ كَمَا زَعَمَ عَلَيْهِ بَعْضُ نَقَادَةِ الْمَعَاصِرِينَ

وَيَحَاوِلُ ابْنُ رَشِيقٍ بَعْدَ الَّذِي تَقْدَمُ لَهُ مِنْ حَدِيثِ الطَّبَعِ
وَالصَّنْعَةِ أَنْ يَوَازِنَ بَيْنَ الْمَذْهَبَيْنِ مِنْ حَيْثُ الْقِيَمَةُ الْفَنِيَّةُ ، وَهُوَ يَمِيلُ
إِلَى أَنَّ الْمَصْنُوعَ مِنَ الشَّعْرِ . إِدْخَلَ فِي الْفَنِيَّةِ شَرِيطَةً أَنْ يُصِيبَ
صَاحِبُهُ بِهِ الْمَجْزُ وَيُطَبِّقُ الْمَفْصَلَ ، وَشَرِيطَةً أَلَّا تَبْدُو عَلَيْهِ سِمَاتُ
التَّكْلُفِ أَوْ إِجْهَادِ النَّفْسِ ، وَهَاهُوَ ذَا يَقُولُ : «وَلَسْنَا نَدْفَعُ إِنْ الْبَيْتُ
إِذَا وَقَعَ مَطْبُوعًا فِي غَايَةِ الْجُودَةِ ثُمَّ وَقَعَ فِي مَعْنَاهُ بَيْتُ مَصْنُوعٍ

قوى نهاية الحسن ، لم تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه التعمل ، كان
المصنوع أفضلهما » (١) .

ويوصى ابن رشيقي من يميل الى التصنيع الا تستهويه الصنعة
فيستغرق فيها ، وانما عليه ان يجعل للطبع في شعره نصيبا «وسبيل
الحاذق بهذه الصناعة اذا غلب عليه حب التصنيع أن يترك للطبع
مجالا يتسع فيه » تعليل ذلك عنده ان الاستغراق في الصنعة
أكثر مما تدخل منه على الشاعر الغفلة والضعف ، ومجانبة الصواب
« وما يؤتى الشاعر من سوء المطالع وعدم ملاءمتها للمواقف في
أكثر الا من غفلة في الطبع وغلظ ، أو من استغراق في الصنعة
وشغل هاجس بالعمل يذهب معه حسن القول اين ذهب ، فالشاعر
حين يجرى وراء بديع يحققه ، أو جناس يأتي به في شعره ينسى
حق المعنى وما يتطلبه المقام .

ويذكر ان مما يدفع بالشاعر الى الصنعة ان ينصب قافية
بعينها للبيت من الشعر كأن تكون ثلاثة أو رابعة أو نحو ذلك
لا يعدو بها ذلك الموضع الا انحل عنه نظم أبياته »

وذلك عنده عيب شديد يجعل الشاعر محصورا على شيء واحد
بعينه ومضيقا عليه وداخلا تحت حكم القافية . وهو لا يجب للشاعر
ان يكون بتلك المنزلة لأنهم يقولون : ليكن الشعر تحت حكمك
ولا تكن أنت تحت حكمه » (٢) .

(٢) المدة ج ١ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(١) المدة ج ١ ص ١١١ .

ولابن رشيق مذهب في صناعة الشعر وتجويده وان ذلك يكون بحسب الحال التي يقال فيها الشعر فشعر يقوله الشاعر في خاص أموره وأحواله كالمدهح والغزل ومجالس الندمان والشراب والمجون وما هو من هذه المواضع بسبيل . وفي هذه ، لا على الشاعر أن يرسل القول ارسالا لا ينظر في اعطافه ولا يحاول فيه تصنيعا .

وشعر يقوله في الحفل يوم الجمع ، والعيون تنظر وتتشوف وفي هذا يجب له أن يتصنع لشعره ويعاود فيه النظر ، فيسقط الرديء ، ويثبت الجيد ، ويكون سمحا بالركيك منه ، مطرحا له ، راغبا عنه . فان بيتا جيدا يقاوم بألف رديء ..

ويجب ابن رشيق التصنيع الى الشعراء ويرغبهم فيه ويجرئهم عليه حين يذكر أن اميرهم امرأ القيس كان يتنخل من شعره وفي ذلك جاء قوله :

ازود القوافي على ذبادا ..

« فاذا كان اشعر الشعراء يصنع هذا ويحكيه عن نفسه فكيف ينبغي لغيره أن يصنع » . وكان ابو نواس يفعل مثل ذلك فينفي الدني ويبقى الجيد » (١) .

واذا كان هذا هو الشعر ، ومنه شعر الطبع ، ومنه شعر الصناعة فان رأيا غريبا نجده لصاحب كتاب الطبع والصناعة ، فانه يرى أن

(١) العمدة ج ١ ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

كل ما يصدر عن الشعراء لابد أن يكون مصنوعا اذ عنده « أن
الذى يرسل الحكمة ليرسل فى طيها أدب النفس ، أو الذى يريد
نحو ذلك مما ترجع فيه الثمرة الى حقائق الحياة وقضايا العلم
وضوابط الاجتماع لابد له ان يطلبه على الأغلب بالقصد السابق
والنية المبيتة ، ولا يكون تبسيت النية فى الشعر ، أو سبق القصد
اليه الا أن نأتى اليهما والى ما يراد بهما عن طريق الصناعة ، فليس
للطبع ما يؤهله للاغراض المبيتة بلبيل ، والمقاصد المطلوبة بعد سبق
الاصرار . » (١) .

وهذا باب من تفسير الطبع والصناعة غير الذى نحن فيه ، وغير
الذى اراده ابن رشيق فقد عنى بهما صاحب الترجمة تصنيع
الشعر وتحقيق الحلى الفنية فى خلاله ، أو اطلاقه منها — أما
الذى عناه من ينكر الصناعة على الشعر فشئ آخر يتصل بالتأهب
لقول الشعر أو قوله على غير أهبة ، وحتى هذا الذى يذهب اليه
هذا المفكر مردود ، فليس أحد ينكر ما للشعراء من الارتجال
والقول على البديهة فى كثير من المواقف والمشاهد — والكتب
حافلة بقصص ذلك — واسدال الشك عليها جميعا مناقض لأصول
البحث ، وكثير من الشعراء ، وكثير من الشعر جاء — وفيه فصل
القول — على البديهة ، وكم من بيت شرود لم يفكر فيه قائله ، وانما
ارسله عفو الخاطر ، ثم من هذا الذى قال ان على الشعراء ان يأتوا فى

(١) الطبع والصناعة ص ١٥ .

اشعارهم بحقائق الحياة ، وضوابط العلم ، وقضايا الاجتماع
حتى يبيتوا لها النية ، ويقدموا الاصرار ؟ وهذا هو البحث
يقول :

كلتمونا حدود منطقكم والشعر يعنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج با لمنطق ماأصله وما سببه
والشعر لمح تكفى اشارته وليس بالهذر طولت خطبه
ومنذ القديم قال ارسطو « والشاعر يصف الانباء كما هي
أو كما يجب ان تكون ولا ينتظر منه التدقيق العلمى - المطلوب
فى السياسة . واذا أخطأ الشاعر فى قوة التعبير فخطؤه فنى ، أما
اذا أخطأ لجهله مسألة طبيعية أو طيبة فلا لوم عليه لأن المطلوب
هو التعبير الفنى لا التدقيق العلمى » .

وكذلك ذهب صاحب « الفن ومذاهبه فى الشعر » الى أن
الشعر الجاهلى كله مصنوع متكلف أيضا وقال عنه انه « ليس
تعبيرا فنيا حرا ، بل هو تعبير فنى مقيد ، وليس تعبير الطبيعة
بل هو تعبير التكلف والصنعة » (١) وعمدته فى اصدار هذا
الرأى ان الشاعر كان يسعى جهده ليوفر فى شعره كثيرا من
القيم الصوتية والتصويرية ، وكان يلقي عناء شديدا فى هذا
التصور اذ نراه يتقيد بقيود كثيرة لاتقف عند الموسيقى والتصوير
بل تتعدى ذلك الى الموضوعات والألفاظ .

وردنا على هذا أيضا ان طبيعة الشعر ان تتوافر له القيم الصوتية والتصويرية ، ولا يكون الكلام شعرا من غير ان يتحقق له العنصران ؟ وكذلك الموضوعات والألفاظ ، اذ ماذا يكون الشعر ان لم يكن ألفاظا تدل على موضوعات ، بل ان الكلام المنشور ايضا لا يكون بغير الفاظ وموضوعات وتصاوير وقيم صوتية . ولكن الذى نحن بصددده هو التفرقة بين من يتصنع للكلام ويحاول ان يحقق فيه من الصور الفنية مايمكن ان يخلو منه كلامه ثم يبقى وهو شعر او يبقى وهو نثر - وعلى مستوى رفيع من الفنية ، ذلك هو الذى نعينه حين نتحدث عن الطبع والصنعة فى الشعر - وحين نقول ان الشعر الجاهلى تغلب عليه صفة الطبع فانما نعنى ان القصيدة منه على طول امتدادها قد تأتى وهى غسيلة من بديع أو جناس او طباق أو مشاكلة الى آخر ما هو معروف فى الاصطلاح باسم البديع ، بينما تأتى قصيدة أخرى لأبى تمام مثلا ، وقد ازدهمت بهذه الصور وأخذ بعضها بخناق بعض - ففى مثل ذلك لا يمكن ان نقول انها جاءت هكذا مزدحمة بالصور البديعية عن غير قصد كالقصيدة الجاهلية ، وانما نقول الأقرب الى الصواب ، والى منطق العقل أن القصيدة الجاهلية جاءت على السجية لم يحاول صاحبها ان يحقق فيها بديعا ، بينما قصيدة أبى تمام - ومن يشاكله - جاءت والشاعر قد أعنت نفسه وأرهقها حتى حقق فيها ما حقق من ألوان البديع وصوره . ذلك هو الذى نريده ، ولسنا نريد أن الشاعر الجاهلى لم يوفر « لشعره القيم الصوتية

والتصويرية « وحتى ما جاء فى الشعر الجاهلى من صور البديع
جاء بغير أن يقصدوا اليه أو يعملوا له ، أو يعتمدوه ، ولذا نراه
يسيرا فى شعرهم كالقبل أو كالخال اليسير فى الوجه الجميل
يزيده جمالا . فأين مثل هذا من شعر المتأخرين الذين أثقلوا
يزيده جمالا . فأين مثل هذا من شعر المتأخرين الذين أثقلوا
شعرهم بضروب الزينة اللفظية التى تكد خاطر وتشغل النفس
عما عساه أن يكون فى القصيدة من معنى بديع أو حكمة مستطرفة
الا أن ابن رشيق أبعد نظرا حين قسم الشعر والشعراء الى
مطبوع ومصنوع ، والى مطبوعين ومصنوعين .

٧ - أوزان الشعر

لم يكن لابن رشيق بذ - وهو يتحدث في كتابه عن الشعر - من أن يتناول الأوزان بباب ، لأن الوزن عنده اعظم أركان الشعر ، وأولاها به خصوصية ، ولما كان حديثه في الشعر انما هو ليمهد به الطريق امام الشعراء ، وكان يمكن ان يظن أن المعرفة بالأوزان تخلق من أى انسان شاعرا ، فقد بدأ حديثه فيها بقوله «والمطبوع مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان واسمائها وعللها لنبو ذوقه عن المزاحف منها والمستكره ، والضعيف الطبع محتاج الى معرفة شيء من ذلك يعينه على ما يحاوله من هذا الشأن .

ثم يذكر أن للناس في الأوزان كتب كثيرة مشهورة وبينهم في ذلك اختلاف ، وانه لن يتعرض لشيء من هذا . وانما سيأخذ نفسه في حديثه بمذهب الخليل لأنه أول من تعرض لهذا العلم وكشف عنه ووضع أصوله وقواعده دون غيره ممن ألف فيه بعده كالأخفش والزجاج .

ثم يمضى ابن رشيق بعد هذه المقدمة يتحدث عن أنواع من العلل والزحاف مما لا محل لذكره في هذه الترجمة وكنا ننتظر منه وقد جعل الوزن أهم اركان الشعر ان يعرفوا ولكنه مر بذلك دون وقفة عنده .

واتماما للفائدة نذكر ان الوزن هو ذلك التوقيع المنتظم الذى نلمسه فى كلمات البيت وموضوعه كما يقول ابن سينا : الأزمنة المتخللة بين النغم والنقرات ، أو هو نظام الحركات مراعى فيها التماثل والتكرار فى أجزاء البيت الواحد أولا ، ثم فى أبيات القصيدة جميعها ثانيا فصيغة فعولن مفاعلين بوزنها تتكرر اربع مرات فيكون من ذلك بيت على وزن نسميه بحسو الطويل ، ثم تتوالى الأبيات على ذلك فتكون القصيدة كلها على هذا البحر والوزن ، والاخلال بالوزن فى بيت منها اخلال بموسيقى الشعر التى ارتضاها العرب أصحاب اللغة وشعراؤها .

ولما كان الوزن هو تكرار الأصوات على هيئة بعينها ، وكانت الأصوات هنا ليست الاصوات المطلقة ولا الطبيعية — كالذى يصدر عن الموسيقى — وانما الأصوات المتحققة عن طريق الكلمات والمتلبسة بالألفاظ ذات الدلالة الخاصة ، لما كان ذلك كذلك كان من العسير تحقيق ذلك التكرار تحقيقا تاما منضبطا لا يتخلف بنقص أو زيادة لأن المعنى يتحكم فى الكلمة التى تحقق بدورها الوزن والصوت وعلى هذا تتبع العلماء ما عسى ان يكون من خروج على الوزن المنضبط فى صورته الكثيرة وأعنى بها البحور ، فى أوزانها التامة . سواء كان الخروج بزيادة صوت أو بنقص صوت ، وسواء كان بتحريك ساكن أو تسكين متحرك ، وبينوا من ذلك ما يجوز وما لا يجوز ، وما يلتزم فى جميع أبيات القصيدة لأنه يحقق جمالا وحسنا ، وما يرفض ويرد لما يترتب عليه من قبح الوقع

على الأذن ، وسموا علم ذلك كله علم الزحاف والعلل ، وقالوا فيه : تجرى على تفاعيل الميزان الشعري تغيرات كتسكين متحرك أو حذفه ، أو حذف ساكن أو زيادته ، أو حذف أكثر من حرف أو زيادته ، فهذا فى مجموعه هو مايشمله اسم الزحاف والعلل ! .
والذى تعرض له ابن رشيق ، ويستحق أن يذكر له أنه - وهو شاعر مرهف الحس - يناقش الوزن ، وهل المرجوع فيه الى الذوق أم الى العروض وقواعده ، وعند رجل كابن سنان الخفاجى وهو معاصره فى الشرق ، أن ماصح ذوقا وعروضا فهو مقبول ، وماصح عروضاً دون ذوق فهو مقبول كذلك لأن الذوق ينبو عن بعض الزحافات وهى جائزة فى العروض ، وماصح ذوقا دون عروض فهو مقبول أيضا لأن الذوق هو الأصل الذى عملت عليه العرب الأول (١) .

فأما اذا خرج الوزن عن الحس وعن أوزان العرب فليس بصحيح ولا جائز لأنه لا يرجع الى أمر يسوغه من ذوق أو عروض وهذه هى الأقسام كلها .

ولكن ابن رشيق لا يرضى عن ذلك وانما يرد الأمر كله الى الذوق وعبر عنه بكلمة الطبع ، فقال : « ولست أحمل أحدا على ارتكاب الزحاف الا ماخف منه وخفى ، وتكلف العمل بالعلم فى كل أمر أوفق الا فى الشعر خاصة فان عمله بالطبع دون العروض

(١) الفصاحة ص ٢٤٢ .

أجود لما فى العروض من المسامحة فى الزحاف وهو مما يهجن الشعر ويذهب برواقه .

وقيمة هذا رأى فى الدراسات المتصلة بالشعر أنه يفتح الباب أمام الأذواق التى ترضى غير ماورد عن العرب فى أشعارها وأوزانها ، وعلى هذا فكل وزن جديد يسيغه الذوق فللشعراء أن ينظموا فيه وان لم ينظم فيه الأسلاف من العرب .

على ان ابن رشيق اذ يبيح التجديد فى الأوزان يؤكد حتمية الجمال فيما يجدد الشعراء منها ، ولذلك نراه لايقبل كل ماهب ودب ، وانما يقبل ما يسيغه حسه المرفه ، وأذنه الموسيقية ومن ثم فهو يرفض ما اضرب من الشعر بكثرة الزحاف .

وتدعوه هذه الفكرة - فكرة تغليب الذوق على علم العروض - الى أن يدعو الى زحاف يأتى قليلا فى الشعر فيضفى على موسيقاه جمالا ، ويضرب له المثل بالجارية يكون فيها من القبل والفالج واللثة مايكسبها حسنا وظرفا وخفة روح .

ومع هذا فهو يوصى بأن يأخذ الشاعر نفسه بركوب مستعمل الاعاريض ووطئها ، وأن يستحلى الضروب ، ويختار ألقافها موقعا ، وأخفها مستمعا ، ويوصيه بأن يتجنب عويصها ومستكرها فان العويص مما يشغله ، ويمسك من عنانه ، ويوهن من قواه ، ويقت فى عضده ويخرجه عن معتقده » (١) .

(١) المدة ج ١ ص ١١٧ .

ويستقبح على أساس من ذلك قصيدة ابن الأبرص التي
أولها :

أقفر من أهله ملحوب فالقطيبات فالجنوب
لما كثر فيها الزحاف كثرة نبت بها عن أن تستسيغ الأذن وفعلها
ويقول : ان الزحاف الذي يقع على هذه الصورة من الكثرة يخل
بالوزن .

ثم يذكر ان من الزحاف قبيحا لا تقبل عليه النفس كقبح الخلق
واختلاف الاعضاء وسوء التركيب في الناس . وان لم يتعدد ،
ويسوق على هذا مثلا من الشعر ، أبياتا رواها المعري لامرئ
القيس ، وأجازها العروضيون ولكن الحسن ينبو عنها والطبع
ينفر منها ، قالوا : وهى أبيات من معلقته زاحفها البغداديون بزيادة
واو فى أولها ، ومنها قوله :

وكان ذرى رأس المجير غدوة كبير أناس فى بجاد مزمل
وقوله :

وكان ذرى رأس المجير غدوة شربن سلافا من رحيق مفلل
وقوله :

وكان السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنايش عنصل
فأنك ترى كيف ثقل وقع الأبيات على الأذن لما زيدت فى
أوائلها لئلا .

وأخيرا يذكر ابن رشيق أن علم العروض ليس بضروري
للمطوعين أن يعرفوه ، فالشعراء قالوا أحسن ما لهم قبل أن يأتي
الخليل بعروضه ، ولكن ضعف الطبع في صنعة الشعر بحاجة
الى معرفته أو معرفة شيء منه ، فان ذلك يعينهم على ما يحاولون
في هذا الشأن ، أما من لا طبع له ، وحرّم الموهبة ، ولم يكن
منها في قليل أو كثير فان علم العروض لا يجدى عليه شيئا .

وبالجملة فان ابن رشيق عالج الوزن كأحسن وانفع ما يكون
علاج هذا الباب ، وألم بأصوله في عمدته ، ووفاه حقه حتى ليغنى
عن الرجوع الى غيره من كتب ذلك العلم بحشوها وحشدها .

ويتعرض ابن رشيق بعد لما يسميه « الرخص في الشعر »
ويذكر أنه اذا كان الوزن والتزامه كثيرا ما يدفع بالشاعر الى مخالفة
اللغة في أصولها وقواعدها ، فان هذه المخالفة لا بد وان تكون
ذات حدود ، وليست كل مخالفة - في سبيل تحقيق الوزن
مستساغة ، وانما تقبل من ذلك أمور كمنع المصروف من الصرف ،
وصرف المنوع منه ووصل الف القطع .. وقبل من العسرب
أشياء وردت ولكنه منع المحدثين من الأخذ بها وعلل بأن العرب
جاؤوا بما جاؤوا عن جبلة وفطرة ، « فاما المولد المحدث فقد عرف
أنه عيب ودخوله في العيب يلزمه اياه .

٨ - انشاد الشعر

تنطق آثار العرب فى شعرهم بأنهم تغنوا به فى أسفارهم وفى مجامعهم ومجالسهم ، وربما كانوا بذلك يستعينون على مغالبة الحياة البدوية بشطفها وييسها وعسرها ، أو انهم كانوا يتخففون بالتغنى من همومهم ، فان الغناء مما يعين على ذلك بما يؤخر من احساس الفرد بالجهد او بالهم زمانا ، وبما يصرف السامع عن اجترار أحزانه ومتاعبه وهمومه . وكأنى بالشاعر العربى عنى هذه الحقيقة لما قال

فان امس مكروبا فيارب قينة منعمة أعملتها بكران
لها مظهر يعالو الخميس بصوته أجش اذا ماحركته يدان
واذا كان الشعر وعاءه الصوت - والعرب أمة تنشد أكثر مما تكتب ، فلا غرابة اذا نحن رأينا ابن رشيق يعقد لانشاد الشعر بابا .

ان العربى كان يرى سوء الاداء عيبا وسقم التعبير منقصة ، وهذا ابو عطاء السندى يدرك عدم القدرة على الالتقاء الجميل للشعر فيطلب من سليمان بن كيسان الكلبى ان يوافيه بعلام يجيد الالتقاء وذلك فى ابياته التى يقول فيها :

أعوزتني الرواه يابن سليم
فغلا بالذي يجمع صدرى
فضربت الأمور ظهرا لبطن
وتمنيت اننى كنت بالشعر
فاكفى ما يضيق عنه رواتى
يفهم الناس ما أقول من الشـ
وأبى أن يقيم شعرى لسانى
وشكأنى لعجمتى شيطانى
كيف احتمال حيلة للسانى
فصيحا وبان بعض بنانى
بفصيح من صالح العلمانى
عرفان البيان قد اعيانى

ولكيلا يتأثر حسن الجرس فى شعر زياد الأعجم بسوء
تعبيره ونطقه يهدى اليه المهلب غلاما يجيد الالتقاء عنه « (١) .
أقول ادرك صاحبنا قيمة الأداء والانشاد فى الشعر فعقد
بابا لذلك قال فيه :

« ليس بين العرب اختلاف اذا أرادوا الترنم ومد الصوت
فى الغناء والحداء فى اتباع القافية المطلقة مثلها من حروف المد
واللين فى حال الرفع والنصب والخفض ، كانت - القافية - مما
ينون أولا ينون فاذا لم يقصدوا ذلك اختلفوا فمنهم من يصنع
فى حال الغناء والترنم ليفصل بين الشعر والكلام المنشور وهم
أهل الحجاز ، ومنهم من لايفصل وانما ينون ماينون ومالا ينون
فاذا وصل الانشاد أتى بنون خفيفة مكان الوصل فجعل ذلك
فصلا بين كل بيتين فينشد قول الناعمة

بادارمية بالعلياء فالسند

(١) العربية لسر هاندك .

مثنونا الى آخر القصيدة ، لايبالى بما فيه الف ولام ، ولا مضاف
ولا بفعل ماضى ولا مستقبل ، وهم ناس كثير من بنى تميم .
وما يزال يتحدث عن طرائقهم فى الاشهاد وتصرفهم بالألفاظ
والقوافى بالزيادة والمد ، وتغيير الحركة ، ويرى انه مما يدخل
فى شفاعه هذا الباب الغناء والحداء والتغسير ويذكر قول
الشاعر :

تغن بالشعر أما كنت قائله ان الغناء لهذا الشعر مضار
وقول ذا الرمة :

احب المكان القفر من أجل انى به اتغنى باسمها غير معجم
ثم يذكر ان غناء العرب قديما كان على ثلاثة أوجه : النصب
والسناد والهزج ، فأما النصب فغناء الركبان والفتيان ، وهو
الذى سماه اسحق بن ابراهيم الموصلى : المرائى وهو الغناء
الجنابى .

وأما السناد فالثقل ذو الترجيع ، الكثير النغمات والنبرات
وهو على ست طرائق .

وأما الهزج فالخفيف الذى يرقص عليه ويشى بالدق والمزمار
فيطرب ويستخف الحليم ثم يحكى ابن رشيق ان اسحاقا قال :
اكان هذا غناء العرب حتى جاء الله بالاسلام وفتحت العراق
وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم فغنوا الغناء المجرء المؤلف
بالفارسية والرومية وغنوا جميعا بالعيدان والطناير .

ولو أن العرب كانت قد عرفت التسجيل الصوتى — على النحو الذى نعرفه اليوم — لكانت لهذا الباب الذى عقده ابن رشيق قيمته ومع ذلك فستظل هذه الكلمات الموجزة فى الغناء وانشاد الشعر لابن رشيق من بين المراجع التى يرجع اليها عند دراسة العرب والغناء .

وهكذا يكون ابن رشيق الذى تحدث عن الأوزان — وهى الجانب النظرى فى دراسة موسيقى الشعر — قد حاول ان يضع شيئاً يعين على استجلاء الجانب العملى فى هذه الموسيقى . وحسبه هذا محاولة طيبة فى التعريف بخصائص العرب فى القائها وانشادها وغنائها .

انه خرج بهذا على كثير من تقاليد العروضيين من الاكتفاء بالدراسات النظرية الجامدة التى تجعل من عروضهم علماً يستعصى على الكثيرين . أما هو فقد قرب الباب الى هواة الموسيقى ودارسيها .

٩- القدماء والمحدثون

تدفع الرغبة فى الاستئثار بالفضل والمزية أهل كل صناعة الى ان يثيروا قضية القديم والمحدث ، وكل انسان فى هذه الحياة قديم محدث ، فهو قديم بالنسبة الى أخلافه وحديث بالنسبة الى أسلافه . ومن هنا تأتى أحاديث القدم والحداثة .

والشعراء ناس قبل كل شئ ، ومن ثم لم يكونوا بمنجاة من أن ينظروا النظرة ذاتها وهؤلاء هم الجاهليون - وهم فيما نرى أقدم طبقات شعراء العربية - كانوا ايضا ينظرون الى أنفسهم على أنهم محدثون فى عصرهم فزهير يقول :

ما أرانا نقول الا معارا ومعادا من من قولنا مكرورا
وعنترة يقول :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعدتوهم
وامرؤ القيس يقول :

عوجاء على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خدام
وهكذا كانوا يرون أنه قد ذهب الذين قبلهم بالكلام ، وبما عليهم هم الا أن يقولوا كما قالوا ، أو يقولوا الذى قالوا .

ثم كان النقد بعد ، فأرادوا أن يعرفوا جهود كل طبقة وأهل عصر فاذا هم يجعلون من الشعراء قدماء ومحدثين .
 فلما جاء ابن رشيق لم يكن له بد هو الآخر من أن يقول
 « قدماء ومحدثون » وقد راعه ان من النقد من يرد الفضل كله
 للأول ، ولا ينسب للمتأخر الا مانزر ، وكأن القدم يضفى على
 أهله روعة وجلالا يتخرج الناس معهما من أن يقولوا قولة الحق
 دائما .

وفى مجال الشعر يقول صاحبنا « كل قديم من الشعر فهو
 محدث فى زمانه بالاضافة الى من كان قبله » ويحكى ان ابا عمرو
 بن العلاء كان يرى جريرا والفرزق مولدين وكان يقول
 يقصدهما :

لقد أحسن هذا المولد حتى هممت ان آمر صبياننا بروايته —
 وانما كانا مولدين بالنسبة الى شعراء الجاهلية والمخضرمين . وكان
 ابو عمرو لا يرى الشعر الا ما كان للمتقدمين .

اما هو فمثل القدماء والمحدثين عنده كمثل رجلين ابتداء هذا
 بناء فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة
 على هذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن . (١).
 على أنه يعلل لتقديم بعض النقد للمتقدمين على المحدثين
 وأن ذلك انما كان « لحاجتهم فى الشعر الى الشاهد وقلة ثقتهم
 فيما يأتى به المولدون » « ثم صارت لاجابة » .

(١) المدة ج ١ ص ٧٤ .

وما ذهب اليه ابن رشيقي صحيح في جملة ، فأكثر السديين
فضلوا القديم على الحديث كانوا من المشتغلين بالدراسات اللغوية
المتصلة باللغة في نحوها وصرفها ومنتها كأبي عمرو والأصمعي
واضرابهما . فأما أصحاب الذوق والحس الفني من نقدة الكلام
كأبن قتيبة وضرابه فلم يذهبوا مذهب أولئك وإنما سلكوا طريقا
هى أقرب للمعدلة اذ لم يتحيفوا شاعرا لتأخر زمانه به ، ولم يفضلوا
شاعرا لتقدمه .

وعلى هذا يكون ابن رشيقي قد اعطى كلا حقه ، ووضع حيث
يضعه شعره لا عصره . ويعجبه فصل كتبه شيخه عبد الكريم
ابن ابراهيم النهشلي يقول فيه (قد تختلف المقامات والأزمنة
والبلاد فيحسن في وقت مالا يحسن في آخر ، ويستحسن عند
أهل بلد مالا يستحسن عند أهل غيره ونجد الشعراء الحذاق
تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد
ألا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال ، وجودة الصنعة ،
وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا في غيره كاستعمال
أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في اشعارهم ونوادير حكاياتهم
— قال — والذي اختاره انا التجويد والتحسين الذي يختاره
علماء الناس بالشعر ، ويبقى غابره على الدهر ، ويأعد عن الوحشى
المستكره . ويرتفع عن المولد المتحل ويتضمن المثل السائر
والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة » .

وانما اعجب ابن رشيق بكلام شيخه هذا لأنه كلام يقوم على الموضوعية في نقد الشعر فهو لم يفضل شعرا لقائله ، ولا لزمانه ، وانما لما جاء عليه من بعد عن الوحشى المستكره ، وارتفاع عن المولد المنتحل مع ما يتضمن من المثل السائر والتشبيه المصيب ، والاستعارة الحسنة . ولهذا فانه يقول : وأنا أرجو أن أكون باختيار هذا الفصل واثباته هنا داخلا في جملة المميزين ان شاء الله فليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من الناس دون طائفة ، لا يخرج من بلده ، ولا ينصرف من مكانه كالذى لفظه سائر في كل أرض معروف بكل مكان .

ومع هذا فان ابن رشيق لا يمتنع من أن يجعل الشعراء اربع طبقات : جاهلى قديم ، ومخضرم ، واسلامى ، ومحدث ، ثم صار المحدثون طبقات اولى وثانية على التدرج وهكذا فى الهبوط .

ونلح من خلال ذلك ميلا الى تأخر الشاعر بالزمان ، واذا صح ذلك يكون ابن رشيق قد نسخ مذهبه ، ولكننا حين نمعن النظر نرى ان مساق هذا التقسيم جاء ليحمل المحدثين على الوقوف على شعر المتقدمين ليفيدوا منه فان المحدث « اذا رأى أنه ساقية الساقية — من حيث الزمان — تحفظ على نفسه ، وعلم من أين يؤتى ، ولم تغرره حلاوة لفظه ، ولا رشاقة معناه ، ففى الجاهلية والاسلام من ذهب بكل حلاوة ورشاقة وسبق الى كل طلاوة ولباقة » (١) .

وابن رشيق بعد شاعر متحرر ، لا يرى عيبا في أن يخرج
الآخر عن الأول والمحدث على القديم حتى يلائم بينه وبين بيئته
وعصره ، وهذه دعوة تكشف من صاحبنا عن فكر لا يتشبث
بالقديم لأنه قديم ، وانما يرى مشاكلة الزمان أجود من التعلق
بأهداب الماضي مهما يكن ذلك الماضي ، وفي هذا يقول « ...وقد
بينت أن طريق العرب القدماء قد خولفت الى ما هو اليق بالوقت
وأشكل بأهله » وذلك بعدما انتقد بيتي ابي عون الكاتب :

تلاعبها كف المزاج محبة
لها وليجري ذات بينهما الأنس
فتزيد من تيه عليها كأنها
غريرة خدر قد تخطها المس

وقال فيهما : فلو أن في هذا كل بديع لكان مقيتا بشعا ، فمن
ذا يطيب له أن يشرب شيئا يشبه بزبد المصروع ، قد تخطه
الشیطان من المس . « (١) .

بل انه يذهب الى ان للمحدثين من المعاني والصور ما ليس
للمتقدمين وينقل فضلا طويلا عن أبي الفتح عثمان بن جني
يتحدث فيه عن أولئك المتأخرين ، وانهم اتسعت بهم الأرض
واتشروا بالاسلام في أقطارها فمصروا الأمصار وحضروا
الحواضر وتأنقوا في المطاعم والملابس ، وعرفوا بالعيان عاقبة

(١) المدة ج ١ ص ٢٧٠ .

مادلتهم عليه بداهة العقول .. ثم يقول ابن رشيق : والذي ذكره ابو الفتح صحيح بين ... ويذكر نماذج من تشايبه أولئك المولدين كابن المعتز وابن الرومي وغيرهما . ومخافة أن يظن به الجور على المتقدمين من الشعراء العرب يقول « ولم أدل بهذا البسط كله على أن العرب - وهم القدامى - خلت من المعاني بجملة ، ولا أنها افسدتها لكن دلت على أنها قليلة في أشعارهم تكاد تحصر لو حاول ذلك محاول ، وهي كثيرة في اشعار هؤلاء وإن كان الأولون قد نهجوا الطريق ونصبوا الأعلام للمتأخرين » (١)

وهكذا ينصف ابن رشيق أولئك وهؤلاء بغض النظر عن الزمان أو القدم أو الحداثة .

وينصف ابن رشيق حين لا يكلف المحدثين أن يأتوا بمثل ما أتى به المقدمون من أوصاف ومعان لأنه يعلم ان لكل بيئة صورها وأفكارها ومعانيها فيقول : « وأطرح عن المحدث المولد ما كان من جنس تشبيه النعامة للطرماح وصفة الثور الوحشي له أيضا ، وصفة مغارز ريش النعامة اذا أمرط للشماع ومثل بيت العنكبوت فيما يستد من لغام الناقة تحت لحيها في شعر الحطينة ، وتشبيه الذباب بالأجذم ، ولحيى الغراب بالجلم لعنترة ، واشباه هذا مما انفردت به الاعراب والبادية كعاداتها ، كانفرادها بصفات النيران ، والفلوات الموحشة ، وورود مياهاها الآجلة ، وتعسف

طرقاتها المجهولة ، الى غير ذلك مما لا يعرف الا عيانا اذا كانا
المحدث غير مأخوذ به ولا محمول عليه » (١)

وينصفهم أيضا حين يقول : على أنهم شاركوا القدماء في كل
ما ذكرته أيضا الا أن أولئك أولى به ، وحق بالتقدمة فيه كما
خالطوهم في صفات النجوم ومواقعها والسحب وما فيها من
البروق والرعود والغيث وما ينبت عنه وبكاء الحمام وكثير مما
لا يتسع له هذا الباب » (٢) .

ثم يحكى بعد ذلك كثيرا مما انفرد به المحدثون من مثل قول
إشعار :

يا قوم اذنى لبعض الحى عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا : بمن لا ترى تهذى ؟ فقلت لهم
الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
وقوله فى المعنى ذاته :

قالت عقيل بن كعب اذ تعلقها
قلبي وأمسى به من جهها أثر
أنى ، ولم ترها ، تهذى ؟ فقلت لهم
ان الفؤاد يرى ما لا يبصر البصر

(١) العمدة ج ٢ ص ٢٢٨

(٢) العمدة ج ٢ ص ٢٢٩

وقوله :

وكيف تناسى من كان حديثه
بأذنى - وان غيت - قرط معلق

وقول أبى نواس :

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المنام الا شميما
أفالننى بالملام فيها امام لا أرى لى خلافة مستقيما
قاصر فاها الى سواى فانى لست الا على الحديث نديما
أكبر حظى منها اذا هى دارت أن أراها أو أن اشم النسيما
فكأنى وما ازين منها قعدى يزين التحكيما
أكل عن حمله السلاح الى الحرب فأوصى المطيق ألا يقيما

وينتخم اختياره بأبيات من شعر ابن الرومى يقول فيها : ولم
أسمع احسن منها فى معناها - وهى :

وما يعترىها آفة بشرية
من النوم الا أنها تتبختر
وغير عجب طيب انفاس روضة
منسورة باتت تراح وتمطر
كذلك أنفاس الرياح بسحرة
تطيب ، وأنفاس الورى تنغير
وهكذا لا يضر المتأخر تأخره اذا أجاد ، كما لا ينفع المتقدم
لقدمه اذا هو أساء .

وهكذا أيضا رأينا ابن رشيق في قضية القدماء والمحدثين وهو
بحر الرأي لا تستعبده العبارة لغيره ، ولا يمشى في ركاب سواء ،
الا أن يؤمن بصحته وسلامته ولذلك نراه في مطالع القصائد
لا يذهب فيها الا مذهبا يرتضيه هو ، وذلك حيث يقول: وللشعراء
مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب ،
واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل الى
اللهو والنساء ، وان ذلك استدراج الى ما بعده ، — ثم يقول —
ومقاصد الناس تختلف فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال ،
وتوقع البين ، والاشفاق منه ، وصفة الطلول والحمول والتشوق
بحنين الابل ، ولمع البرق ، ومر النسيم وذكر المياه التي يلتقون
عليها والرياض التي يحلون بها وما فيها من خزامى وأقحوان ، وبهار
وحنوه وظيان وعرار ، وما أشبهها من زهر البرية الذي تعرفه
العرب ، وتنبته الصحارى والجبال ، وما يلوح لهم من النيران
في الناحية التي بها أحبابهم ولا يعدون النساء اذا تغزلوا او نسبوا ،
فان وقع منهم مثل قول طرفة .

وفى الحى أحوى ينفض المرد شادن

مظاهر سسطنى لؤلؤ وزبرجد

فانما هو كناية بالغزل عن المرأة .

وأهل الحاضرة يأتى أكثر تغزلهم في ذكر الصدود والهجران
والواشين والرقباء ومنعة الحراس والأبواب وفى ذكر الشراب
والندامى والورد والنسرين والنيلوفر وما شاكل ذلك من النواوين

البلدية ، والرياحين البستانية ، وفي تشبيه التفاح والتحية به
ودرس الكتب وما شاكل ذلك مما هم به منفردون وقد ذكروا
الغلمان تصرّيحاً .. كما يذكر أحدهم الأبل ويصف المفاوز على
العادة ولعله لم يركب جملاً قط « ... وهكذا يلمح ابن رشيق
أثر المكان في البادية والحاضرة كما يذكر أثر الزمان في القدماء
والمحدثين .



١٧- السرققات

والحديث فيها وثيق الصلة بحديث النقد الذي انعقد له في الجملة كتاب العمدة لصاحب الترجمة ، ذلك ان الحديث في السرققات ان هو الا حديث في المعاني والصور وتناقلها بين الشعراء شعراء على احسان وزيادة أو على اساءة ونقصان .

والنقاد نظروا في انتاج الشعراء من حيث الابداع والابتكار والأولية ثم من حيث التقليد والتوليد والأخذ والتبعية ، واتتهى بهم النظر الى أن هناك من الشعر ما قيل على غير مثال او احتذاء ، وضربوا لذلك المثل بكثير مما قال امرؤ القيس من مثل قوله :

سموت اليها بعدما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

وقوله :

ويضة خدر لا ريام خازها
تمتعت من لهوبها غير معجل
تجاوزت احراسا اليها ومعشرا
على حراسا لو يسرون مقتلى

تصد وتبدي عن أسيل وتتنقى
بناظرة من وحش وجرة مطفل

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها
ثوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

الى أمثال ذلك حتى قالوا « انه أول من طرق هذه المعاني
وابتكرها وسلمها له الشعراء فلم ينازعه احد اياها . »

فلما كان ابن رشيق لم يسهه الا أن يخوض في الذى خاضوا
فيه فكتب فى عمدته فصلا طويلا تحدث فيه عن السرقات وانواعها
كما كتب كتابه الصغير او رسالته المسماة بقراضة الذهب فى نقد
أشعار العرب ، وقد كان صادق الحس النقدى حين قرر أن
الحديث فى السرقات باب متسع جدا لأن أحدا من الشعراء
« لا يقدر أن يدعى السلامة منها ، وفيها أشياء غامضة الا على
البصير الحاذق بالصناعة »

وهو قد قسم الشعر الى مخترع وهو مالم يسبق اليه قائله
ومنه أبيات امرئ القيس المتقدمة ومولد وهو أن يستخرج
الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد فيه زيادة ، ومثل
هذا ليس اختراعا لما فيه من الاقتداء بالغير ، وضرب له المثل بقول
عمر بن أبى ربيعة :

فاسقط علينا كسقوط الندى

ليسلة لانا ولا زاجر

قال : فانه ولد معنى مليحا اقتدى فيه بقول الضليل :

سموت اليها بعد ما نام أهلها

سمو حباب الماء حالا على حال

من غير أن يشركه في شيء من لفظه ، أو ينحو نحوه الا في
المحصول ، وهو لطف الوصول الى حاجته في خفية .

واما التوليد بزيادة فثله قول عدى ابن الرقاع :

تزجى أغن كأن ابرة روقسه

قلم أصاب من الدواة مدادها

فانه أخذه من قول جرير :

يخرجن من مستطير النقع دامية

كأن آذانها أطراف أقلام

يقول ابن رشيق : فان عديا ولد بعد ذكر القلم اصابتها مداد
الدواة بما يقتضيه المعنى اذ كان القرن أسود .

ومنه أيضا قول نصيب لمولاه عمر بن عبد العزيز :

فأنت رأس قریش وأنت سيدها

والرأس فيه يكون السمع والبصر

فانه مأخوذ من قول أمية بن الصلت يمدح عبدالله بن جدعان :

لكل قبيلة شيخ و صلب

وأنت الرأس أول كل هاد

وفرق ابن رشيق بين السرقة والتوليد بأن التوليد خير أن كان فيه اقتداء الا أن الشاعر فيه ليس آخذا قول السابق على وجهه ، وانما يأخذ الفكرة ثم يصوغها صباغة جديدة اويزيد فيها، لكن هذه التفرقة ليست بذات بال لأن عبد الكريم النهشلى وهو شيخ ابن رشيق يقول « السرقة فى الشعر ما نقل معناه دون لفظه، وأبعد فى أخذه . وعلى هذا فتفرقة صاحبنا فى غير موضعها .

وللعلماء فى ذلك آراء كثيرة يحكيها ابن رشيق فى الباب المعقود لهذا فيذكر منها أنواعا كثيرة ، فالسلخ ، والاصطراف ، والالمام ، والموارده ، والاختلاس ، والاجتذاب ، والاستلحاق ، والاجتلاب ، والانتحال ، والغصب ... الى آخر الأقسام التى يعددها ويستشهد لها فيما يزيد على خمس عشرة صفحة والذي يعيننا أن منهجه فى الباب منهج المقتن الذى يضع الحدود والتعاريف لكل قسم ثم يستشهد له كأن يقول :

وأما المرافدة فأن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له كما قال جرير لذى الرمة :

أنشدنى ما قلت لهشام المرئى فأنشده قصيدته :

نبت عيناك عن طلل بحزوى محته الريح وامتنح القطارا

فقال له : ألا أعينك ؟ قال ذو الرمة : بلى بأبى وأمى ، قال :

قل له :

بعد الناسبون الى تميم بيوت المجد أربعة كبارا

يعدون الرباب وآل سعد وعمرأ ثم حنظلة الخيارا
ويهلك بينها المرئى لغوا كما ألفت في الدية الحوارا
فلقيه الفرزدق فاستنشهده ، فلما بلغ هذه قال : جيد ، أعده
فأعاد ، فقال : كلا والله ، لقد علكهن من هو أشد لحين منك .
هذا شعر ابن المراغة .

يقول ابن رشيقي : وأما النظر والملاحظة فمثل قول مهلهل :
انبضوا معجس القسي وابرقنا كما توعده الفحول الفحولا
نظر اليه زهير بقوله : -

يطعنهم ما ارتموا حتى اذا أطعنوا
ضارب حتى اذا ما ضاربوا اعتنقا

وأبو ذؤيب بقوله :

ضروب لهامات الرجال بسيفه اذا حن نبع بينهم وشريح
وهكذا الى أن يقول : وكانوا يقضون في السرقات ان
الشاعرين اذا ركبا معنى كان أولاهما به أقدمهما موتا ، وأعلاهما
سنا ؛ فان جمعهما عصر واحد كان ملحقا بأولاهما بالاحسان ،
وان كانا في مرتبة واحدة روى لهما جميعا - يقول - وانما هذا
فيما سوى المختص الذي حازه قائله ، واقتطعه صاحبه ، ألا ترى
أن الأعشى سبق الى قوله :

وفي كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيز عزاك
مورثه مجدا وفي الأصل رفعة لما ضاع فيها من قروء نساك

فأخذه النابغة وقال :

شعب العلافيات بين فروجهم والمحصنات عواذب الأطهار
قال : وييت النابغة خير من بيت الأعشى باختصاره ، وبما فيه
من المناسبة بذكر الشعب بين الفروج ، وذكره النساء بعد ذلك ،
وأخذه الناس من بعده فلم يغلبه على معناه أحد ، ولا شاركه
فيه ، بل جعل مقتديا تابعا وان كان مقدما عليه في حياته وسابقا
له بمماته .

وهكذا يمضى ابن رشيق فى الباب الى أن يقول : وفى أقل
مما جئت به كفاية .

أما تناوله للموضوع فى رسالته قراضة الذهب فيرجع الى
أنه هو كان قد رثى الأمير أبا منصور بقوله :

الم ترهم كيف استقلوا ضحى	الى كنف من رحمة الله واسع
امام خميس ماج فى البر بحره	يسير كمتن اللجة المتدافع
ذا ضربت فيه الطبول تتابعت	به عذب يحكى ارتعاد الأصابع
نجاوب نوح بات يندب شجوه	وأيدى ثكالى فوجئت بالقواجع

وأن أبا الحسن على ابن القاسم اللواتى كان قد استحسن
معنى البيتين الأخيرين ، وأن بعض من لاخلق له فى الأدب ،
ولا معرفة له بحقائق الكلام عارض فيهما بالطعن ، ونازعه معناه
بالجهل ، وادعى عليهما ضربا من السرقة ، ونوعا من الأخذ ، فعز
ذلك على ابن رشيق ، وكبر عليه أن يتهم فى شعره بالأخذ من

غيره ، فكتب الرسالة يفسر بها متى يكون الشاعر سارقا ، وقال
ان المعنى المأخوذ - على ما يزعم المعارض - انما هو قول
عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي يصف ما يحدث عند اندفاع
الجدول في الماء من تلك الرغوة والنفخات :

قد صاغ فيه الغمام أدمعه درا ورواه جدول غمر
تجيش فيه كأنما رعشت اليك منه أنامل عشر
ثم يقول : فان كان المعارض أراد ذكر هذا الارتعاد
والارتعاش ، وذكر الأصابع والأنامل فصدق ، الا أن هذا لا يعد
سرقة في السرقة لعل شتى منها أن القصد غير واحد . . ولو أن
هذا الناقد كان بصيرا ، لنظر نظر تحقيق ، وتأمل تأمل رفيق ،
فعرف بعد ما بين المقصدين على قرب ما بين اللفظين ، ولم يكن
لذلك عنده محظورا لأن عبد الله بن المعتز يقول في صفة جدول :
كفيل لأشجارها بالحياة اذا ما جرى خلته يرتعش
وليس لفظة الارتعاش من خاص البديع .

ذلك سبب تأليف الرسالة ، وان موضوعها كان السرقة في
الشعر . وعلى هذا يمضى ابن رشيق فيذكر : « انه لو عد مثل
هذا سرقة لم يسلم شيء من الكلام » كيف وهو كثير باللفظ وغير
اللفظ ! ثم يأخذ في سوق نماذج منه تشهد بأن المعنى اذا كثر
واشتهر ، وتصرف الناس فيه هذا التصرف لم يسم آخذه سارقا ؛
لأن المعنى يكون قليلا فيحصر ، ويدعى صاحبه مبتدعا ، وآخذه

سارقاً ، فاذا شاع وتداولته الألسن بعضها من بعض تساوى قية الشعراء الا المجيد ، فان له فضله ، أو المقصر فان عليه درك تقصيره الا أن يزيد فيه شاعر زيادة بارعة مستحسنة ، يستوجه بها ويستحقه على مبتدعه ومخترعه » .

ثم يذكر ابن رشيق ان السرقة انما تكون في البديع النادر والخارج من العادة ، وذلك في العبارات التي هي الألفاظ كقول أبي عبادة البحتري يصف سيفاً :

حملت حمائله القديمة بقله من عهد عاد غضة لم تذبل
فقد قال ابن المعتز متبعاً له وأخذاً منه :

ويهزون كل أخضر كالبقلة ماض على القلوب رسوب (١)
— وكذا — وعنده أن ما كان الناس فيه شرعاً واحداً من « مستعم اللفظ الجارى على عادتهم وعلى ألسنتهم ، وكذلك ما كانا من المعانى الظاهرة المعتادة فانها معرضة للافهام متسلطة على فكر الأنام .

ثم يمضى يذكر أنه يأتى على ذلك كله في الرسالة وأنه يقتصر في أكثر الذى يورده على امرئ القيس لأنه المقدم لا محالة وان وقع في ذلك بعض الخلاف .

ويأخذ ابن رشيق يسوق من مختاره لامرئ القيس
ثم يذكر الذين أخذوا منه ، ويشير الى ما بينه وبينهم على

سبقه وتأخرهم : كأن يقول : وقال - امرؤ القيس - يذكر فرسا
طُرد عليها الوحش :

ذعرت بها سربا نقيًا جلوده واكرعه وشى البرود من الخال
كان الصوار اذا تجاهدن عدوة على جمزى خيل تجول بأجلال
أخذه ذو الرمة وهو أحد المشبهين ، وثاني امرئ القيس في
التشبيه ، فقال :

وموشية سحم الصياصي كأنها مجللة حق عليها البراقع
حزونية الأنساب أو أعوجية عليها من القهز الملاء النواصع
تكشفن منها عن خدود وشمرت أسافلها من حيث بان الأكارع
فجاء به كما ترى في ثلاثة أبيات .

وعلى هذا النحو من العرض يمضى ابن رشيق دالا بكثرة
ما يسوق من الأمثلة والشواهد على سعة الرواية ووفرة المحفوظ ،
وبما يبدى من الرأى فى كل الذى يعرض على ثقافة بصر ، ومعرفة
بمنازع الكلم وما أخذه . وفضل بعضه على بعض كأن يروى قول
امرئ القيس يصف حلى امرأة :

كأن على لبساتها جمر مصطل أصاب غصنا جزلا وكف بأجزال
فيشرحه على نحو لا يدع لشارح بعده مكانا فيقول : « ذكر
الجمر ثم شبه به الحلى ، ثم ما كفاه الى أن جعله جمر غضا ،

وهو أبقي ، ثم جعله جزلا ليكون أشد لوقوده وأعظم لنوره ،
وان كان أراد به الكثرة ، من قولهم : عطاء جزل ، فقد جعله
مختاراً لأن من وجد شيئاً كثيراً اختار أفضله ، ثم جعله مكفوفاً
بالأجزال زيادة في المبالغة ، وقوله جمر غصا مصطل لأنه يقلب
الجمر فتظهر حمرة ، وهذا نهاية لا يتناوله أحد على هذه الصفة
الا افتضح . وقد أخذته النابغة فقال :

يضيء الحلى في اللبات منها كمثل الجمر بدد في الظلام
يقول : فأجاد الا أنه دون امرئ القيس لما في مبالغته من
اللبس .

ذلك نموذج من صنيع ابن رشيق في الرسالة .

ويحسن ابن رشيق تفسير الظواهر الأدبية كأن يقول : وأقل
من الاتفاق في قسيم ، الاتفاق في البيت بأسره ، وسبيله سبيل
القديم فيما تقدم من الاعتذار عنه وان كان أبعد ، غير أن أبا عمرو
ابن العلاء سئل عن بيتي امرئ القيس وطرفة — يريد قول الأول :
وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسمى وتكمل
وقول الثاني :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسمى وتجلده
فقال : عقول رجال توافت على ألسنتها .

يقول ابن رشيق : وكان هذا كثيراً ما يعرض للفرزدق ، أما
نسياناً وأما تغليبا ، لأنه كان راوية للشعر ، مكثراً منه ، قاهراً

لشعراء عصره ، مهيبا فيهم ، ولم يكن أحدهم يرميه بالعجز
والتقصير فينسب ما يأخذه الى السرقة ، لأنه ما تعاطى شيئا يفوته
عمل مثله ، الا أن جريرا كان يرميه بالسرقة والاجتلاب ، والاجتلاب
أن يرى الشاعر بيتا يصلح لموضع من شعره فيجتلبه . وقد فعل
ذلك جرير في بيتي المملوط السعدى :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا
نمضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا
ولا بن رشيق فى مثل ذلك رأى لا يصدر الا عن مثله ممن
قال الشعر وخبر صنعته ، وذلك اذ يقول : « والذى أعتقده
وأذهب اليه أنه لم يخف على حاذق بالصنعة أن الصانع اذا صنع
شعرا ما ، وقافية ما لمن قبله ، وكان من الشعراء شعر فى ذلك
الوزن وذلك الروى ، وأراد المتأخر معنى به فأخذ فى نظمه أن
الوزن يحضره ، والقافية تضطره وسياق الألفاظ يحدوه حتى
يورد نفس كلام الأول ومعناه ، حتى كأنه سمعه وقصد سرقة ،
وان لم يكن سمعه قط ، وعلى هذا يحمل ما كان من شعر امرئ
القيس وطرفة لو كان فى عصره ، وان كان لم يسمع قصيدته كما
زعم ، وقد استحلف على ذلك فحلف .

وأما ما يحكى عن الفرزدق وجرير فى الجمية ، واتمام
الفرزدق كل بيت أنشد صدره بعجز ما قال جرير سواء فأنما ذلك
لمعرفته بطريقة ومنحاه فى الشعر ، وكذلك ما يحكى عنهما فى
الدالة المنصوبة ، وقول كل واحد منهما : كأنك بفلان قد قال

كذا ، فأتى بالبیت المقول ، على ما قال انه يقال عليه . فانه كان
لأن المناقضة بينهما طالت حتى عرف كل واحد منهما مرمى
صاحبه ومغزاه في المناقضة كأن المعنى يقتضى جوابا ونقضا
لا يعدوه ، فهذه العلة فيما جرى بينهما من الموافقات التي وردت
بها الأخبار وهي موافقات كثيرة .

ويدق ابن رشيقي حين يلحظ الفروق بين المعاني ، ويقارن
بينها ويميز كالذى يقوله في مثل قول الثعالبي :

إذا زنت عيني بها فبالدموع تغسل
وقول ابن هندو :

يقولون ما بال عينك مذ رأت مسامع هذا الطيب أدمعها هطل
فقلت زنت عيني بطلعة وجهه فكان لها من صوب أدمعها غسل
وقول المتنبي :

إذا ما فارقتنى غسلتنى كأننا عاكفان على حرام
يقول : وأبو الطيب أحسن لفظا لقوله :

كأننا عاكفان على حرام
وصح له ذلك لقوله - قبله -

وزائرتي كأن بها حياء

فالزيارة والحياء يقتضيان ما أشار اليه لأنهما ليسا من شأن
الزوجة ، ولكن من شأن المعشوقة ، ولم يصرح أبو الطيب بلفظ
الزنا كما صرح الثعالبي وابن هندو ، ومع ذلك فمعناه أصح بنية

وأكثر تمكنا من جهة أخرى وذلك انه وصف من نفسه وزائرتيه
ذكرا وأنثى ، والزنا قد يقع بينهما ، وذكرنا زنا بين مؤنثين ، فقال
الشعالي :

« اذا زنت عيني بها » وقال ابن هندو « زنت عيني بطلعة
وجهه » ولو قال زنى ناظري أو لحظي لكان أصح ، لأن الانثى
وهي العين لاتزنى « بالطلعة ولا بالانسانة » ، وقد قالت اعرابية
لرجل رآته يلحظ ابنتها :

وهل لك منها غير أنك ناكح

بعينيك عينا ؟ فهل ذاك نافع

فأضافت النكاح اليه كالفرجين فصح المعنى « (١) » .

واخيرا يتعقب الشعراء ويذكر من أشعارهم التي هي من شعر
غيرهم ولكن أحدا لا يعلم ذلك الا في النادرة ، ويذكر أبيات
يشار :

اذا كنت في كل الامور معاتبا	صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فعض واحدا أو صل اخاك فانه	مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذ	ى ظمئت وأى الناس تصفو ومشاربه

ويذكر ان ابن عروة الضبعي ينسبها للمتلسم .

وكذا قوله :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

(١) قذاعة الذهب ص ٤٤ / ٤٥ .

وانه لعجيف العقيلي - ويذكر مثل ذلك في جنب ابي
العتاهية وابي نواس ومنصور النمرى وغيرهم .

ثم يختم الرسالة التي دارت مادارت حول السرقات ،
بالاعتذار لنفسه فيما اتهم به من السرقة في قوله :

إذا ضربت فيه الطبول تتابعت
البيتان - وقد تقدما .

ويقول : فاين تقع نقطتى من دائرة هؤلاء الجلة ، وقطرتى من
بحارهم .

ويخاطب اللواتى فيقول : « ولولا انها مجارة أدب ، وتجديد
مودة ، لاقتصرت من جميع ما اوردت على معرفتك وسعة روايتك
غير رافع رأسا ممن أنطقه الحسد وأسكته الكمد ، ثم ينشده
قوله :

دونكها ياسيد الاحرار	وواحد العصر بل الأعصار
رسالة بينة الأعذار	باحث بما تخفى من الاسرار
كأنها من جودة العيسار	« قراضة من ذهب » الدينار
اليك جاءت لا الى الممارى	هل يعرف التبر سوى التجار

وهكذا قدم ابن رشيق في باب السرقات ، وفي قراضة الذهب
معرفة خبير بالاشعار عارف بمدخلها وماخذها ومصادرها وما يكون
بين البيت والبيت والكلمة والكلمة ، من خفى الأخذ ودقيق
الشبه .

١١ - فنون الشعر

إذا كان ابن رشيق قد درس الشعر من حيث معناه ولفظه ومن حيث اوزانه وقوافيه ، ومن حيث أزمنة الشعراء ومذاهبهم فيه من ارسال النفس على سجيتها أو أخذها بالصنعة والتصنيع فانه لم يفته ان ينظر فى أعطافه من ناحية أغراضه .

والنظر فى الشعر من حيث الاغراض انما هو نظر فيه من جهة الوجدان والعاطفة التى يتلبس بها الشاعر ، والتى تملك عليه نفسه وحسه ساعة يقول الشعر كأن تكون الحزن او الشوق أو الرضا او الاعتزاز بالنفس أو التخضع والتزلف فيكون من وراء ذلك الرثاء والنسيب او المدح أو الفخر أو العتاب الى آخر الحالات النفسية التى يقال فيها الشعر . يقول تشارلتن : « والقصيدة الغنائية أنواع تختلف باختلاف العاطفة التى تعبر عنها ، فهناك الأغاني ، وقد تكون الأغنية مما يتغنى بالحب أو بالشراب أو بجمال الربيع أو بألوان لا تنتهى من ألوان الغناء ، ولكنها فى مجموعها تعبر عن المشاعر التى يشترك فيها الشاعر مع غيره من الناس على الرغم مما لها من قوى الأثر فى حياة الشاعر خاصة .

وربما كان أول من قسم الشعر على ذلك الاساس ، وجمعه
فى كتاب هو صاحب الحماسة ابو تمام ٢٣١ هـ فقد تخير منه فى
كتابه الحماسة ولم يجد لتبويبه اساسا خيرا من العاطفة التى صدر
عنها مانخيره ، واذا هو عنده عشرة أبواب أولها الحماسة وبه
سمى الديوان واستغرق منه أكثر من ثلثه ثم تتابعت بعد ذلك
ابوابه وهى المراثى والأدب ، والنسيب والهجاء ، والأوصاف
والمديح ، والصفات ، والسفر والنعاس والملح وآخرها باب مذمة
النساء .

وتتابع النقاد ينظرون على هذا الاساس فى أعطاف الشعر
العربى . مع تجوز فى عدة الأبواب فمنهم من يزيد الاقسام
ومنهم من يختصرها ، فاذا كان ابو تمام رآها عشرة فان رجلا
كقدامة بن جعفر حصرها فى ستة ، ومدها الى ثمانية وعشرين
أبو الاصبع .

فأما ابن رشيق فقد جعلها عشرة وهى النسيب والمديح
والافتخار والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب والوعد
والانذار ، والهجاء والاعتذار ثم الوصف .

ويخيل لى ان حياة ابن رشيق فى عصر يتكسب بالشعر ،
والشعراء يعيشون فيه على مايقولون - يخيل - لى أن ذلك كان
له أثر فى تقسيمه الشعر وفى ترتيب ابوابه فى كتابه ، وكأننى به
تصور الشعر يقال ابتغاء العطاء وذلك يستدعى شعر المديح
فاذا حرم الشاعر أو منع كان العتاب فان لم يجد فالتوعد والانذار

فاذا لم يبالها الممدوح فالهجاء ولا على الشاعر أن يعتذر بعد ذلك ، واذا مات صاحب الايادى على الشاعر فالرثاء . وتبقى بعد ذلك ابواب النسيب والفخر والوصف وهى أبواب تصدر عن عوامل غير باب النوال والعطاء ، تصدر عما يجده الشاعر فى نفسه من تعلق بالاحباب او اعتزاز بالنفس أو تأثر بوقع الصور عليها . هذا تصور لتعليل مجيء الأبواب عشرة عند ابن رشيق ويمكن ان يكون لذلك غير هذه العلة فالمسألة تقبل الاجتهاد فى ارجاعها الى علل وأصول . وليست محصورة فى رسوم بعينها والا فأين شعر الفلسفة والمنطق وشعر الحكمة والمثل كالذى نراه عند أمثال ابى العلاء والمتنبى وصالح بن عبد القدوس وعمر بن الفارض وغيرهم .

وقبل ان نمضى فى حديث الفنون عند ابن رشيق نشير الى ما أثاره الحمصى فى كتابه منهل الورد فى علم الانتقاد فانه عندما تحدث عن بوالو الشاعر الفرنسى وعن ارجوزته الطويلة التى جمع فيها قواعد الشعر وأنواعه وأبوابه ، أشار الى ابن رشيق وذكر أنه لا يظن ان بوالو اطلع على قصيدة صاحبنا ، ولا على مؤلفاته فى هذا المبحث (١) ولكنه يعود فيقول ان ابن رشيق ذكر من صنوف الشعر وفنونه المدح والنسيب والهجاء بالتصريح .. وان بوالو ذكر هذه الاجناس أو الأنواع فى قصيدته صناعة الشعر وزاد عليها التراجيديا والكوميديا « (٢) .

(١) منهل الورد ص ١٤٨ .

(٢) منهل الورد ص ١٧٤ .

وتحن نعلم أن بوالو متأخر على ابن رشيق ، وانه نظم ارجوزته
 التى اشار اليها الحمصى سنة ١٦٧٤ م ومنهجه فيها يشبه منهج
 ابن رشيق من حيث تقسيم الشعر الى فنون ، فهل لنا أن نشك -
 على الأقل - فى أنه اطلع على منهج ابن رشيق ؟ وأى مانع
 يمنعنا من اثارة ذلك ، وای غرابة فى أن يأخذ بوالو عن صاحبنا
 وقد كانت الثقافة الغربية يوما ما تنهل من آثار العرب ، وابن رشيق
 عاش فى الساحل الشمالى لافريقيا والمقابل لفرنسا ، وعاش مدة
 فى صقلية ، وعلماءها اختصروا فيها كتابه العمدة فلم لا يكون قد
 نقل الى فرنسا .

مسألة تستحق الدراسة :

بقى أن نشير الى أن القصيدة التى عناها الحمصى انما هى
 لأبى العباس الناشئ كما صرح بذلك ابن رشيق نفسه - وربما
 جاء الخطأ فى النسبة من ابن خلدون الذى ذكرها فى مقدمته على
 أنها لابن رشيق - والصواب ما تقدم - والقصيدة هى التى يقول
 فيها ابو العباس :

لعن الله صنعة الشعر ماذا من صنوف الجهال منه لقينا
 يؤثرون الغريب منه على ما كانه هلا للسامعين مينا
 الى أن يقول :

فاذا ما مدحت بالشعر حرا رمت فيه مذاهب المسهينا
 فجعلت النسيب سهلا قريبا وجعلت المديح صدقا مبينا

وتنكبت ماتهجن في السمع
 واذا ما قرضته بهجاء
 واذا ما بكيت فيه على الغادين
 حلت دون الأسى وذلت ماكا
 ثم ان كنت عاتبا جئت بالوع
 فتركت الذي عتبت عليه
 وأصح القريض ما فات في النظم
 وان كان لفظه موزونا
 عبت فيه مذاهب المرفيا
 يوما للبين والظلماعتنا
 ن من الدمع في العيون مصونا
 د وعيدا وبالصعوبة لنا
 حذرا آمنا عزيزا ، مهيسا
 وان كان واضحا مسيينا

أ - النسيب

ويفتتح ابن رشيق حديث النسيب بأن النسيب والتغزل
 والتشبيب كلها بمعنى واحد ، وأما الغزل فهو الف النساء والتعلق
 بما يوافقهن . ثم يقول : فمن جعله بمعنى التغزل فقد خطأ .
 وهو بذلك يفرق بين الغزل والتغزل فاو لال الف النساء بينما
 الثاني يتحدث عن المرأة في الشعر وان لم يكن هناك الف ، ولا
 موادة على الحقيقة وقد خالف في ذلك بعض المعاصرين حين جعل
 التاء في التغزل كالتاء في مصادر أخرى كالترقي والتكلم
 وابن رشيق أصح نظرا في ذلك فقد قال النويري : « ان الغزل
 هو الاشتهار بمودات النساء والصبوة اليهن » (١) وقال ابن سده
 في مخصصه : « ان الغزل هو تحدث القان ، والحواري سيما
 النسيب التغزل بهن في الشعر ، والتشبيب مثله » (٢) .

(١) شرح ديوان الحماسة ص ١١٢ .

(٢) المخصص ج ٤ ص ٥٤ .

ثم يمضي ابن رشيق في الباب يناقش اصل كلمة التشبيب واشتقاقها ، وعنده انها مأخوذة من الشبية وأصلها الارتفاع كأن الشباب ارتفع عن حال الطفولية ، أو أنه رفع صاحبه ، فانه يقال شب الفرس اذا رفع يديه وقام على رجله ، ويجوز عنده أن يكون التشبيب من الجلاء والكشف . فانهم يقولون : شب الخمار وجه الجارية اذا جلاه ووصف ما تحته من محاسنه فكأن الشاعر الذي يشبب بامرأة ، انما يبرز محاسنها ويكشف عن صفاتها ويجليها للعيون بوصفه اياها ، ومنه الشب الذي يجتلى به وجه الدنانير ويستخرج غشا ، ومنه على هذا شبيت النار ، اذا رفعت سناها ، وزدتها ضياء وعليه انشد الاصمعي لعكاشة بن ابي مسعدة :

يدفع عنها كل مشبوب أغر

قال والمشبوب الذي اذا رأيته فزعت لحسنه ، قال ابن دريد: شبيت في الشعر تشبيبا مثل نسبت نسيبا ، والنسيب أكثر ما يستعمل في الشعر» (١) .

وانما نقلت هذه البحاثاة اللغوية في التشبيب لأكشف عن صفحة الرجل في اللغة ، وأنه كان بمنازع الكلم واسع المعرفة كثير الزاد ، يرجع كل كلمة الى أصلها وبنيتها فيكون بهذا عالما لغويا كما هو ناقد وأديب وشاعر .

ويأخذ بعد ذلك يحدث عن النسيب وما ينبغي له من حلاوة
الألفاظ ودماثتها وقرب معانيها وما أخذها ، بحيث تكون بعيدة
عن الكز وعن الغامض ، فان لين الدثار ، وطيب المكسر ، وشفافية
اللفظ مما يطرب عليه الحزين ويستخف الزرين .

ويشير الى النسيب الذى يتصدر القصائد لاعن هوى ولا عن
صباية ، وانما هو من قبيل الأخذ بتقاليد الشعراء فى مستهل
قصائدها .

ثم يذكر ما يميل اليه النقاد من اختيار أخف الاسماء وألذها
وقعا على الاذن وبعدهم عما ينفر منه السمع ، ويتعنع به اللسان
ككلمة يوزع فى قول الحميرى :

ولقد تكون بها أوانس كالدمى

هند وعبدة والرباب ويوزع

وكيف عابوه بها ، فيذكر أن ذلك المبدأ يمكن التحلل منه اذا
كان هذا هو اسم المعشوقة على الحقيقة فانه والأمر كذلك لاحيلة
فيه ما لم يجد الشاعر فى الكنية مندوحة عنه . وهذا منه نظر سليم
فان غرابة الاسم او كزازته لاتعيب الشعر مادام هذا الاسم علما
على صاحبه المعنى فى القصيدة .

ثم يعود فيذكر ان النسيب الذى لم يصدر عن هوى وانما
حفاظا على تقاليد القصيدة العربية يجب الا يجاوز ابياتا فى المطلع
يتنقل الشاعر بعدها الى غرضه الاصيل الذى انعقدت له القصيدة

وذلك حتى لا يستنفد الشاعر جهده ، ويستهلك طاقته فيما يخصه
هو من تغزل ، تاركاً فضل طاقته للغرض الاصيل . ويذكر ابن
رشيقي قصة نصر بن سنيار الذي مدحه أحد الشعراء بأرجوزة عدة
اياتها مائة وعشرة أبيات ، كان حظ النسيب منها مائة بيت ..
وحظ المدوح عشرة ، فعابه نصر وانتقده ، وقال له : ما أبقيت
كلمة عذبة ، ولا معنى لطيفاً الا وقد شغلته عن مدحى بنسبيك
فان أردت مديحي فاقصد في النسيب . يقول ابن رشيقي : فلما
كان الغد جاءه الشاعر وانشده :

هل تعرف الدار لأم عمرو ؟
دع ذا وجبر مدحة في نصر

فقال نصر : لا هذا ولاذاك ولكن بين الأمرين . ثم يذكر ان من
تبع المذهب الأول نصيب فانه كان يطيل النسيب في صدر قصائده
وعلى العكس منه كان المتنبي فانه قال :

واحر قلباه ممن قلبه شيم

ومن بجسمي وحالي عنده سقم

فانه لم ينسب في هذه القصيدة بغير هذا البيت ثم خرج الى
المدح في البيت الثاني :

ويحكى ابن رشيقي مذهب العرب في اظهار الصباية وان
الرجل هو الذي ينبغي ان يظهر التهالك وينقل عن عبد الكريم :
« ان العادة عند العرب ان الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعند

العجم يجعلون المرأة هى الطالبة والراغبة المخاطبة » ويدخل ابن رشيق عنصرا اخلاقيا فى القضية عندما يقول « وهنا دليل كسرم النحيظة فى العرب وغيرها على الحرم » (١)

ويحكى انهم انشدوا أبيات عمر بن ابي ربيعة وابن ابي عتيق
يسمع :

بينما ينعتننى أبصرتنى دون قيد الميل يعدو بى الأغور
قالت الكبرى : اتعرفن الفتى قالت الوسطى : نعم ، هذا عمى
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه ، وهاء يخفى القصر

فقال ابن ابي عتيق يا عمر : انت لم تنسب بهن وانما نسبت بنفسك ، وانما كان ينبغى لك ان تقول : قالت لى فقلت لها .. فوضعت خدى فوطئت عليه ، وكذلك قال له كثير لما سمع قوله :

قالت لها أختها تعاتبها لا تفسدن الطواف فى عمى
قومى ، تصدى له لأبصره ثم اغمزيه يا أخت فى خفى
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشدد فى أثرى

أهكذا يقال للمرأة ؟ انما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة .

لكنى لا أرى واقع الحياة كذلك فالنساء يطلبن الرجال ، ويتعرضن لهم كما يطلبهن الرجال ويتصدون لهم . وهذا القرآن الكريم يحكى عن امرأة العزيز وما فعلت بيوسف حين أخذت تراوده عن نفسها . وحين تنكر عليها بنات جنسها تطلعن عليه فيقطعن

أيديهن لما بهرهن بجماله . وهذه ابنة شعيب تمشى على استحياء
وكان هذا الاستحياء كان سحرا لموسى فمضى مسرعا يخطبها من
أيها .

على انه اذا كان هذا مذهب العرب فى الجاهلية وصدر
الاسلام فانهم لما خالطوا العجم تخلوا عن مذهبهم وراينا الجوارى -
والحرائر - يتعرضن للرجال ، وهذا ابو حيه النميرى يحكى
عن تعرض المرأة للرجل فيقول :

رمته انا من ربيعة عامر	ثوم الضحى فى مآثم أى مآثم
فجاء كخوط البان لا متتابع	ولكن بسيما ذى وقار وميسم .
فقلنا لها سرا : فدينك لا يرح	صحيحا وان لم تقتليه فالملسى
فألقت قناعا دونه الشمس واتقت	بأحسن موصولين كف ومعصم
وقالت ، فلما افرغت فى فؤاده	وعينيه منها السحر ، قلن له قم
فود بجذع الأتف لو أن صحبه	تنادوا وقالوا فى المناخ له قم

فأين هذا من مذهب العرب وهى قد تعرضت له بما سحره ،
وألقت قناعا عن وجهها واتقت بكف ومعصم حتى اذا بلغت منه
ما أرادت قلن له : قم ؟ .

ولا بقوت ابن رشيق ان يوصى بتجنب ما يسوء المعشوق لو
وقع وذلك حين يقول :

وكل ما لا يليق بالمحبيب فهو مكروه فى باب النسيب ، قالت
عزة لكثير يوما - ويقال بثينة - ما أردت بنا حين قلت :

وددت وبيت الله أنك بكرة
كلانا به عرف من يرنا يقل
نكون لذي مال كثير مغفل
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله
وأنى هجان مصعب ثم نهرب
على حسنهما جرباء تعدى وأجرب
فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
علينا فلا تنفك نرمى ونضرب

لقد أردت بنا الشقاء ؟ أما وجدت أمنية أوطأ من هذه ؟ فخرج
من عندها خجلاً ، يقول ابن رشيق : وإنما اقتدى بالفرزدق حيث
يقول :

ألا ليتتنا كنا بعيرين لانرد
كلانا به عر يخاف قراهه
بأرض خلاء وحدنا وثيابنا
ولا زاد الا فضلنا : سلافة
وأشلاء لحم من جباري يصيدها
إذا نحن شئنا صاحب متألف
لنا ماتميننا من العيش مادعا
هدى بنا بنعمان ، حمائم هتف
على حاضر الا نشل ونقذف
على الناس مظلئ الأشاعر أخشف
من الریط والديباج درع ومحلف
وأبيض من ماء الغمامة قرقف

قال ابن رشيق - وهذا من سوء الاتباع . وإذا كان بعيراً فما
هذه الأمنية التي كلها للحيوان الناطق ؟ ولكن أبيات الفرزدق قد
رد فيها الحديث الى المعشوقين وفيها ملاحه وطرافة اشار اليها
ابن رشيق حين قال : « والا فما أملح الجمل نشوان يصيد الجباري
بالبازي » فأين من ذلك أبيات كثير ؟

ب - المديح

ويذكر فيه أن على الشاعر اذا مدح ملكا ان يسلك سبيل
الايضاح والاشادة بذكر المدح وأن يجعل معانيه جزلة ، وألفاظه
فكية غير مبتذلة ولا سوقية وان يتجنب مع ذلك التقصير والتجاوز
والتطويل فان للملك سامة وضجرا ، وربما عاب من أجلها ما لا يعاب
وحرّم من لا يريد حرمانه .

ويبدو تأثر ابن رشيق بعصره ، وبحياته في رحاب ملك يعطى
على المديح ويجزل لمن يجيده ، ويحرم حين لا يوافق المديح مزاجه
لا لعب في القصيد ولكن ربما لسأم أو ضجر . وهكذا لا ينجو
الانسان فيما يكتب من التأثر بالجو الذي يحوطه ، وبالظروف
التي يعيش فيها .

وابن رشيق حذر في تأصيل اصول المديح فمن رأيه الا يمدح
الملك ببعض ما يمكن أن يمدح به غيره من الرؤساء أو من يتجه
اليهم ، وان كان فضيلة ، فقد انكروا على البحتري قوله في ابن
المعتز :

لا العذل يردعه ولا التعنيف عن كرم يصدّه
وقالوا من ذا الذي يعتف الخليفة على الكرم أو يصدّه عنه ؟
ويعجبه من المديح مثل قول ابى العناهيّة :

انى أمنت من الزمان وريسه
لما علقت من الأمير حبلا

لو يستطيع الناس من اجلاله
 تخذوا له حمر الخدود نعلا
 ان المطايا تشتيك لأنها
 قطعت اليك سباسبا ورمالا
 فاذا وردن بنا وردن خفافا
 واذا صدرن بنا صدرن ثقلا
 ثم يحذر من مدح تشوبها طيرة أو تشاؤم ، وقد كره الحذاق
 مدح الملوك بمثل قول موسى شهوات :
 ليس فيما بدا لنا منك عيب
 عابه الناس غير أنك فاني
 أنت نعم المتاع لو كنت تبقى
 غير ألا بقاء للانسان
 على أن في البيتين بعد الطيرة والتشاؤم أنه جعل الممدوح
 متاعا وهذا من أقبح ما يواجه به الملوك والرؤساء .
 ويمضى يختار من أحسن مدائحهم حتى يسود صفحات
 كثيرة من الكتاب فى قصص تستهوى القارئ كأن يقول : قال
 شرحبيل بن معن بن زائدة : كنت أسير تحت قبة يحيى بن
 خالد ، وقد حج مع الرشيد وعديله أبى يوسف القاضى اذ أتاه
 أعرابى من بنى أسد ، كان يلقاه اذا حج فيمدحه ، فأنشدهم
 شعرا أنكر يحيى منه بيتا فقال يا أخا بنى أسد : ألم انهك عن مثل
 هذا الشعر الا قلت كما قال الشاعر :

بنو مظر يوم اللقاء كأنهم
أسود لها في غيل خفان اشبل

هم يمنعون الجار حتى كأنما
لجارهم بين السماكين منزل

بها ليل في الاسلام سادوا ولم يكن
كأولهم في الجاهلية أول

هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا
أجابوا وان أعطوا أطابوا وأجزلوا

ولا يستطيع الفاعلون فعالهم
وان أحسنوا في النائبات وأجملوا

فقال ابو يوسف : لمن هذا الشعر أصلحك الله فما سمعت
أحسن منه ؟ فقال يحيى : يقوله ابن ابى حفصة فى أبى هذا الفتى
وأوما الى فكان قوله أسر الى من جليل الفوائد .

وابن رشيق يدل بكثرة ما يروى ، وبحسن ما ينتقى على سعة
الرواية والبصر يجيد الشعر ومختاره .

ويتحدث بعد عن الاختصار فيذكر انه المدح بعينه الا أن
الشاعر يخص نفسه وقومه ومن ثم فانه يقرر ان كل ما حسن
فى المدح يحسن فى الاختصار وكل ما قبح هناك يقبح هنا ثم يذكر
بضعة مختارات ويناقش ما فيها من وجوه الحسن ، ومواطن المأخذ
كدأبه فى أكثر الذى يرويه أو يحكيه .

ج - الرثاء

وهو عنده - وكما قال قدامة - ليس بينه وبين المدح فرق
الا أن يخطط به شيء يدل على ان المقصود به ميت ، مثل كان أو
عدمنا به كيت وكيت ، أو ما يشاكل ذلك ليعلم أنه ميت .

ولو لم يتابع ابن رشيقي قدامة لعدل عن هذا التعريف لشعر
الرثاء فكثير من قصائده لا تصدر بكان ، ولا تتضمن عد منا به ،
ولا شيئا من هذا القبيل ، وهذه قصيدة اوس :

ايتها النفس أجملى جزعا ان الذى تحذرين قد وقعا
وقصائد الخنساء من مثل :

يذكر فى طلوع الشمس صحرا واذكره لكل غروب شمس
وقصيدة المعرى :

غير مجد فى ملتي واعتقادى نوح باك ولا ترنم شادى
فكلها تصور الخطب وروعته وتكبر المصاب حتى مانسأه ،
وتظهر الأسى والحزن أو تقرر حقيقة الحياة وواقعها - ومن بينه
الموت والفناء .

فأوس يرى أنه قد وقع المحذور ومات فضالة بن حليمة ،
وليس وراء ذلك خطب تخافه النفس فلتطمئن الى انها لن تواقع
بعد ذلك مكروها كذلك المكروه ؛ والخنساء تحدث بتجدد الأسى
كلما أشرقت شمس يوم أو غربت ، فحزنها على أخيها دائما

متجدد ، والمعرى يقرر حقيقة الحياة وان الموت سنتها ، وشييه
عنده صوت الغناء بنشيج البكاء .

وهكذا لا يكون الرثاء كان وعدمنا ، وانما الرثاء هو الفن
الذى يظهر فيه شعور الشاعر نحو المصاب ، وقد يكون هذا
الشعور شعور الجزع ، وشعور الحزن ، وقد يكون شعور
الرضا بما وقع والاستسلام له ، وفلسفة الموت والحياة

ويقرر ابن رشيق أن النساء اشجى الناس قلوبا عند المصاب
وأشدهم جزعا عند هلك عزيز ويعمل لهذا بما ركب الله في طبيعتهن
من الخور وضعف العزيمة ، وعلى شدة الجزع يكون الرثاء .

فاذا أوتى المحزون القدرة على التعبير بالكلمة عن حزن يمضه
رأينا الرثاء البالغ غايته فى معناه ، قالوا قتل ديك الجن جاريته ،
واتهم بها اخاه ثم قال هو يرثيها :

يامهجة جثم الحمام عليها	وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها التراب وربما	روى الهوى شفتى من شفتيها
حكمت سيفى فى مجال خناقها	ومدامعى تجرى على خديها
فوحق نعليها لما وطىء الحصى	شئ أعز على من نعليها
ماكان قتلها لأنى لم أكن	أخشى اذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت على الأنام بحسنها	وانفت من نظر العيون اليها

فهذا الرثاء المشوب بالتعليل والتبرير .

وينكر ابن رشيق ان تفتتح مرثية بغزل لأن الآخذ فى الرثاء

يجب أن يكون مشغولا عن النسيب ، ويعتذر عن قصيدة دريد
ابن الصمة في رثاء أخيه والتي مطلعها :

ارث جديد الين من أم معبد بعافية واخلفت كل موعد
بأن ذلك كان بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ بثأره ، وأدرك
طلبته . ثم يذكر أن الكميت كان ركابا لهذه الطريقة في أكثر
شعره .

ويصدق ابن رشيق في نقده حين يقرر أنه على قدر الجزع
تكون قوة الرثاء ويضرب المثل لذلك بالذى كان من جلييلة بنت مرة
وقد قتل أخوها جساس زوجها كليباً ، فصارت بين نارين فقد
حليل ، وتوقع ثأر بعد قليل ، جزع على من ذهب ، وتخوف على
فقد من بقى ، وقد استطاعت جلييلة في قصيدتها أن تعبر عن وقوعها
بين النارين ، وعن تردددها بين الحزن على الذى وقع والاشفاق
مما تتوقع ، وذلك حيث تقول :

يا ابنة الأقوام ان لمت فلا	تعجلى باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذى	يوجب اللوم فلومى واعذلى
ان تكن أخت امرئ ليمت على	جزع منها عليه فافعلى
فعل جساس على ضنى به	قاطع ظهري ومدن أجلى
لو بعين فديت عيني سوى	اختها وانفقأت لم أحفل
تحمل العين قذى العين كما	تحمل الأم قذى ما تقلى
ويبلغ ذروة البصر بالنقد الفنى عندما يقرر أن من أشد	
الرثاء صعوبة ان يتعرض الشاعر لرثاء طفل وامرأة لضيق مجال	

القول وقلة الصفات ، ويشبه ذلك الجمع بين رثاء وتهنئة ، ويختار لذلك من جيد النماذج ماتضيق بعرض الكثير منه هذه السيرة . ولكننا لا بد نقل للقارىء ما اختار ابن رشيق من مرثية محمد بن عبد الملك لزوجته فانها مرثية تثير شجى القلب بما تضمنت من تصوير فقد الحليّة ولها أطفال صغار يرون كل الأطفال ولهم امهاتهم ماعداهم ، وهى صورة أبدع ابن الزيات ابرازها فقال :

الا من رأى الطفل المفارق أمه	بعيد الكرى عيناه بتبدران
رأى كل أم وابنها غير أمه	يبيتان تحت الليل ينتحيان
وبات وحيدا فى الفراش تحته	بلا بل قلب دائم الخفقان
ألا ان سجلا واحدا قد أرقته	من الدمع أو سجلين قد شفياني
فلا تلجيانى ان بكيت فانما	أداوى بهذا الدمع ماتريان
وان مكانافى الثرى خط لحدّه	لمن كان فى قلبى بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى	فهل أئتما ان عجت منتظران

يقول ابن رشيق ومن أشجى الشعر فى القصيدة قوله :

فهبنى عزمت الصبر عنها لأننى	جليد فمن بالصبر لابن ثمانى
ضعيف القوى لا يعرف الصبر حسب	ة ولا يأتسى بالناس فى الحدان
الا من أمنيّه المنى فأعده	لعشرة أيامى وصرف زمانى
ألا من اذا ماجئت أكرم مجلسى	وان غبت عنه حاطنى ورعانى
فلم أركالاقدار كيف أصببنى	ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى

ثم يعقب على الأبيات فيقول : فهذه الطريق هى الغاية التى يجرى حذاق الشعراء اليها ، ويعتمدون فى الرثاء عليها

ولكن ابن رشيق يؤخذ بخدمة الملوك في نقده اذ يتبع الذى
تقدم بقوله : الا أن تكون المروءة من نساء الملوك وبنات الاشراف ،
وغير ذوات محارم الشاعر فانه يتجافى عن هذه الطريقة الى أرفع
منها نحو قول ابى الطيب :

ولو ان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
مشى الأمراء حولها حفاة كأن المروء من زف الرئال
ونحو قوله فى اخت سيف الدولة :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب
أجل قدرك ان تدعى مؤنثة ومن يصفك فقد سماك للعرب

فلعمري ليس هذا بأرفع مما تقدم لابن الزيات ، بل ان هذا
الذى قاله ابو الطيب ليس فيه الا المبالغة المردودة ، وهو خلو من
العاطفة ومن الصدق الفنى الذى نلمسه فى قصيدة ابن الزيات
— والأصل فى الشعر أن يكون تعبيراً عن النفس وتصويراً لما
يختلج فيها من المشاعر لا أن يكون استرضاء لملك أو عظيم —
ولكن كما قال الشاعر :

وحب العيش أعبد كل حر وعلم ساغبا أكل المزار

د - العتاب

وعقد له بابا بعد ما تحدث عن الاقتضاء والاستنجاز ، فذكر
انه باب من ابواب الخديعة يسرع الى الهجاء ، وسبب من أسباب

القطيعة والجفاء ، فإذا قل كان داعية الألفة ، وقيد الصحة ، وإذا
كثر خشن جانبه وقل صاحبه .

وعنده أن البحترى خير من عتب ، وضرب المثل للعتاب الجيد
بقوله :

يريبني الشيء تأتي به وأكبر قدرك أن استريبا
وأكره أن أتمادي على سبيل اغترار فألقى شعوبا
أكذب ظني بأن قد سخطت وما كنت أعهد ظني كذوبا

وكان بابن الرومي معجبا لاسيما بقصيدته التي يعاتب فيها
إبا الصقر اسماعيل بن بلبل ومنها :

عقيل الندى أطلق مدائح حمة خواسى حسرى قدأبت أن تسرحا
وكنت متى تنشد مديحا ظلمته يكن لك أهجى كل ما كان أمدحا
عذرتك لو كانت سماء نقشعت سحائبها أو كان روض تصوحا
ولكنها سقيا حرمت رويها وعارضها ملق كلاكل جنحا
فيالك بحرا لم أجد فيه مشربا وإن كان غيرى واجدافيه مسبحا

يقول ابن رشيق : فهذا هو الذي لا يبلغ جودة ولا يجارى
سبقا .

ثم يقول وكانت في طباع ابى الطيب المتنبي شدة وفي عتابه
غلظة ، وكان كثير التحامل ظاهر الكبر والأنفة ، ويسوق قصيدته
لسيف الدولة :

يا أعدل الناس الا في معاملتي
فيك الخصوم وأنت الخصم والحكم

ثم يقول : وهذا الكلام في نهاية الجودة غير انه من جهة
الواجب والسياسة غاية في القبح والرداءة ... وبسبب هذه
القصيدة كاد يقتل عند انصرافه من مجلس انشادها، وهذا الغرور
بمعينه .

وهكذا يرى ابن رشيق ان ظروف الاجتماع والحياة عنصر
يتدخل في الفن فيطامن من كبرياء الشاعر ويحمله على أن يعرض
ذلك - وقد قدمت ان الشعر انبجاس تفيض به النفس لا تقيم
للحكم ولا للحاكم اعتبارا - ولعل ابن رشيق كان من انصار الفن
للمجتمع - ولست اوافقه فانه فوق المجتمع أو هكذا ينبغي أن
يكون .

هـ - الوعيد والانذار

والوعيد والانذار عند ابن رشيق بمثابة التقدمة للهجاء ،
وذلك أنه الا يجدى الوعيد والانذار يكون الهجاء ، ولعل هذا
هو الذى جعله يؤخر الهجاء عليهما .

وكالعهد به في حديث فنون الشعر يسوق من النماذج من غير
أن يتحدث عن المعانى التى تتوخى فيها وربما كانت هذه احدى
حسناته لأنه يدرك أن تعداد معان بأعيانها لغرض بذاته غير
سديد في مجال الدراسات النقدية ، وليس من هم الناقد أن يضع
الرسوم والحدود للشاعر بل همه او هكذا ينبغي أن يكون - أن

يترقب ما يقوله الشاعر لينظر في اعطافه فيرى مدى ما توفق اليه
فيحصيه أو يكشف عنه ، وما أخطأ فيه فيذكره ويشير اليه .

هذا ومن نماذج التوعد ما قال ابن الرومي في علي بن سليمان
الأخفش ، وكان بغايته بأن يدفع اليه من يقرع عليه بابه ، فاذا
سأل ابن الرومي من الطارق اجابه باسم يتشاءم منه فلا يغادر الدار
يومه ، ثم عرف ابن الرومي ان عليا وراء ذلك كله فقال :

قولوا لنحوينا أبي حسن ان حسامى متى ضربت مضى
وان نبلى متى هممت بأن أرمى نصلتها بجمر غضى
لا تحسبن الهجاء يحفل بالرفع ولا خفض خافض خفضا
ولا تخل عودتى كبادتتى سأسعط السم من عصا الخفضا
الى أبيات كثيرة مزقه فيها ابن الرومي كل ممزق وجعله مثله
يبيّن أصحابه على ان الأخفش كان يتجلد ويظهر عدم المبالاة يقول
ابن رشيق : ولكن هيهات .

و - الهجاء

وفيه أخذ ابن رشيق نفسه بتبيين أوجهه وأن خيره ما تنشده
العذراء في خدرها فلا تقبح بمثلها كقول أوس :

إذا ناقة شدت برحل ونمرق الى حيكم بعدى فضل ضلالها
وقول جرير :

ولو ان تغلب جمعت احسابها يوم التفاخر لم تزن مثقالا

وقوله :

ففض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ويحكى قول امير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الهجاء المقذع
وكان لما أطلق الحطيئة من حبسه وقال له اياك والهجاء المقذع قال
له هذا : وما المقذع يا أمير المؤمنين ؟ قال ان تقول : هؤلاء أفضل
من هؤلاء وأشرف ، وتبنى شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم
فقال الحطيئة : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذهب الشعر
ولكن حيانى هؤلاء فسدحتهم ، وحرمنى هؤلاء فذكرت حرمانهم
ولم أئل من أعراضهم شيئا وصرفت مدحى الى من أراده ، ورغبت
به عن كرهه وزهد فيه — يريد بذلك قصيدته المهموزة التى يقول
فيها :

وآتيت العشاء الى سهيل أو الشعرى فطال بى الاناء

بقول ابن رشيق : وهى أخبت ما صنع ، وفيها أو من أجلها قال
خلف الأحمر : أشد الهجاء أعفه وأصدقه .

ويحكى ابن رشيق كلمة صاحب الوساطة التى يقول فيها :
« فأما الهجو فأبلغه ماخرج مخرج التهزل والتهافت وما اعترض
بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع
علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والافحاش فبسباب
محض وليس للشاعر فيه الا اقامة الوزن » وكان ابن رشيق

بذلك المذهب معجبا وبه راضيا لاسيما اذا كان على وجهه التشكك
والتهزل ويستدل لصحته بما قال النقاد فى بيتى زهير :

وما ادرى وسوف اخال ادرى أقوم آل حصن أم نسا
فان تكن النساء مخبئات فحق لكل محصنة هد
فانه عندهم عندهم من أوجع الهجاء ، وأشدّه وأمضه .

ومذهبه أن التعريض أهجى من التصريح لاتساع الظن
التعريض ، وشدة تعلق النفس به والبحث عن معرفته وطله
حقيقته ، بخلاف التصريح فان النفس تحيط به جملة ثم يأخذ
يوم فى النقضان حتى النسيان .

على أن المهجوين عنده مراتب فان منهم من لا يوقظه
التصريح — فذاك وما يوقظه — ومن ثم اختلف هجاء أبى نواس
وأبى الطيب بحسب اختلاف المهجوين فمن التصريح قول زيد
الأعجم :

يقال لشيخ الصدق قم غير صاغ	فقم صاغرا يا شيخ جرم فانما
وريحكم من أى ريح الأعاصير	فمن اتم ؟ انا نسينا من أتم
فطاره وهذا شيخكم غير طائر	أأتم اولى جئتم مع النمل والدبا
بقية خلق الله آخر آخر	قضى الله خلق الناس ثم خلقتهم
ولم تدركوا الا مدق الحوافر	فلم تسمعوا الا بمن كان قبلكم

ويرى ابن رشيق ان أجود الهجاء مقام على سلب الانسان
الفضائل النفسية وماتركب من بعضها مع بعض ، فأما ما كان

فى الخلقة الجسمىة من المعاب فالهءاء به ءون ماآءم ، وقءامة لاىراه هءوا البآة - وكءلك ماآاء من قبل الآباء والأمهاء من النقص والفساء لاىراه قءامة عىبا، ولاىعء الهءوبه صوابا-ىقول ابن رشىق - والناس الا من لاىعء قلة على آلاف رأيه ، وىؤكد مىله الى مآالفة قءامة فىقول : وكءلك وىوءء فى الطباع ، وقء آاء ما أكء ءلك من أءكام الشرىعة (١) .

ز - الاعآءار

وابن رشىق فى هءا الباب رءل ءكمة ووعظ ، فىآآء ءءىء فىه بأآه ىنبغى للشاعر الا فىقول شىئا يعآءر منه فان اضطره المقءار الى ءلك وأوقعه فىه القضاء فىلذهب مذهباً لطىفا، ولىقصد مقصءا عرىزا ، ولىعرف كىف يأآء بقلب المعآءر الىه ، وكىف ىمسء أعطافه وىسآءلب رضاء فان آىان المعآءر من باب الاآآءاج واقامة الءىل آطاً لاسىما مع الملوآ وذوى السلطان - ولولا أنه عاش فى ظل الامارة والولاية ماذهب هءا المذهب ولكنها آبرة بالآياة وما علىه الناس فى علاقاتهم - بءلىل ان الاعآءار للاخوان عنءه نمط آآسر .

والشاعر المفضل عنءه النابغة فى آلاث قصائء :

الأولى :

باءار مىة بالعلىا فالسند

(١) العمءة آ ٢ ص ١٦٦ .

والثانية

ارسما جديدا من سعاد تجنب

والثالثة:

عفا ذو حسى من فرتنا فالقوارع

وفىها يقول بعد قسم :

لكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العريكوى غيره وهوراتع
لكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العريكوى غيره وهوراتع
فان كنت لاذو الضغن عنى مكذب ولا حلفى عند البراءة نافع
ولا أنا مأمون بقول أقوله وأنت بأمر لا محالة واقع
فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت ان المتناى عنك واسع

ويختم ابن رشىق اختياره فى الباب وحديثه بحديث عن
اشتقاق الاعتذار وانه اما أن يكون من المحو كأنه محوت آثار
الموجدة من قولهم : اعتذرت المنازل اذا درست ، وعليه قول
الشاعر :

لو كنت تعرف آيات فقد جعلت

أطلال الفك بالودكاء تعتذر

أو يكون الاعتذار من الانقطاع كأنه قطع الرجل عما
أمسك فى قلبه من الموجدة ، والعرب تقول :

اعتذرت المياه اذا انقطعت ، وعليه قول لبيد :

شهور الصيف واعتذرت اليه نطق الشيطان من السماء

أو يكون من الحجر والمنع ، قال ابو جعفر عذرت الدابة أى جعلت لها عذارا يحجزها من الشراد فمعنى اعتذر الرجل احتجز عذرتة جعلت له بقبول ذلك منه حاجزا بينه وبين العقوبة والعتب فيه ، ومنه تعذر الأمر احتجز أن يقضى ومنه جارية عذراء .
 ذلك هو ابن رشيق فى باب الاعتذار ، وذلك هو الرجل فى ترك اللغة ورد استعمالاتها فى النقد الى أصولها فى استعمالات العرب الأولين .

ج - الوصف

وأول مايلفت النظر أن ابن رشيق آخر الحديث فيه الى آخر كتاب ، وعزله عن بقية فنون الشعر ، ولعله كان هم ان يتركه .
 تحدث عنه فى التشبيه ضمنا اذ التشبيه عنده صفة الشئ بما يربو وشاكله من جهة واحدة او جهات كثيرة ، والشعر الا أقله اجع الى باب الوصف كما يقول ولا سبيل الى حصره واستقصائه .
 هو مناسب للتشبيه مشتمل عليه وليس به ، لأنه كثيرا ما يأتى فى اضعاfe .

وأحسنه عنده مانعت به الشئ حتى يكاد يمثله عينا للسامع بقول النابغة فى وصف ذئب افترس جؤذرا :

بات يذكيه بغير حديدة اخوقنص يمسى ويصبح مفطرا
 اذا مارأى منه كراعا تحركت أصاب مكان القلب منه وفرفرا

وينقل ابن رشيق تعريف قدامة وانه هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات... وأجود الشعراء وصفا من أتى في شعره أكثر المعاني التى يتركب منها الموصوف :

ويذكر أن الناس يتفاضلون فى الأوصاف من حيث ما يتناولون من الموضوعات فمنهم من يجيد وصف الابل والقفار ومنهم من يبدع فى وصف حيوان البرية كحمر الوحش والآرام والبقر والظلمان والوعول ، وآخرون يجيدون أوصاف الرياحين والزهور والورود وهكذا بحسب الظروف التى يحيا فيها كل شاعر والحياة التى ينشأ فيها .

ثم يعرض للشعراء بحسب ذلك ، فنعات الخيل امرؤ القيس وابو دؤاد وطفيل الغنوى والنابعة الجعدى .

ونعات الابل عنده طرفه وأوس ، وكعب والشماع وأكثر القدماء لأنها مراكبهم حتى ان رؤبه لما غلط فى وصف الفرس ارتد الى ما نشأ عليه وقال : أدنتى من ذنب البعير .

وأما الحمر الوحشية فالشماخ أوصفهم لها ، وشهد بذلك له الحطيئة والفرزدق — وهما من وصاف الخيل والقنى والنبال .

وأما الخمر فلها الأعشى والاخلط وابو نواس وابن المعتز ، ولأبى نواس وابن المعتز ايضا الصيد والطرده .

ويختار من نادر الوصف مثل وصف عبد الكريم للفيل في
قوله

وأضخم هندي النجار تعسده
ملوك بنى ساسان ان رابها أمسر
من الورق لا من ضربة الورق ترتعي
أضاخ ، ولا من ضربة الخمس والعشر
يجيء كطود جائل فوق أربع
مضبرة لمت كما لمت الصخر
له فخذان كالكتييين لبدا
وصدر كما أوفى من الهضبة الصدر

ووجه به أنف كراووق خمرة
ينال به ماتدرك الانمبل العشر
واذن كنصف البرد يستمعه النداء
خفيا وطرف ينقض الغيب مزور
ونابان شقا لايريك سواهما
قناتين سمرارين طعنهما ثش

له لون ما بين الصباح وليله
إذا نطق العصفور أو غلس الصقر
وهو وصف بارع لاسيما وأنه غير متكرر في شعرهم - وعلى
غير مثال :

وهكذا راح ابن رشيق يذكر أوصافا لأشياء مما لم تعرف
العرب او أكثر فى شعرها ، فيذكر لنفسه صفة زرافة وردت على
المعز بن باديس هدية من مصر ، ويذكر وصف كشاجم لاصطربلاية
ولتخت حساب الهندسة ، ولبركار ، ولبنكام ، وزرمانج أبنوس
وكلها آلات مخترعة تعين على الحساب والرسم وغيرهما .

ثم يختم الباب بأبيات فى وصف طاووس مات يقول فيها
كشاجم أيضا :

رزته روضة يروق .. ولم	يسمع بروض يشى على قدم
جبل الذنابى كأن سندسة	زرت عليه موشية العلم
توجا خلقه جاء بها	ذو الفطر المعجزات والحكم
كأنه يزدجرد منتصبا	يبنى فيعلى مآثر العجم
يطبق أجفانه ويحصر عن	فصين يستصبحان فى الظلم
أذل بالحسن فاستدال له	ذيل من الكبر غير محتشم
ثم مشى مشية العروس فمن	مستظرف معجب ومبتسم

وهذا آخر ما لابن رشيق فى فنون الشعر ، وبتقسيمه اهتدى
الذين أرخوا للادب العربى الى يومنا ، وبكثير من مختاره
امتشهدوا لما كتبوا . الأمر الذى يشهد بأثر الرجل فيمن جاء بعده
ويجعل من كتابه العمدة عمدة بحق فى أكثر أبوابه التى عرض
لها .

١٢- بينه وبين النقاد

بين ابن رشيق والنقاد قبله صلات وثيقة لا تتخرج معها من القول بأنه اهتدى بهم في كثير مما كتب سواء في النقد أو في غيره . ونقف من هؤلاء عند اثنين يكثر من النقل عنهما والاخذ برأيهما أو المناقضة لهما أحيانا وأعنى بهما ابن قتيبة وقدامة بن جعفر .

فأما عن ابن قتيبة فإنه تحدث في مقدمة كتابه الشعر والشعراء عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم ، وقبلهم واسمائهم واسماء آبائهم ، ثم تحدث عن المتقدمين منهم وما سبقوا إليه فأخذه عنهم المتأخرون ، وعن أقسام الشعر وطبقاته ، ويعتذر الرجل بخافة الاطالة حين لا يذكر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوما كثيرا من حملة العلم ومن الخلفاء والاشراف ، ويقرر ان سيودع كتابه « الاخبار عن جلالة قدر الشعر وعمن رفع بالمديح ، وعمن وضع بالهجاء ، وعمنا أودعت العرب شعرها من الأخبار النابذة والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة ، والعلوم في الخيل وفي النجوم وفي أنوائها والاهتداء بها والرياح وما كان منها مبشرا أو حائلا ، والبروق وما كان منها خلبا أو صادقا ،

والسحاب وما كان منها جهاما أو مطرا ، وعما يبعث البخيل على
السماح والدنىء على السمو والجبان على اللقاء » (١)

فيأتي ابن رشيقي ويقرأ هذه المقدمة ويأخذها فيما أرى فيجعل
منها في عمومها منهجا لكتابه العمدة بأن يجعل من كل فقرة
بابا أو محورا لباب يدير حوله الحديث ، نلمح ذلك حين تقارن
بين كثير من ابواب الكتاب وبين فقر مقدمة الشعر والشعراء
وفضله على صاحبه أنه هو يعرض البحث ويعمقه ، ولا يدعه تلميحا
خاطفا ، وانما يوفى كل موضوع حقه ، وأعانتته على ذلك رواية
واسعة ، ومعرفة لاحدود لها ، واطلاع على أكثر الذي تقدم في
هذا الباب فاذا أشار ابن قتيبة الى ان سيكتب عن جلالة قدر الشعر
رأينا ابن رشيقي يضع في عمدته بايين ، أولهما في فضل الشعر
والثاني في الرد على من يكرهه ، ويودع الباين حديثا مستفيضا
عن أهمية الشعر وهو موضوع الكتاب .

واذا قال ابن قتيبة : « ولم أعرض في كتابي هذا الا لمن كان
الأغلب عليه الشعر » جاء صاحبنا فكتب بابا عنوانه « المقلون من
الشعراء ، وآخر عنوانه : اشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء .

وفيما لم يذكر ابن قتيبة يكتب ابن رشيقي ، وكأنني بي قرأه وهو
يقول « وكان من حق هذا الكتاب ان اودعه الاخبار عن جلالة قدر

(١) مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١ - ٢ .

الشعر وعمن رفع بالمديح وعمن وضع بالهجاء » فإذا هو يسارع الى عقد الأبواب لذلك الموضوع .

ويتحدث ابن قتيبة عن ان للشعر دواعي تحث البطيء وتبعث المتكلف منها الشراب ومنها الطرب ومنها الطمع .. فيعقد ابن رشيق بابا بعنوان « عمل الشعر وشحذ القريحة له » ولكننا نكبر في ابن رشيق أنه حين ينقل عن صاحبه لا يتأبى على ان يذكر اسمه فيقول : قال ابن قتيبة وللشعر اوقات يسرع فيها أنه ..

ويذكر ابن قتيبة ان الشعراء بالطبع مختلفون فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء ، ومنهم من تسهل عليه المرائي ويتعذر عليه الغزل ، فيكتب صاحب العمدة بابا هو باب التصرف ونقد الشعر ، ويذكر أنه يجب للشاعر أن يكون متصرفا في أنواع القول .

بل لقد تبع ابن رشيق طريق ابن قتيبة في غير كتاب الشعر والشعراء ، وارجح بل أؤكد انه قرأ له كتاب المعارف وتأثر به ونقل منه - وهو يصرح بذلك في غير موطن .

ففي الجزء الثاني من كتاب العمدة يضع بابا بعنوان « باب في أصول النسب وبيوتات العرب » ويذكر فيه أن أول النسب بعد آدم انما كان من نوح لأن جميع من كان قبله قد هلك - يشير بذلك الى الطوفان الذي أهلك كل من كان الا من حمل نوح معه في السفينة .. ويذكر ابن رشيق ان قد كان من هؤلاء ابناء

نوح الثلاثة سام وحام وياث - ثم يمضى يتحدث عن انسابهم
ومن تفرع منهم وتفرق في الأرض . ثم يختم هذا الحديث
بأن « قد جمع ذلك كله ابن قتيبة » .

ثم يختص العرب بحديث طويل فيذكر انها ست طبقات هي
الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة .

ثم يعقد فصلا آخر فيما يتعلق بالانساب يذكر فيه قريشا وأنها
اثنتان ، فقريش البطاح وقريش الظواهر ، والأولى قبائل : كعب
وبنو عبد الدار ، وبنو زهرة ، وبنو مخزوم وبنو تيم وبنو جمح
والثانية قبائل أيضا : بنو محارب وبنو الادرم وعامة بنو عامر ..
وما يزال يعدد من اسماء هذه وتلك حتى يسود صفحات كثيرة من
الكتاب .

ثم اذا هو يعقد بابا آخر يذكر فيه من وقائع العرب وأيامهم
ووقائعهم ولكنه لا يستعصى ولا يلتزم ترتيبا ، لأن في أقل مما
جاء به غنى ومقنعا لاسيما وقد فرغ أبو عبيدة ونظرائه من ذكره
وانما اتى عليه .. تذكرة للعالم وذريعة للمتعلم وزينة للكتاب
ووفاء بشرطه وزيادة لحسنه .

ثم يذكر من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم غزوة
ودان ثم بدرا ثم أحدا فيوم الخندق فيوم بنى المصطلق فيوم
خيبر .

ويختم ذلك كله بأنه اختصره من كتاب ابن قتيبة يريد كتاب
المعارف

ثم ينتقل الى أيام العرب ومنها الى ذكر مفاخر بني شيان ولعله
انما اختصهم لما كان ابو على الحسن بن ابي الرجال ينتسب اليهم
واليه رفع الكتاب .

ثم يذكر فصلا يذكر فيه ملوك العرب أيضا ويعتمد فيه على
ما ينقل من ابن قتيبة ويصرح بذلك في صدر الباب .

ثم يذكر بابا عن عتاق الخيل ومذكوراتها ويبدأ فيه بذكر
خيول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكر السكب وهو فرسه
يوم أحد - كما ذكر ابن قتيبة أيضا ويذكر المرتجز واللاز
والضرب ويذكر بغلته صلى الله عليه وسلم المشهورة باسم
« دلدل وحمارة يعفور ، وركائبه القصوى والجداء والعضاء »

ثم يعقد بابا لمنازل القمر ويسميها منزلة منزلة وانه فعل ذلك
لما رأى العرب أعلم الناس بهذه المنازل وان اختلف عليها المحدثون
وأخطأوا فيها .

ثم يذكر السنة وأنواءها وأجزاءها ، فهي أربعة أجزاء ولكل
جزء سبعة أنواء لكل نوء ثلاثة عشر يوما الا نوء الجبهة فهو
أربعة عشر يوما .

ثم يتطرق الى .. باب في معرفة الأماكن والبلدان - فالحجاز
ما بين الحجة وجبلى ضيء ..

وأما الجزيرة فما بين دجلة والفرات .. وجزيرة العرب في

الطول ماين حفير ابى موسى الى اقصى اليمين ، وفى العرض ماين
يبرين الى السماوة ..

وسمى العراق بذلك تشبيها بعراق المزايدة ، وهو موضع الخرز
المستطيل فى أسفلها ..

وأما الشام واليمن فمن اليد اليمنى واليد الشؤمى وهى
الشمال .. ومنهم من جعل الشام جمع شامة وهى النكتة تكون
فى الجسم سوداء أو نحو ذلك ، وكذلك فى الأرض قال ذو
الرمة :

وان لم تكونى غير شام بقفرة
تجر بها الأذيال صيفية كدر

ذلك هو ابن رشيق فيما وراء النقد فى كتابه العمدة - وكله
أو أكثره مأخوذ من ابن قتيبة فى كتبه .

أما عن قدامة بن جعفر فانه ينقل كثيرا فى الأبواب المتصلة
بالنقد والبلاغة ونقله من الكثرة بحيث لا يمكن الاتيان على جميعه
ولذلك نجتزئ بالاشارة لى مواطن اتصاله به اتصال نقل عنه أو
معارضة له . فمن ذلك انا نرى تعريفه الشعر يشبه تعريف قدامة ،
ويمكن مقارنة التعريفين أحدهما بالآخر لنستبين ذلك . كما يتحدث
ابن رشيق عن المطابقة فيحكى فيها تعريفا لها ويذكر أن جميع
الناس على ذلك التعريف الاقدام ، ودلالة هذا أنه اطلع على ما

كتب قدامة فى نقد الشعر ، وان لم يرض بعض ماكتب .. ولذلك يناقشه فيقول .. واما قول قدامة : المطابق هو ما اشترك فى نقطة واحدة بعينها فانه ايضا مساواة لفظ للفظ .. وهى - اعنى المساواة على رأى الخليل والأصمعى - مساواة معنى لمعنى « (١) . وكذلك يتحدث ابن رشيق عن المقابلة ويذكر رأى قدامة فيها ويناقشه أيضا (٢) ومثل ذلك نرى له فى باب التسميم الذى يسميه قدامة التوشيح (٣) ، وفى باب الالتفات - أما فى باب النسب فانه يقول : « وينبغى أن يكون قصد الشاعر فى مدح الكاتب والوزير ما اختاره قدامة (٤) .

وتعريف ابن رشيق للرثاء هو تعريف قدامة وان لم يشر الى ذلك - وأخيرا ينقل عنه فى تعريف المعاملة (٥) .

وهكذا يكون قدامة بن جعفر مصدرا اطلع عليه ابن رشيق وقبل منه ورفض له ورد عليه ، فعل من يجعل عقله وراء ما يقرأ وما ينقل .

وكذلك اتصل ابن رشيق بالجرحاني من طريق كتابه الوساطة فنقل عنه انه قال « الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع

(١) المدة ج ٢ ص ٧٠

(٢) المدة ج ٢ ص ١٥٠

(٣) المدة ج ٢ ص ٣٠٠

(٤) المدة ج ٢ ص ١٢٨٠

(٥) المدة ج ٢ ص ٢٥٠

والرواية والذكاء ، ثم تكون الدرجة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه » (١) .

وينقل عن رأيه في المحدث والقديم وانه يقول « ولست أفصل في هذه القصيدة بين القديم والحديث ، والجاهلي والمخضرم ، والأعرابي والمولد ، الا اني ارى حاجة المحدث الى الرواية أمس وأجده الى كثرة الحفظ أفقر ، فاذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العربي الا رواية ، ولا طريق للرواية الا السمع ، وملاك السمع الحفظ » .

ولم يكن صاحبنا لتفوته قراءة كتب الجاحظ ، وهو قد نقل عنه في الحديث عن البلاغة (٢) وفي باب النظم (٣) ، وأعجبه قوله « طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه ، فرجعت الى لاخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والانساب ، فلم أظفر بما أردت الا عند ادباء الكتاب كالحسن بن ذهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات » (٤) ويحمله الاعجاب بكلمة الجاحظ على أن يعقد في كتابه العمدة بابا يختار

(١) العمدة ج ١ ص ١٠٠/٩٩ .

(٢) العمدة ج ١ ص ٢٢٠ .

(٣) العمدة ج ١ ص ٢٢٨ .

(٤) العمدة ج ٢ ص ١٠٠ .

فيه من أشعار الكتاب ، مؤكداً بذلك رأى الجاحظ فيما ذهب إليه من تفضيل أشعار الكتاب .

وممن أخذ عنهم كثيراً الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ فإنه ينقل عنه أبواب الإيجاز (١) والبيان (٢) والاستعارة وانها استعمال العبارة على غير ما وضعت فيه (٣) .. وان الاستعارة الجميلة ما أُوخيت بلاغة ببيان لا تنوب منابه الحقيقة (٤) . كذلك يتابعه فى باب التشبيه ، ويعقب عليه حين يقول : « وأما ما شرطه الرومانى فى التشبيه فهو الحق الذى لا يدفع الا انه قد حمل على الشاعر فيما أخذ عليه - يريد عيب الرمانى على من قال :

صدغه ضد خده مثل ما الوعد

د اذا ما اعتبرت ضد الوعيد

من قبل أنه شبه الأوضح بالأغمض وما تقع عليه الحاسة بما لا تقع عليه ،

ويوجه ابن رشيق ذلك التشبيه فيقول : قصد الشاعر أن يشبه ما يقوم فى النفس دليلاً بأكثر مما هو عليه فى الحقيقة كأنه أراد المبالغة .. ثم يمضى الرجل فيورد حجج المحتج للرمانى ويرد .. مثبتاً بذلك أنه لا يتعصب للرأى ، ولكنه يناقش حتى يقنع أو يقتنع ، وذلك حيث يقول : ولعله يقول - أى الرمانى - أو يقول المحتج

(٣) المدة ج ١ ص ٢٤١ .

(٤) المدة ج ١ ص ٢٤٢ .

(١) المدة ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) المدة ج ١ ص ٢٢٥ .

له : معرفة النفس والمعقول أعظم من ادراك الحاسة لاسيما وقد جاء مثل هذا في القرآن وفي الشعر الفصيح ، قال الله عز وجل : طلّعها كأنه رءوس الشياطين .. فقال قوم : ان شجرة الزقوم وهى أيضا الاستن لها صورة منكرة وثمره قبيحة يقال لها رءوس الشياطين وقال قوم الشياطين : الحيات فى غير هذا المكان ، والأجود الأعراف أنه شبه بما لا يشك أنه منكر قبيح لما جعل الله عز وجل فى قلوب الناس من بشاعة صور الجن والشياطين فخوفنا تعالى بما أعد للعقوبة، وشبهه بما نخاف ان نراه ، ثم راح الرجل يحتج للمذهب الصحيح بقول امرىء القيس :

أَيَقْتَلْنِي وَالْمُشْرِفِي مُضَاجِعِي
وَمَسْنُونَةُ زَرْقِ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وانه شبه نصال النبل بأنياب الاغوال لما فى النفس منها ،
وبقول ابى تمام :

وأحسن من نور يفتحہ الندى بياض العطايا فى سواد المطالب
وقول أعرابى قديم :
يزملون حديث الضغن بينهم والضغن أسود أوفى وجهه كلف
وقول بعض المولدين :

وتدير عينا فى صفيحة فضة كسواد يأس فى بياض رجاء
فاليأس على الحقيقة غير أسود ، لأنه لا يدرك بالعيان ، لكن

مبوره فى المعقول وتمثله كذلك مجاز ، والرجاء ايضا علم هذا
التقدير فى البياض «(١)

وانما سقت هذا المثل من اتصال ابن رشيق بسابقه ومعاصريه
ليرى القارئ معنى كيف كان هذا الرجل يناقش الآراء ، ويصح
لما يعتقد انه الصواب ، الأمر الذى يدل على شخصية تحسّم
الى المنطق السليم قبل أن تصدر الحكم فيما تتعرض له ، ومن ثم
جاءت آراؤه وأكثرها مما يقتدى به الخالفون ، ويستشهد بها
الذين يكتبون فى النقد الفنى ، حتى لقل أن تجد كتابا فى هذا
الفن لم يكن العمدة بعض مراجعه .

وعلى هذا النمط نراه يذكر ابن المعتز وينقل عنه فى أبواب
التجنيس (٢) والالتفات (٣) والاستثناء (٤) ، وفى باب المذهب
الكلامى (١) كما ينقل عن عبد الكريم النهشلى وعن الحاتمى وعن
الأصمعى ، ولكنه كما تقدم نقل يتحكم فيه بصر بالنقد وأصوله
ومعرفة بمذاهب القول وفنونه فاذا هو يناقش ويرد ويرفض سلما
يقبل أو يرتضى عن بينه واقناع واقتناع .

(٢) العمدة ج ١ ص ٢١٣ .

(٤) العمدة ج ٢ ص ٤٥ .

(١) العمدة ج ١ ص ٢٥٧ .

(٣) العمدة ج ٢ ص ٤٤ .

(١٤) العمدة ج ٢ ص ٧٥ .

الفضل السائس

ابن رشيق الشاعري

إذا كان الحديث قد طال عن ابن رشيق الناقد ، فلأن ذلك الجانب من جهوده وإنتاجه هو الذي عرفته به الدراسات الأدبية في كتابيه العمدة أولا ، وقراضة الذهب ثانيا .

إن هذا الجانب قد غطى على جانب آخر لا يقل عنه في حياة ابن رشيق ، وأعني به جانب الشعر ، فإن فيه جهودا وإنتاجا يدلان على شاعرية ممتازة .

ومع أننا لم نقف له على ديوان يضم شعره ، ومبلغ علمنا بهذا الصدد أن هناك قطعة من ديوانه في مكتبة اسكوريال ، فقد وقفنا على بعض إنتاجه من الشعر ، وجدناه فيما تناثر في كتابه العمدة ، وفيما ذكرته كتب التراجم حين تعرضت له أو لتاريخ عصره أو لتاريخ معاصريه ، وتجمعت من ذلك كله جملة صالحة لدراسة هذا الجانب في حياة ابن رشيق. وقد جمع من ذلك الشعر المنشور في مطاوي الكتب أحد علماء العصر - وأعني به الميمنى - وذلك في كتابه الذي سماه الننف من شعر ابن رشيق وابن شرف ، وقد استعنت به كثيرا وانتفعت في هذا الباب .

وإذا كنا نعقد هذا الباب لاستجلاء صورة ابن رشيق

الشاعر ، بعدما استجلبنا بن رشيق العالم الناقد ، فانا نقرر بين يدي هذا الباب أن الرجل عاش اخريات القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس . وتتسم هذه الفترة وما قبلها بأنها فترة الدويلات العربية .

ذلك أن الدولة العربية الكبرى والتي كان مركزها في الشرق ، وكانت جميع الدويلات في الغرب تبعا لها تستمد منها وتؤول اليها في جميع شئونها ، هذه الدولة قد أصابها الضعف السياسى الذى اطمع فيها ولايتها ، فراح كل وال يستقل بولايته ، وبما تحت يده ، ويتخلص من التبعية لبغداد العاصمة الأم للدولة العربية في صورتها الكبرى . فقامت في الشرق وفي الغرب دويلات صغيرة ، تسامى دولة بغداد ، وتشبه بها حتى قال قائلهم :

مما يزهـدنى فى أرض أنـدلس
تلقـيب معتمد فيها ومعتـضـف
ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالهـر يحكى اتفـاخا صولة الأسد

وقد اسبقنا كيف قامت دولة العبيدين في شمال افريقيا ، وكيف استقلت عن الخلافة العباسية ، ودعت لنفسها في المغرب وفي مصر ، كما اسبقنا ان المعز بن باديس انفصل هو الآخر عن الدولة العبيدية أو الفاطمية كما كانت تتسمى لما تركزت فى مصر واتخذت من القاهرة المعزية عاصمة لها . ومثل ذلك كان في الشرق وفي الأندلس على حد سواء .

وكان المتوقع ان يتبع ذلك الضعف السياسى ضعف علمى وأدبى ولكن استعراض الحركات العلمية فى هذه الدويلات يؤكد أن ضعف مركز الدولة السياسى لم يؤثر على النهضة العلمية ، بل ربما كان هذا الانفصال سببا من اسباب ازدهار الحركة العلمية والأدبية فى العالم العربى بوجه عام . ذلك ان كل من استقل بالحكم فى رقعة من رقع الدولة كان يجعل من نفسه خليفة ينافس الخليفة العباسى فى بغداد ، أو فى الأقل يتشبه به ، فيخلق حول نفسه عرشا كعرش الخلافة ، وبلاطا كبلاط الخليفة ولا يكون بلاط بغير علماء وأدباء وشعراء ، يجزل لهم العطاء ويغدق عليهم المنح ، ويبالغ فى اكرامهم كما يفعل الخليفة العباسى فى بغداد ، وقد كان من ورء ذلك كله أن يتبارى العلماء والشعراء فى اثبات وجودهم عن طريق البحث والدرس والعلم والشعر .

وقد رأينا كيف كانت الحركة العلمية والأدبية فى المغرب ومدنه ، القيروان والمهدية ، وفى جزيرة صقلية على عهد ابن رشيق ، ورأينا كيف اجتمع من الشعراء فى قصر المعز ثم فى قصر ابنه تميم أمثال صاحبنا ابن رشيق وصاحبه ابن شرف ، وأحمد بن حمدىس الصقلى وغيرهم كثيرون ذكر منهم ابن رشيق فى كتابه الذى سماه أنموذج الزمان فى شعر القيروان . ومثل ذلك ما صنع صاحب شعراء المهدية .

فاذا اضمنا الى ذلك أن الخلفاء ، أو الولاة ، أو الوزراء ، أو

الحكام كانوا هم انفسهم ادباء وعلماء تبيننا أسباب هذه النهضة الأدبية والعلمية فى تلك الدويلات النامية .

وفى المغرب كان المعز أدبيا يتذوق الشعر ويجزل العطاء عليه ، وكان ابنه تميم شاعرا يقول الشعر ويقرب الشعراء وقد عاش فى كنفه ابن رشيق وابن شرف مدة بعد الغارة على القيروان كما اتجمع حضرته أمثال ابى سحق بن خفاجة وعبد الله عبد الجبار الطرطوسى والفكيك وكلهم شعراء مبدعون ، وجدوا فى تميم رجلا يقدر الشعر ويقدرهم .

فى مثل هذه البيئة ، وفى هذا الجو عاش ابن رشيق ، وكان رجلا موهوبا منذ نعومة أظفاره ، الأمر الذى حدا به أن يسم شطر القيروان وهو بعد حدث صغير ، والا فما كان لابن صائغ الذهب ، ولمن نشأ فى هذه الصناعة منذ الطفولة المبكرة ، أن يتطلع الى حياة الاغتراب فى القيروان بعيدا عن أسرته فى المسيلة ، لولا الرغبة منه فى اشباع نهمه الى الأدب ، ولولا ان له فطرة ألحت عليه ، ودفعت به الى مركز الشعر والشعراء والأدب والأدباء ، مدينة القيروان .

وقد رأينا كيف روت الروايات انه اجتمع بالشعراء منذ الحداثة ، ولما يبلغ الرشد ، حتى أنكر عليه مثل ذلك بعض المحدثين الذين ارخوا له ، وقد ردنا على اعتراضهم بأن لنبوغ لا يعرف المؤلف وانما هو دائما شذوذ .

ولكى تستبين شاعرية ابن رشيق فانا نراه يسوق في حديثه
 من شعر الشعراء اذا هو يسوق لنفسه من شعره واتساجه ،
 وكأني به يحس انه لهم ند ونصير ، وكثر صنيعه هذا بالنسبة
 للمتنبى والبحترى وابن الرومي ، الأمر الذي أميل معنه
 الى أن الرجل كان يعرف من نفسه انه شاعر خليق بأن يستشهد
 بشعره ، وبأن يوضع في مصاف أولئك الذين دوت أسماؤهم في
 مجال الشعر العربي . وبنا ان ننظر في ذلك .

بينه وبين المتنبى

ويبدو أن اعجاب ابن رشيق بشعره ودالته بقريضه ، جعلاه
 يرى نفسه في المغرب كما كان المتنبى في المشرق ، واذا كان هو
 لا يصرح بذلك ، فان مساق حديثه في مواضع من كتاب العمدة
 يشير الى هذا ، ولو من طرف خفي ، وربما أكد ذلك الذي أذهب
 اليه ما جاء في الذخيرة لابن بسام اذ يقول : « وحدثت أن أبا علي
 ابن رشيق ناجى نفسه بمعارضته أبي الطيب المتنبى في بعض
 اشعاره ، وراطن شيطانه بالدخول في مضماره ، فأطال الفكرة ،
 وأعمل النظرة ، فأداه جهده ، وذهب به تقده الى معارضة

أمن ازديارك في الدجى الرقباء

اذ حيث أنت من الظلام ضياء

مشى المليحة وهى مسك هتكها

ومسيرها بالليل وهى ذكاء

فبث عيونه ، واستمد ملائكته وشياطينه ، ثم صنع قصيدة
 - فيما بلغنى - رأى أنها مادة طبعه ، ومنتهى طاقة وسعه ، ثم
 حكم نقده ، ورضى بما عنده ، فرأى أن قصرت يده ، وقصر
 مداه ، وأن الاحسان كنز لا يوجد بالطلب ، وميدان لا يستولى
 عليه بالتعصب ، وصان نفسه عن أن يتحدث عنه بأن
 الهرة أحزم منه^(١) وهكذا يكون ابن رشيق طاوول المتنبي وان يكن
 هذا طاله ، وحدثته نفسه بأن يعارضه - وهو الناقد الذى يعرف
 اقدار الشعراء - ثم كف ، ولولا أنه كان يجد من نفسه شجها
 بالمتنبي لما فكر فى المعارضة .

على اننا حين ننظر فى كتابه العمدة نراه وكأنه ينطق بما تجن
 نفسه من الشبه بينه وبين صاحبه فهو يقول : وقد ذكر ابو الطيب
 الخيل فى كثير من شعره ، وكان يؤثرها على الابل لما يقوم فى
 نفسه من التهيّب بذكر الخيل وتعاطى الشجاعة ، فقال يذكر قدومه
 على مصر ، على خوف من سيف الدولة :

ويوم كليل العاشقين كمنته	من الليل باق بين عينيه كوكب
وعينى الى أذنى أغسر كأنه	أراقب فيه الشمس ايان تغرب
له فضلة عن جسمه فى اهابه	تجىء على صدر رحيب وتذهب
سبقت به الظلماء أدنى عنانه	فيطغى ، وأرخيه مرارا فيلعب
وأصرع أى الوحش قفيته به	وأنزل عنه مثله حين أركب

(١) الذخيرة - القسم الرابع - المجلد الاول ص ١٥٠

وما الخيل الا كالصديق قليله وان كثرت في عين من لا يجرب
اذا لم تشاهد غير حسن شياتها واعضائها فالحسن عنك مغيب
يذكر ابن رشيقي ذلك الشعر للمتنبى في وصف الخيل - وهو
لا يرى نفسه دونه ، فيقدم لنا نموذجا من شعره في الموضوع
ذاته ، ولكنه يتواضع فيقول : وقد قلت أنا وان لم أدخل في جملة
من تقدم ولا بلغت خطته - قصيدة اعتذرت بها الى - مولانا
خلد الله ملكه - من طول غيبة غبتها عن الديوان :
اليك يخاض البحر فعما كأنه

بأمواجه جيش الى البر يزحف
ويبعث خلف النجح كل منيفسة
تريك يداها كيف تطوى التنايف
من الموجفات اللاء يقذفن بالحصى
ويرمى بهن المهممه المتقاذف
يطير اللغام الجعد عنها كأنه
من القطن أو ثلج الشتاء ندائف
وقد نازعت فضل الزمام ابن نكبة
هو السيف لا ما أخلصته المشارف
فكيف ترانى لو اعنت على الغنى
بجد ، وانى للغنى لمشارف
وقد قرب الله المسافة بيننا
وانجز في الوعد الزمان المساوف

ولولا شقائي لم أغب عنك ساعة
ولا رام صرفى عن حياتك صارف
ولكننى أخطأت رشدى فلم اصب
وقد يخطئ الرشد الفتى وهو عارف

ثم بقول فى عقب ذلك الشعر الذى يصف فيه الناقة بينا
وصف المتنبى الفرس وكأنه يريد ان يقول انه يستطيع أيضا أن
يصف الفرس كالتنبي - يقول : ومن قصيدة صنعتها بديهة
بالمهدية ساعة وصولى اليه - أدام الله غزه - عن اقتراح بعض
شعرائنا :

وذىال له رجل طحون لما نزلت به ويد زجوج
يطير بأربع لا عيب فيها لظهران الصفا منها عجيج
خرجت به عن الأوهام سبقا وقل له عن الوهم الخروج
الى الملك المعز أبى تميم أمر بمن سواه فلا اعيج
وفى موضع آخر يتحدث عن البلاغة فيذكر قول السيد
أبى الحسن فى صفة كاتب بالبلاغة وحسن الحظ :

إذا مشقت يمينك فى الطرس اسطرا
حكيت بها وشى الملاء المنضمة
يروق مجيد الخط حسن حروفها
ويعجب منها بالمقال المسدد

ثم يقول : وهذا الشعر كالأول - يريد أيبانا لأبي الحسن
أيضا - وإن أبا الحسن لكما قال سميه أبو الطيب خاتم الشعراء

عليه بأسرار الديانات واللغة
له خطرات تفضح الناس والكتبا

وأخيرا يقول : - بل كما قال ولي نعمته ، وشاكر منته- يريد

نفسه :

اني لأعجب كيف يحسن عنده
شعر من الأشعار مع احسانه
ماذاك الا أنه در النهي
يفد التجار به على دهقانه

فاذا كان ابن رشيق يذكر شعر ابي الحسن بن ابي الرجال ،
ثم يذكر في عقيقه شعرا للمتنبي على أنه سميه ، فانه اذا ذكر بعد
ذلك شعرا لنفسه ، فليس الا لأنه يعتبر ذلك الشعر سميا أيضا
لشعر المتنبي .

ويؤكد ما يعتدل في نفس ابن رشيق من شبه شعره بشعر
المتنبي ان يقول بعد بيتيه السالفين : استغفر الله ، لا أجحد
أبا الطيب حقه ولا أنكر فضله وقد قال :

ملك منشيد القريض لديه
يضع الثوب في يدي بزاز

فمثل هذا الحديث لا يصدر عن ابن رشيق ألا وهو بينه وبين نفسه مقتنع بأنه متنبى المغرب والا فما الذى يخطر على باله أن يستشهد بشعره ، كلما استشهد للمتنبى بيت أو أبيات ، إن الأفكار تستثار بعلاقات كثيرة ، من بينها علاقة التشابه كما يقول علماء النفس ، وهذه هى العلاقة التى تحمله على أن يقرن شعره فى مواطن كثيرة من الكتاب بشعر المتنبى ، فاذا نحن ذهبنا الى أنه كان يرى نفسه هو متنبى المغرب فلسنا بمسرفين على الحقيقة .

على أن النظر الفنى فى شعر ابن رشيق يؤدى الى الحكم بأن له ديباجة كديباجة المتنبى وهذه أبياته المتقدمة فى وصف الناقة والأخرى فى وصف الفرس تؤكد ما اقول فان فيها من بحسالة الألفاظ وفخامتها وجزالتها ، ثم فيها من احكام التراكيب وتساق الجمل ، والتحام اجزائها بعضها ببعض ما يشهد بشاعرية متمكنة تؤثر جزل القول ، وتقرض الشعر رزينا رصينا مسرفا فى الجزالة حتى ليحسب قارئ شعره فى وصف الناقة أنه يقرأ لشاعر جاهلى فضلا عن ان يحسبه لشاعر كالمُتنبى ، واقرأ معى قافية يتيه :

من الموجفات اللاء يقذفن بالحصى
ويرمى بهن المهمه المتقاذف
يطير اللغام الجعد عنها كأنه
من القطن أو ثلج الشتاء تدانف

قال ابن رشيق لو قرن مثل هذا الشعر بشعر طرفه في الناقة
لما كان عندي مسرفا ولا مبالغا .
وانظر في أبياته في وصف الحصان وكيف اختار صيغة فعول
في قوله :

وذيال له رجل طحون لما نزلت به ويد زوج
فانه اختيار يدل على بصر بمواقع القول ، واهتداء الى أوفق
الكلمات للمعاني ، ثم انظر الى الصورة الفنية والخيال البارع
الذي يتسمع لصوت الحصا يتناثر من حوافر الحصان فاذا هو
وله صوت يعج عجيجا وذلك حيث يقول :

يطير بأربع لا عيب فيها لظهران الصفا منها عجيج
ثم كيف جعله يطير ، فهو لا يمشی ولا يعدو ولا يجرى ولا
يسير ، وانما يطير ، ولا يقال الوزن فان كلمة يسير مثل يطير ،
ولكنه القصد الى السرعة واختيار الكلمة المناسبة لذلك .
ومثل ذلك الابداع لابن رشيق ، والقرب من المتنبي حين

قرن قوله :

انى لأعجب كيف يحسن عنده البيت
بقول المتنبي :

ملك منشد القريض لديه البيت
فلولا أن المتنبي سبق ، وأنه أتى على المعنى في بيت وأتى عليه
ابن رشيق في بيتين مع تأخره لما نزلت بصاحبى عن المتنبي درجة .

وكما تحسس ابن رشيح من نفسه أنه كالمثني أو قريب ، فانه
رأها كالبحترى أيضا فقد ذكر له قوله في العتاب :

يريبني الشيء تأني به وأكبر قدرك أن استريا
وأكره أن اتمادى على سبيل اغترار فألقى شعوبا
اكذب ظني بأن قد سخطت وما كنت أعهد ظني كذوبا
ولولم تكن ساخطا لم أكن اذم الزمان واشكو الخطوبا
ولا بد من لومة اتحي عليك بها مخطئا أو مصيا
الى أن يقول :

أراقب رأيك حتى يصح فأنظر عطفك حتى يسوبا
ثم اتبع ذلك بقوله : وقد نحوت أنا هذا النحو في كلمة
عابت بها القاضي جعفر بن عبد الله الكوفي قلت فيها :
وقد كنت لا آتي اليك مخاتلا
لديك ولا أثني عليك تصنعا
ولكن رأيت المدح فيك فريضة
على اذا كان المديح تطوعا
فقتت بما لم يخف عنك مكانه
من القول حتى ضاق مما توسعا
ولو غيرك الموسوم عنى بريية
لأعطيت منها مدعى القول ما ادعى

فلا تتخالجك الظنون فانها
 مآثم ، واترك فى الصنع موضعا
 فوالله ما طولت باللوم فيكم
 لسانا ولا عرضت للذم مسمعا
 ولا ملت عنكم بالوداد ولا انطوت
 جبالى ولا ولى ثنائى مودعا
 بلى ربمما أكرمت نفسى فلم تهن
 واجللتها عن ان تذلل وتخضعا
 ولم أرض بالحظ الزهيد ولم أكن
 ثقيلا على الاخوان كلا مدفعا
 فباينت لا أن العداوة باينت
 وقاطعت لا أن الوفاء تقطعا
 ألوذ باكتساف الرجاء وأتقى
 شمات العدا ان لم أجديك مطمعا

وواضح ما بين الشعرين من وحدة النهج ، والتشابه فى
 المعانى ، والدخول الى نفس المعتوب عليه ، واستعراض كلا
 الشاعرين لموقفه من صاحبه مع احكام الجمل وتناسق الفق
 والعبارات . ولو رحنا نحلل ابيات القطعتين لرأينا الشبه الكبير
 حتى لو نسبتنا الى قائل واحد ما ساور نفسك شك فى النسبة
 وهل فرق بين قول الأول :

أراقب رأيك حتى يصح وانظر عطفك حتى يسوبا
وقول الآخر :

ألوذ بأكتساف الرجاء وأتقى
شحات العدا ان لم اجد فيك مظمعا

الى غير ذلك مما تسلل به كل منهما الى نفس صاحبه .

بينه وبين غير المتنبى والبحتري

وكما رأيناه يلحق شعره بشعر المتنبى ، والبحتري ، فانه أيضاً
يلحقه بأشعار غيرهما ، ولا ذلك الا لما يرى فيه من قوة الشاعرية
التي يستبيح معها أن يضع نفسه بين الشعراء كواحد منهم فيقول
وهذا ابن المقفع جعل من السكوت بلاغة ، وقال بعض الكلبيين :
واعلم بأن من السكوت ابانة ومن التكلم ما يكون خيالا
ثم يقول - وقلت أنا في ذلك :

وأخرق اكال للحم صديقه وليس لجارى ريقه بمسيح
سكت له ضنا بعرضي فلم أجب ورب جواب في السكوت يبلغ
وقلت أيضاً :

أيها الموحى الينا نفثة الصل الصموت
ما سكتنا عنك عيا رب نطق في السكوت

فهو لا يرى نفسه دون الشعراء ، وإنما هو مثلهم فيما
يعرضون له من المعاني

ويحكى ابن رشيق بيت امرئ القيس :

إذا ما ركبنا قال ولدان حيناً
تعالوا الى أن يأتنا الصيد تحطب

ثم يقول - نقله ابن مقبل الى القدح فقال :

إذا امتحتته من معد عصاة
غدارية قبل الافاضة يفسد

ونقله ابن المعتز الى البازي فقال :

قد وثق القوم له بما طلب
فهو اذا عرى لصيد واضطرب

عروا سكاكين لهم من القرب

يقول - ونقلته أنا الى قوس البندق فقلت :

طير أبابيل جاءتنا فما برحت	الا وأقواسنا الطير الأبابيل
ترميهم بحصى طير مسومة	كأن معدنها للرمل سجيل
تعدو على ثقة منى بأطيها	فالنارتقدح والطنجير مغسول

وقد ابدع الرجل في صفة القوس والصيد والقنص ولولا كلمة
الطنجير لكانت أبياته في ذروة ما نقرأ لهم في هذا المعنى ، على أن

الكلمة الطنجير اسم للوعاء وما كانت له مندوحة من استعمالها كما
استعملت العرب الأوائل كلمات غير عربية لما اضطرتهم الحياة الى
استخدام مدلولاتها .

ذلك هو ابن رشيق ، وما يضع نفسه بين الشعراء ، وشعره
مع الشعر . فما هو بأقل منهم ، ولا شعره دون شعر فحولهم .
وعندى أنه لم يبالغ ، ولم يتجاوز بشعره قدره ، ومع ان ما فى
ايدينا منه قلة الا انها قلة تدل على انه شعر يسمو بصاحبه الى
حيث كان يتطلع من ان يجدها فى صفوف المجيدين من الشعراء .
وسأعرض من قوله فى الأغراض المختلفة مايقوم شاهدا ودليلا
على شاعريته .

هو فى الوصف :

واذا كان هو نفسه يقول « الشعر الا أقله راجع الى الوصف
ولا سبيل الى حصره واستقصائه » فانى أقول انه قال فى هذا
الباب ما لا تتسع هذه السيرة لحصره أو الاتيان على جميعه ، فهو
قد وصف أكثر ما وقع له فى حياته ، وصف الطبيعة فى البحر
والقفر ، والليل والنهار ، ووصف الحيوان والطيور والدواب
والهوام ، ووصف النبات والزهور والرياحين والفواكه ، وصف
مجالس الشراب ، واجتماع الندمان ، وما يدور بينهم من مداعبات
وأحاديث ، وأكبر ظنى ان لو وصل الينا كل شعره او جله لكان
بين ايدينا ديوان ضخم ، فان ما وصلنا على قلته يشير الى شاعر

ملك زمام القول ، وتمكن من رسن اللغة ، وسلس في يده عنانها
واليك بعض ما يشهد لذلك :

(١) وصف الطبيعة :

١ - وصف ابن رشيق الطبيعة في الشتاء وما تكون من
تجهم السماء ، وانتشار السحاب والعيوم ، وما يصاحب ذلك من
البرق والمطر فقال :

خليلى هل للمزن مقلة عاشق
أم النار فى أحشائها وهى لا تدرى
سحاب حكّت ثكلى أصيب وحيدها
فعاجت له نحو الرياض على قبر
ترقق دمعها فى حدود توشحت
مطارفها بالبرق طرزا من التبر
فوشى بلا رقم ونسج بلا يد
ودمع بلا عين وضحك بلا ثغر

وهى صورة طريفة اعمل فيها الشاعر خياله ، وتساءل فيها
تساؤل الجاهل عن المزن وهل لها مقلة تسج ، وهل الرعد فى
أحشائه نار تتراءى ؟ ثم شبه السحاب بالثكلى فقدت وحيدها
فدمعها عليه مدرار الى آخر ما يجد الناظر فى الايات من الابداع
الفنى الذى لا يشبهه الا قول ابن الرومى فى مثل ذلك .

٢ - ووصفها عند مطلع الفجر وابدع في ابراز الصورة مع الاختصار فقال :

كأنما الصبح الذي تفرى
ضم الى الشرق النجوم الزهرا
فاختلطت فيه فصارت فجرا

٣ - ووصف البحر ، وقد اشتدت الرياح فيه وعصفت، وعلت الأمواج وارتطمت بالسفين ، والليل يغشى بظلامه كل شيء فقال ولم ينس محبوبته برغم ذلك كله :

ولقد ذكرتك في السفينة والردى
متسوق بتسلاطم الأمواج
والجو يهطل والرياح عواصف
والليل مسود الذوائب داج

٤ - ووصف الارتحال وقطع المفاوز متفردا من الأصحاب والرفيق فقال :

وماء بعيد الغور كالنجم في الدجى
وردت طروقا أو وردت مهجرا
على قدم أخت الجناح وأخمص
يخال حصا المعزاء جمرا مسعرا
فريدا من الاصحاب صلتا من الكسا
كما اسلم الغمد الحسام المذkra

وكأنى به اشتق الفاظه من وعورة البادية ، وصلابة صخرها ،
 وشدة حرها حتى لو نسبت الأبيات لشاعر عاش في الصحراء ،
 لا في بلاط المعز - ما أنكر الحسن اللغوى نسبتها - ولكن ابن
 رشيق وما ملك من غريب اللغة وجزلها . وما أبدع كتابته عن
 ركوبته وأنها أخت الجناح ، وما احسن تشبيهه بفرده بالحسام
 اسلمه غمده ...

هـ - ووصف طول الليل وما يكون من بطل تقضيه على
 المهجور وذلك في قوله :

أقول كالمأسور فى ليلة ألفت على الآفاق كلكالها
 يا ليلة الهجر التى ليتها قطع سيف الهجر أوصالها
 ما أحسنت حسنا ولا أجملت هذا وليس الحسن الا لها

واذا كان ليل المهجور طويلا ، فان ليل العاشق الواصل جدا
 قصير ولذلك يقول فى الليل ذاته لكن الحال غير الحال :

أيها الليل طر بغير جناح ليس للعين راحة فى الصباح
 كيف لا أبغض الصباح وفيه بأن عنى أولو الوجوه الصباح

(ب) وصف الحيوان :

١ - وصف زرافة جاءت للمعز بن باديس هدية من مصر
 فأبدع فى وصفها ، ووصفها غير شائع عند العرب اذ لم تكن من
 حيواناتهم ، ولأنه يقول فيها على غير مثال يحتذى فانه يقول عند

ذكر الأبيات : ومن الأوصاف القليلة المثل قول رؤية يصف الفيل
وقولى فى زرافة أتت فى الهدية من مصر (١) :

وأنتك من كسب الملوك زرافة
جمعت محاسن ما حكت فتناسبت
تحتثها بين الخوافق مشية
وتمد جيدا فى الهواء يزينها
حطت ما خرها وأشرف صدرها
وكان فخر الطيب ما رجمت به
وتخيرت دون الملابس حلة
لونا كلون الزبل الا أنه
أو كالسحاب المكنهرة خيطة
أو مثل ما صدئت صفائح جوشن
نعم التجافيف التى ادرعت به
وقال فيها أيضا :

ومجنسوبة أبدا لم تكن
قد اتصل الجيد من ظهرها
ملمعة مثل ما لمعت
كأن الجنوارى كنقنها
مذلة الظهر للراكب
بشل السنام بلا غارب
بحناء وشى يد الكاعب
لخالج من كل ما جانب

(١) العمدة ج ٢ ص ٢٨١ .

والإبداع في هذا الوصف أنه غير مسبوق إليه، ولا يقال عنه:
مقلد فيه كمثل ما يمكن أن يقال في وصف الخيل أو الأبل أو
ما ألفت العرب أن تقول فيه . ومع ذلك فقد بلغ غايته في تصوير
خلقها ولونها وامتداد عنقها وارتفاع يديها على رجليها ، وتخطيط
جلدها ، وفي كل ذلك كان يشبه فيوفق في التشبيه .

٢ - ووصف الناقة في خلال آيات اعتذر فيها عن غيبته عن
المعز ، وقد تقدمت وحظ الناقة فيها ثلاثة الآيات التي يقول فيها :

ويبعث خلف النجج كل منيفة
تريك يداها كيف تطوى التنائف
من الموجعات اللائي يقذفن بالحصا
ويرمى بهن المهممه المتقاذف
يطير اللغام الجعد عنها كأنه
من القطن أو ثلج الشتاء ندائف

٣ - ووصف البغل في أكثر من موضع ، فقال في بغلة ركبها
وكانت يابسة الظهر غير وطيفة ولا مريحة :

كأنى بعض نجوم السماء تصعد في الجو ثم انحدر
على رسالة من هبات الملوك سفواء ملمومة كالبحر
تعاون في جدل أعضائها بنو أحذر وبنات الأغر

يريد بيته الأخير أن قد شارك في انسالها حمار وفرس .

وقال فيها أيضا :

إذا أقبلت أقعت وإن أدبرت كبت
وتعرض طولا في العنان فتستوى
وكلفت حاجاتي شبيهة طائر
إذا انتشرت ظلت لها الأرض تنطوى
(ح) وصف الفواكه والزهور :

ولها من شعر ابن رشيق نصيب موفور يدل على تعلق بالقول
فيها فقد وصف النارج والبفسج والأترج والتفاح والشقيق
وغيرها .

١ - يقول في البفسج :

بنفسج جاءك في حين لا
كأنه لما أتينا به
حر يرى ولا فرط برد
منفس الاثواب في اللازورد

٢ - وقال في التفاح :

تفاحة شامية
ما خلقت مذ خلقت
كأنما حمرتها
من كف ظبي أكحل
تلك لغير القبل
حمرة خد خجل

٣ - وقال في الأترج :

أترجة سبطة الأطراف ناعمة
تلقى النفوس بحظ غير منحوس

كأنما بسطت كفا لخالقها
تدعو بطول بقاء لابن باديس

٤ - وقال في الشقيق :

رأيت شقيقة حمراء باد على أطرافها لطح السواد
يلوح بها فأحسن ما تراه على شفة الصبي من المداد

٥ - وقال في شجرة نارنج :

ودوحة نارنج بهتنا بحسنها وقد نثرت أغصانها للتأود
ونارنجها فوق الغصون كأنه نجوم عقيق في سماء زبرجد

٦ - وقال في الرمان :

نظرت الى البستان أحسن منظر
وقد حجب الأغصان شمس المشارق
به زوج رمان يلوح كأنه
قناديل تبر محكمات العلائق
(د) ووصف الهوام والحشرات ومالا يخطر على البال أن
يقال فيه شعر :

١ - فقال في البعوض يشكو أذاه :

يارب لا أقوى على دفع الأذى
وبك استعنت على الضعيف المودى
مالى بعثت الى ألف بعوضة
وبعثت واحدة الى نمروذ

٢ - وقال فى غلام وقعت ثنيته وأبدع وأغرب فى قوله :

سقطت ثنيته فأوجع قلبه	لسقوطها وجرى عليه عظيم
فاذا مررت به فسل نؤاده	عنها وقل صبرا كذاك الريم
عجبا للؤلؤة هوت من سلكما	والسلك لا واه ولا مفصوم
اتعديا يا خطب وهو مصون	أبدا بخاتم ربه مختوم

وبالجملة فابن رشيق ترك لنا فى القلة القليلة من شعره صورة
لشاعر وصاف لم يقع له شىء الا قال فيه كبر ذلك الشىء وكان ذا
بال . أم صغر وكان مما لا يؤبه له ، ولا يقال فيه ومن ثم
لا نسرف على الحقيقة اذا قلنا انه كان شاعرا من طراز الشعراء
الوصافين كابن الرومى وابن المعتز ...

هو فى المجون :

وربما كان المجون ثانى الأغراض التى تلفت النظر نحو شعر
ابن رشيق ذلك أنه ينحو فيه نحو أبى نواس من حيث ميله الى
الغلمان ، وكثرة تحديثه عنهم ، مع التصريح فى مواضع من شعره
بما يمسك الرجل العف عن ذكره .

وقد اسبقت جملة من شعره فى هذا الباب عند الحديث عن
اخلاقه ولذلك نذكر هنا ما يشير الى غلبة هذه الظاهرة على شعره
فمن ذلك قوله فى غلام :

عزيز يبارى الصبح اشراق خده
 وفي مفرق الظلماء منه نسيب
 يزف اليه ضاحكا أقحوانه
 ويهتز في برديه منه قضيب
 وقال أيضا والقول يحتمل أن يكون في غلام ، وإن يكون في
 زوجة يحمىها زوج يغار عليها ، وإيا ما يكون ففيه تكشف :
 ومهفهف يحميه عن نظر الورى
 غيران ، سكنى الموت تحت قبابه
 أومى الى أن ائتنى ، فأيتيته
 والفجر يرمق من خلال نقابيه
 فاشت خدا منه ضرم لوعتى
 وجعلت أطفئ حرها برضابه
 وضمته للصدر حتى استوهيت
 منى ثيابى بعض طيب ثيابه
 فكأن قلبى من وراء ضلوعه
 طربا يخبر قلبه عما به
 فتراه وهو يحكى ما كان بينه وبين المحبوب من نظرات
 فأشارات فتزاور « والفجر يرمق من خلال ثيابه » وكيف اتاه
 فلثم منه خدا ضرم لوعته فلم يطفئها الا بريقه ورضابه الى آخر
 ما كان بينهما من تلاقى ثوبيهما تلاقيا استوهبت معه ثيابه من
 طيب ثياب المحبوب .

وأفحش من ذلك أن يقول ابن رشيق :

أحمل أثقالى على ردفه وأمسك الخصر لئلا يضيع
أو يقول :

بنفسى من سكان صبرة واحد هو الناس والباقون بعد فضول
عزيز له نصفان : ذا فى ازاره سمين وهذا فى الوشاح نحيل
مدار كئوس اللحظ منه مكمل ويقطف ورد الخد منه جميل

أو يقول ويبلغ فى تكشفه مالا يبلغه كثيرون غيره :

ان زارنى يوما على خلوة او زرتة فى موضع خال
كنت له رفعا على الابتدا وكان لى نصبا على الحال

أو يقول فى غلامه وقد بلغ مبلغ الرجال ، ونبت على عارضية
غذاراه ، وظن ان ذلك مما يصرف عنه صاحبه ولكن صاحبه لم
يكن عنه مصروفا وانما ظل يلاحقه ويتابعه :

واسمر اللون عسجدي يكاد يستمطر الجهما
ضاق بحمل العذار ذرعا كالمهر لا يعرف اللجما
ونكس الرأس اذ رآنى كآبة واكتسى احتشاما
وظن أن العذار مما يزيع عن قلبى الغراما
وما درى انه نبيبات أنبت فى جسمى السقاما
وهل ترى عارضيه الا حمائلا حملت حساما

ويقول فى محبوبة همت بصدده ، وهو صريح فى أنه لقيها
وضمها ومسح مقلتيه فى نحرها فعل الماجن الذى لا يبالى :

فكرت ليلة وصلها في صدها فجرت بقايا أدمعى كالغندم
فطفقت أمسح مقلتي في نحرها اذ عادة الكافور امساك الدم
ويتحدث عن لقيا صاحبه في الحمام ، وقد أمتع منه بصره ،
واشبع منه حواسه ، والفضل في ذلك للحمام الذي جللاه له عريان
خاسرا - يقول :

سأشكر للحمام بدءا وعودة ايادى بيضا مالهن ثمين
جللاه على عيني عريان خاسرا فرحت بتطبيق وأنت تمين
وطهر قلبي من هواك يبارد وسخن، فقر الجفن وهو سخن
وهكذا ما يزال ابن رشيق يتحدث عن العلمان وعن عبثه بهم
ومعهم حتى يستقر في الذهن انه شاعر من طراز ابي نواس على
اقلال هنا واسراف هناك - ومن يدرى فلعل شعره لو وصل الينا
كله لكان فيه ما يضاهى به صاحبه شبرا بشبر وذراعا بذراع .
ولعله من حظ الاخلاق ان يكون ضاع من شعره ما ضاع مما
عسى أن يكون فيه أكثر فحشا . على أن في الذى قدمنا له ما يكفى
لاتهامه .

هو في الخمر :

أما ما أثر عنه في هذا الباب فيشير الى شاعر ألف الشراب ،
وأكثر منه ، وكان يحبها صرفا غير ممزوجة الا بريقه أو ريق
العدارى .

يقول في كتابه انموذج الزمان : « اجتمعت بأبى حديدة
الشاعر يوما وأنا سكران ، فسألنى عن حال المكان الذى كنت

فيه ، فوصفته ، وأفضت في صفته الى ذكر غلام كان
ساقيا فقلت في عرض الكلام ولم أرد الوزن :

فشرينها من راحتيه كأنها من وجنتيه
وكانها في فعلها تحكي الذي في ناظره
وقلت له أجز ، فقال :

وشممت وردة خده نظرا ونرجس مقلتيه
فقلت احسنت في شمك بالنظر كما سمع ابو الطيب بالبصر في
قوله :

« كالخط يملأ سمعى من ابصرا »
ويقول من خمرية :

قدر المدامة فوق قدر الماء
فارغب بكأسك عن سوى الأكفاء
مالى ومزج الراح الا في فمى
بالريق من فم غادة حسناء
ذاك المزاج ، وان تعداني الذى
في المزن من ذى رقة وصفاء
اشهى وابلق في الفؤاد مسرة
من غيره وأدب في الأعضاء
لى الصرف ان فرح النديم ولم أكن
مستأثرا فيها عن الندماء

ويتردد في شعره طلب شربها صرفا غير ممزوجة فيقول :
 قلت لمن ناولني مرة ما بى حب الغيد بل جها
 لا تسقني راحك ممزوجة واشرب فما يمكنني شربها
 ما راحتي في الراح اني غيرت دعها كما جاء بها ربها
 ويقول وقد بات ليلة يشربها صرفا :
 ومن حسنات الدهر عندي ليلة من العمر لم تترك لأيامها ذنبا
 خلونا بها تنفى القذى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهباً سكبا
 وملنا لتقبيل الثور ولثمها كمثل جنوح الطير تلتقط الحبا
 وكان السقاة يغنون الشاربين فوق ما يسقونهم فدعا يوما
 ساقيه ليغنيه بالقصيدة التي مطلعها :

حي نجدا ومن بأكناف نجد
 على أن يسقيه في أثناء ذلك خمرا صرفا ، يصير البخيل منها
 حاتما ، والجبان بطلا فقال :
 غنى بامجود الخلق عندي «حي نجدا ومن بأكناف نجد»
 واسقني ما يصير ذو البخل منها حاتما والجبان عمرو بن معدى
 في زمان الشباب عاجلني الشيب فهذا أوائل الدن دردى
 وهكذا يبلغ ابن رشيق في هذا الباب ما بلغه في غيره من
 الأبواب التي سلفت .

هو في الرثاء :

(١) رثاء الأشخاص :

وابن رشيق انسان ، وله بالناس صلات ، وفيه وفاء ، فلا بدع

إذا هو رثي وبكا على أحبابه إذا فارقوا ، وكلما كانت صلة
 الرائي بالمرثي قوية كلما جاء شعره فيه أقوى تعبيرا ، وأصدق
 منطقا لا سيما إذا هو أعين على ذلك بمدد من اللغة ، وفيض من
 أساليبها ، ولا نشك - اعتمادا على النصوص التي بين أيدينا في
 أن صاحبنا رزق من ذلك ما فيه الكفاية وفوق الكفاية ليبكى
 خلانه وشيوخه وأولياء نعمته . وجميع ذلك في عبارات جزله ،
 وتراكيب قوية شديدة الأسر ، قوية التأثير في النفس ، وها هو
 إذا يبكى واحدا من أبناء بلدته التي ولد فيها ، وعلقت بها عليه
 تامله ، وهى المحمدية والمرثي قاضيه طاهر بن عبد الله .
 يقول :

العفر في فهم ذاك الصائح الناعى ولا أجيب بخير دعوة الداعى
 وقد تقدمت :

ويموت المعز بن باديس وقد عاش هو فى بلاطه ما ينيف على
 أربعين سنة لقى فيها من بره وكرمه ما أنطقه بمدحه ، فلا بد وأن
 يرثيه إذا هو مات - وقد فعل فقال :

ولى المعز على أعقابه فرمى أو كاد ينهد من أركانه الفلك
 مضى فقيرا وأبقى فى خزائنه هام الملوك وما أدراك ما ملوكوا
 ثم يأخذ فى وصف خصائله وصفاته حيث يقول :

ما كان الا حساما سله قدر
 على الذين بغوا فى الأرض وانهمكوا

كانه لم يخض للموت بحر وغي
خضر البحار اذا قيست به برك
ولم يجد بقطاير مقنطرة
قد أرعيت باسمه ابريزها السكك

راج المعز وروح الشمس قد قبضا
فانظر بأى ضياء يصعد الفلك

ويموت أبو اسحق ابراهيم بن حسن المعافى سنة ٤٤٣ هـ .
وكان عالما جليلا مشى فى جنازته المعز بن باديس فى جمع عظيم ،
فيرثه ابن رشيق ويقول :

يا للرزية فى أبى اسحق
ذهب الحمام بأنفس الأعلاق

ذهب الحمام بخاشع مبتتل
تبكى العيون عليه باستحقاق

ذهب الحمام بيدر تم لم يدع
منه الردى الا هلال محاق

وحوت جنوب اللحد بحرا زاخرا
ترك البحار الخضر وهى سواق

فاليوم أغلق كل فهم بابه
لما فقدنا فاتح الأغلاق

ما القيروان اذقت ثكلك وحـ
بدها قد ذاق ثكلك سائر الآفاق

وحين نقف من مريثته للمعز ومريثته لأبى اسحق ، نرى كيف
رثى في كل صفاته التى كان عليها ، ففى الأول رثى الشجاعة
والجود والكرم ولقاء الأعداء ، بينا بكى فى الثانى العلم والحجاء ،
وأنة ابتدر قبل تقدم السن به ، وهكذا يوفق الرجل فى ذكر كل
بما كان له من صفات ثلاثم مكاتته وحياته وما كان له فيه باع .
(ب) رثاء الدول :

وهو باب من الرثاء لم يعرفه شعراء المشرق الا بعد أن عرفه
شعراء المغرب ، ولعل ذلك انما كان لأن خراب المدائن ، وزوال
الدول انما وقع فى العالم العربى أول ما وقع فى الغرب ، وربما
كان أول ذلك على وجه التحديد فى الأندلس ، فقد كثر فيها
انتزاع العروش ، وأفول الدويلات ، وخلع السلاطين ، وكان ذلك
كثيرا ما يستتبع خراب المدائن وزوال عمرانها ، والغارة على
القللاع والحصون والقرى مما لم يحدث نظيره فى المشرق الا فى
عصور متأخرة . وكان من جراء هذا أن ظهر هذا النوع من
الرثاء على ألسنة شعراء هذا الصقع العربى من الوطن العربى ،
فهذا محمد بن عبدون يرثى بنى المظفر أصحاب بطليوس من
ملوك الطوائف فى الأندلس بقصيدة مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر
فما البكاء على الأشباح والصورة
أنهاك أنهاك ، لا آلوك معذرة
عن وقفة بين نائب الليث والظفر

وهذا أبو بكر محمد بن عيسى المشهور بابن البائنة ، يرثى
بنى المعتمد بن عباد وقد أنزل بهم يوسف ابن تاشفين ما شاء من
نقمة وتعذيب ، بقصيدة مطلعها :

تبكى السماء بدمع رائج غادى
على البهاليل من أبناء عباد .
فاذا ما خرب البربر القيروان وألجأوا معزها الى هجرها ،
والفرار منها الى المهديّة ، وتبعه أمثال ابن رشيق ، بعد ما رأوا
ما نزل بها من صنوف التدمير والتخريب ، والعسف والهوان ،
واتتهاك الحرم وهدم المساجد ، رأينا ابن رشيق وقد أنطقته
الكارثة بقصيدة عدت فى هذا الباب - باب رثاء الدول - من
أروع ما قيل فيه ، فقد وصف فيها ما كانت عليه القيروان من
اطمئنان وأمان ، ومن رغد العيش وعز الحياة ، ثم ما صارت اليه
من خوف وذعر ، وذلة ومهانة فقال :

كم كان فيها من كرام سادة	بيض الوجوه شوامخ الايمان
متعاونين على الديانة والتقوى	لله فى الاسرار والاعلان
ومهذب جم الفضائل باذل	لنواله ولعرضه صوان
وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا	سنن الحديث ومشكل القرآن
علماء ان ساءلتهم كشفوا العمى	بفقاهاة وفصاحة وبيان

وما يزال ابن رشيق يصف ما كان عليه أهل القيروان من
التقى والورع ، ورهبة الملوك لهم ، وخوف الورى منهم ، وما هم
عليه من رزاة الأحلام . . الى أن يقول :

كانت تعد القيروان بهم اذا
وزعت على مصر وحق لها كما
حسنت فلما اذ تكامل حسنها
وتجمعت فيها الفضائل كلها
عد المنابر زهرة البلدان
تزهو بهم ، وغدت على بغداد
وسما اليها كل طرف ران
وغدت محل الأمن والايمان

ثم يشير ابن رشيقي الى وحدة الأمة العربية يومئذ ، وكيف
أحزن أقطارها المترامية ما أصاب القيروان وذلك اذ يقول :
حزنت لها كور العراق بأسرها وقرى الشام ومصر والخرسان
وتزعزت لمصابها وتنكدت أسفا بلاد الهند والسندان
وعفا من الأقطار بعد خلائها ما بين اندلس الى حلوان
وهكذا لم يقف الحزن على القيروان عند حدود العرب ،
وانما تجاوزها الى الهند والسند ، كما غمر الشرق والغرب
العربيين .

ثم يذكر ان النجوم الزهر ، والجبال الشم والأرض الراسخة
قد اهتزت لمصاب الغرب في مدينته الكبرى ، وذلك اذ يقول :
وأرى النجوم طلعت غير زواهر في افقهن وأظلم القمران
وأرى الجبال الشم أمست خشعا لمصابها وتزعزع الثقلان
والأرض من وله بها قد أصبحت بعد القرار شديدة الميلان
ثم يتساءل عما اذا كان في الامكان أن تعود الى القيروان
سيرتها ، ويرجع اليها عزها ، وكيف السبيل الى ذلك وقد لعب
الزمان بأهلها ! فيقول :

أترى الليالى بعد ما صنعت بنا نقضى لنا بتواصل وتدان

وتعيد أرض القيروان كعهدا
 من بعد ما سلبت نضارة حس
 وغدت كأن لم تغن قط ولم تكن
 أمست وقد لعب الزمان بأهلها
 فتفرقوا أيدي سبا وتشبثوا
 فيما مضى من سالف الأزمان
 نها الأيام واختلفت بها الملوان
 حرما عزيز النصر غير مهان
 وتقطعت بهم عرا الأقران
 بعد اجتماعهم على الأوطان

وهكذا صور ابن رشيق النكبة كأروع ما يكون التصوير ،
 وأشده تأثير في النفس ، وذكر الوحدة بين الأمة العربية
 وكيف ألم للنكبة شرقها وغربها ، مصرها ولبنانها ، شامها وعراقها ،
 أندلسها وخراسانها ، بل كيف ألت الهند والسند لما نزل
 بالقيروان .

وقد أدى جميع هذه الأفكار في قصيدته الطويلة دون أن
 يبدو عليه وهن ، أو يظهر في أبياته ضعف ، الأمر الذي يدل على
 طول نفس الشاعر ، وإن كان أكثر الذي له بين أيدينا فيما عدا
 هذه القصيدة ، وبضع قصائد أخرى لا يعدو أن يكون أبياتا
 يسيرة من قصائد لم تصل إلينا كاملة حتى لسمى مجموع ما تجمع
 من شعره : التنف .

هذا وقد رأينا براعته في تصوير حال المدينة في عزها ، وبؤسها
 في عمرانها وفي خرابها ، في أمنها وفي خوفها مما يدل على شاعرية
 أصيلة لا يستعصى عليها معنى أن تعبر عنه تجليه بأسلوب
 الشاعر المتمكن المقتدر .

وقد تبعه في قصيدته شعراء بعده لما رأوا مثل نكبة

القيروان ، وإن كانوا فيما أرى لم يبلغوا من قصائدكم ما بلغ
ابن رشيقي في نونيته . وهذا أبوالبقاء صالح بن شريف الرندي
يرثي الأندلس - ولعله كان يعارض صاحبنا - فيقول :

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يغربطيب العيش انسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد	ولا يدوم على حال لها شان
وواضح ما بين النسجين .	

وهذا شمس الدين محمود الكوفي يرثي بغداد بنونيته أيضا ،
يقول فيها :

ان لم تقرح أدمعي أجفاني	من بعد بعدكم فما أجفاني
انسان عيني مذ تناءت داركم	ما راقه نظر الى انسان
يا ليتني قد مت قبل فراقكم	ولساعة التوديع لا أحياني
مالي وللأيام شئت خطبها	شملي وخلاني بلا خلاني

الى آخر ما يقول ، ولعلك توافقني على أن الصنعة قد غلبت
على هذه القصيدة بل انها لا تشير الى خراب بغداد ، ولا الى
انها مرثية الا بعد ذلك المطلع الطويل الذي يشبه أن يكون غزلا
قبل أن يكون رثاء . فأين هذا من قصيدة ابن رشيقي العريضة
الديباجة ، القوية الأسلوب ، المتجهة من أول أبياتها الى الموضوع
الذي قصدت اليه فاستحقت اسم المرثية بحق ، واستهوت
الشعراء أن يعارضوها ، ولكنهم لم يسددوا ولم يقاربوا .

هو واغراض أخرى :

واذا كان همنا في هذا الباب أن نكشف عن جانب الشعر
في حياة ابن رشيق ، وقد أتينا على أغراض كان له فيها ما أثبت
شاعريته ، فانه قال في أغراض أخرى كثيرة منها العتاب ومنها
الهجاء ، ومنها الحكمة ، غير أن ما وصل الى أيدينا من ذلك من
القلة بحيث لا يستحق أن نعقد لكل منه بابا ، أو نضع له عنوانا ،
ولكننا لا يسعنا أن نغفل ذكره ، لذلك آثرنا أن نلهم شعث ذلك
تحت كلمة « أغراض أخرى » .

(١) العتاب :

وله فيه قطع فمن ذلك عتبه على غلام لمحمد بن حبيب التنوخي
كان لا يزال يزوره اذا غاب ، فاذا حضر لم يأت به فقال له محمد
يوما : هيا نصنع في ذلك المعنى شعرا فقال هو وكأنه يعتب على
الغلام :

ما بالناس نجفى فلا نوصل	الا خلافا مثل ما تفعل
تأتني اذا غبنا فان لم نعب	جعلت لا تأتي ولا تسأل
كهاجر أجابه زائر	أطلالهم من بعد أن يرحلوا

وقال محمد :

يا تاركا ان لم أغب زورتي	وزائري دأبا اذا غبت
وددت أن ودك لا ينثنى	يزور فقداني لو مت

وعلى أبيات ابن رشيق طلاوة ، فيها سلاسة تدل على طوعية
الشعر ، وانه لا يعتصب اغتصابا كالذي نحسه في أبيات صاحب

السلام فانها كرة جافية فيها روح كد النفس ومجاهدتها
حتى أتت بالبيتين .

(ب) الهجاء :

وكان صاحبنا فيه مقلًا ، لأنه كان سمح النفس ، سهلًا
لا يدخل في عداوات الناس ، لا يجبر على نفسه ما لا يجب على
أن ذلك المبدأ لم يمنعه من أن يهجو اذا اضطر ، ولم لا وهو
الذي يقول :

اذا لم تجد بدا من القول فاتتصف

بحد لسان كالحسام المهند

فقد يدفع الانسان عن نفسه الأذى

بمقوله ان لم يدافع به باليد

ولذلك نراه يهجو فيقول :

يا موجعي شتما على أنه لو فرك البرغوث ما أوجعا

كل له من نفسه آفة وآفة النحلة أن تلسعا

لكنه في الجملة مقل في هذا الباب وربما كان أيضا يطبق نقده

على شعره فانه يقول « والشاعر أولى من كف منطقته ، وأقال

عشرات اللسان ، لما رزق القدرة على الكلام ، والعفو من

القادر أحسن ، ولن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور . ذلك

ما أخذ به ابن رشيق نفسه في باب الهجاء .

(ح) الحكمة :

وشاعر كصاحبنا عاش فوق الستين عاما ، يتصل بالولادة
والأمراء ، ويلقى من تقرييهم ومن حسد الناس له على ذلك ،
ومنافسة الشعراء على الخطوة في بلاط الأمير ، ثم ما تلقته الحياة
بأحداثها وأتراحها لا بد وأن يترك حكمة وخبرة ، تظهر في شعره
فيقول في الاخوان :

لو قيل لى خذ أمانا من حادثات الزمان
لما أخذت أمانا الا من الاخوان

ويقول :

من يصحب الناس مطويا على دخل
لا يصحبه فخلوا كل تدخيل
لا تستطيلوا على ضعفى بقوتكم
ان البعوضة قد تعدو على الفيل
وجانبوا المزعج ان الجدد يتبعه
ورب موجعة فى اثر تقبيل

وقال فى المشاورة :

أشاور أقواما لآخذ رأيهم
وليس برأى حاجة غير أننى
ولا أنا ممن يبعث السهم راميا
فلا يتهم عقلى الرجال فأننى
فيلوون عنى أعينا وخدودا
أؤنسه كيلا يكون وحيدا
الى غرض حتى يكون سديدا
أعرفهم أنى خلقت ودودا

وأخيرا نراه يقول :

إذا أتى الله يوم الحشر فى ظلال
وجيء بالأمم الماضين والرسول
وحاسب الخلق من أحصى بقدرته
أنفاسهم وتوفاهم الى أجل
ولم أجد فى كتابى غير سيئة
تسوءنى وعسى الاسلام يسلم لى
رجوت رحمة ربى وهى واسعة

ورحمة الله أرجى لى من العمل
وبعد أفلا يقوم ذلك الشعر كله ، على ما اتسم به من قوة
العبارة ، ونصوع الديباجة ، وسلامة اللفظ وبعده عن الركيك
والمبتذل ، وتأنيبه عن المسف النازل ، أقول : أفلا يقوم ذلك بل
بعض ذلك دليلا على شاعرية ابن رشيق ؟ بلى انه يقوم برهانا
بيننا ، وحجة ناصعة على أن ابن رشيق الناقد ، والذي عرف
بكتابه العمدة فى نقد الشعر وصناعته ، هو أيضا ابن رشيق
الشاعر الذى أبدع فى كثير من أبواب الشعر وأغراضه . ابداعا
يجعله يقرن نفسه بالمتنبى وأقرانه كابن الرومى وابن المعتز .

ولولا انه اشتهر بالنقد لكانت له شهرة بالشعر واسعة ،
ولو أنه وصل إلينا شعره كاملا لاستبان الناس فيه شاعرا يمكن
أن يكون بين شعراء المغرب كما كان المتنبى وأبو نواس وابن
الرومى وابن المعتز فى المشرق ، كما كانت تحدثه نفسه وتصور له .

خاتمة المطاف

إذا كانت أولية حياة ابن رشيق في المحمدية قد لقيت من الإهمال ما غطى كثيرا من جوانبها فإن آخر عهده بالحياة لقي المصير ذاته فمع ما نعلم من أنه قضى آخر عمره في جزيرة صقلية إلا أن هذه الفترة يرين عليها صمت مطبق ، فالرجل الذي عاش في القيروان يؤلف الكتب ، ويمدح الخليفة ، ويحاجي رفاقه ويلاغزهم ، ويقول الشعر في المجون والخمريات ، يلتزم الصمت في جزيرة صقلية فما نسمع له فيها صوتا إلا ما كان حين دعاه ابن شرف إلى الرحلة للأندلس ، فيرفض ويعلل لرفضه بالبيتين :

ما بزهدني في أرض أندلس
تلقب معتمد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكى تنفاحا صولة الأسد

وسواء كان البيتان من شعره أو مما تمثل به فإن في القصة دليلا على ما كان عليه ذلك الشيخ من البرم بالحياة ، والضيق بتقلبات الأمور في البلاد الاسلامية ، وكأنما توقع ألا تكون حياته في الأندلس خيرا منها في المغرب والجزيرة ، وهو قد رأى ما صارت على القيروان والمهدية مما اضطره الى الارتحال الى جزيرة صقلية . ومن ثم فقد آثر أن يبقى حيث هو ، وانه نازعته نفسه يوما أن يزور عبادا - أحد أمراء الأندلس - وذلك يوم كان بصقلية ذلك التاجر الذي لم يشأ أن يصحب ابن رشيق معه بعد ما مناه .

ومع ماصح عندي من أنه مات في صقلية فإن ياقوتا يذكر أنه مات بالقيروان ويذكر ان ابن رشيق ذكر ذلك عن نفسه « في كتابه الذي صنفه في شعراء عصره ووسمه بالنموذج » (١) والتهافت في الرواية بين اذ كيف يذكر الرجل مكان وفاته او سنتها ؟ وقد تابع ياقوتا على ان القيروان كانت مشواه الاخيرة السيوطي فقال أيضا « مات ابن رشيق بالقيروان » اما ابن خلكان فيقرر أن الرجل « لم يزل بالقيروان الى أن هجم العرب عليها وقتلوا أهلها وأخربوها فانتقل الى جزيرة صقلية وأقام بمازر الى أن مات ثم يعرف بمازر وانها قرية في جزيرة صقلية ، وانه سيذكرها في ترجمة المازري ان شاء الله » (٢) .

(١) معجم الادباء ج ٨ ص ١١٢ .

(٢) وفيات الاميان ج ٤ ص ١٦٤ .

ويعطى القفطى صورة تلقى ظلالة على آخر عهد ابن رشيق بالحياة حين يقول : « ولم يزل ابن رشيق على ما هو عليه من اقامة سوق الادب .. الى أن هجم العرب على القيروان وقتلوا من بها .. فعند ذلك فر عنها الى ساحل البحر المغربى .. ولم يمكنه المقام هناك فعدى البحر الى جزيرة صقلية ، ونزل بمارن - كذا - وهى مازر - احدى مدنها على أميرها ومتوليها ابن مطلود فآكرمه واختصه ، وقرأ عليه هذا كتبه ، ومن جملة ما رأيته من قراءته عليه كتاب العمدة فى صنعة الشعر ، وهو أجل كتبه وأكبرها ، ورأيت خط ابن رشيق على نسخة منه ، ولم يزل عنده الى أن مات بمارن فى حدود ستة خمس واربعمائة - كذا - ولعلها خمس وخمسين واربعمائة رحمة الله تعالى » (١) .

واذا صحت هذه الرواية - وهى فيما ارجح صحيحة - يكون ابن رشيق قد لقي فى جزيرة صقلية العوض من المعز وابنه تميم بالمغرب فى شخص ابن مطلود ، الذى آكرمه واختصه وقرأ عليه كتبه - وان لم نظفر بشيء من شعر الرجل يشير الى هذه الحياة والى ذلك الأمير الذى تحدث الرواية أن قد لقي صاحبنا فى كنفه الاعزاز والرعاية .

وأيا ما يكون فانه مات بمارن احدى مدن جزيرة صقلية . أما عن سنة وفاته فان المؤرخين يختلفون عليها اختلافهم على سنة ميلاده ، فرأى صاحب معجم الادباء انه مات سنة ٤٥٦ هـ .

(١) انباء الرواة ج ١ ص ٢٨٥ .

عن سنت وستين سنة ويذكر مثل ذلك السيوطي وصاحب شذرات الذهب .

وأما ابن خلكان فله في سنة وفاة ابن رشيق روايتان تقول أحدهما توفي الرجل سنة ٤٦٣ ، وتقول الأخرى « ورأيت بخط بعض الفضلاء انه توفي سنة ست وخمسين واربعمئة بمازر .. ويعقب على روايته بأن الأولى اصح ، الأمر الذي لا يمكن أن نمزج به من غير أن نناقشه .

وابن خلكان لم يذكر لترجيحه هذا مرجحا بل يعود بعلة الروايتين فيذكر رواية ثالثة تتميز فيما ارى بالدقة حيث تذكر شهر الوفاة وسنتها بل والليلة التي لقي فيها ابن رشيق ربه - فيقول : « وقيل انه توفي ليلة السبت غرة ذى القعدة سنة ست وخمسين واربعمئة » .. ثم يقول : والله أعلم

والذي أميل الى ترجيحه من جملة هذه الروايات أن ابن رشيق مات سنة ٤٥٦ هـ . وليس سنة ٤٦٣ هـ ولا سنة ٤٦٦ هـ التي يقول بها بعض المتأخرين اذ نحن نعلم انه هاجر الى صقلية سنة ٤٥٣ هـ على الراجح فلا يعقل ان يعيش فيها فوق عشر سنوات ثم لا نسمع له فيها ذكرا ، وهو من هو شاعرية ، وعلماء وانتاجا . ولا استسيع أن يكون عاش فترة كهذه ، وضاع انتاجه فيها لأن التاريخ في هذه الفترة مدون في أكثر من مصدر ، ويتحدث عن هو أقل

من ابن رشيق شأنا ومكانا ، فالاقرب ان العمر لم يطل به فى
الجزيرة وانما مات سنة ٤٥٦ هـ .

هذا الى أن الرواية التى تذكر ذلك تذكر ليلة وفاته وتذكر
السنة بالحروف وليس بالأرقام ، وقد حملتنى الرغبة فى
تحقيق ذلك على الرجوع الى كتاب « التوفيقات الالهامية
فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنيين
الافرنجية والقبطية » وعرضت عليه هذه الرواية وتبينت أن غرة
ذى القعدة من سنة ٤٥٦ هـ يوافق يوم جمعة فى الكتاب -
والرواية تذكر أنه « توفى ليلة السبت غرة ذى القعدة » واختلاف
غرر الشهور العربية بيوم مما يكثر وقوعه فى أيامنا مع ما نستخدم
من الآلات الحديثة فى رصد القمر - فالخلاف بيوم فى سنة ٤٥٦
لاغبار عليه .

وعلى هذا يكون الأقرب والصحيح انه توفى سنة ٤٥٦ هـ .
وربما كان من شعره وهو فى الجزيرة رثاؤه المعز بن باديس
بقوله :

لكل حى وان طال المدى هلك لا عز مملكة يبقى ولا ملك
ولى المعز على أعقابه فرمى أو كاد ينهد من أركانه الفلك
مضى فقيدا وأبقى فى خزاته هام الملوك وما أدراك ماملوكوا
وبعد فتلك سيرة ابن رشيق الناقد الشاعر كتبها ، وأرجو أن
أكون وفقت فى تجليتها .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت ، واليه ائيب .

عبد الرؤوف مخلوف

المراجع

- | | |
|-----------------------------|---|
| عبد العزيز اليمنى الراجكوتى | ١ - ابن رشيق |
| عبد العزيز مزروع | ٢ - الاسس المتكررة فى دراسة الشعر |
| أحمد الشايب | الجاهلى |
| القفتى | ٣ - أصول النقد الادبى |
| ابن شرف الجذامى القيروانى | ٤ - انباء الرواة على انباء النحاة |
| ابو بكر الباقلانى | ٥ - اعلام الكلام |
| محمود مصطفى | ٦ - اعجاز القرآن |
| | ٧ - أهدى سبيل الى علمى الخليل |
| | ٨ - بساط العقيق فى تاريخ القىروان وشاعرها |
| حسن حسنى عبد الوهاب | ابن رشيق |
| ابن ابى الاصبع | ٩ - بديع القرآن |
| ابراهيم سلامة | ١٠ - تيارات ادبية |
| عبد الله عفيفى | ١١ - زهرات مثورة |
| ابن بسام | ١٢ - الذخيرة |
| نوفيق الحكيم | ١٣ - زهرة الممر |
| ابن سنان الخفاجى | ١٤ - سر الفصاحة |
| ابن العماد الحنبلى | ١٥ - شذرات الذهب |
| التبريزى | ١٦ - شرح ديوان الحماسة |
| الفلفشندى | ١٧ - صبح الاعشى |
| بوهان فك ترجمة محمد عبد | ١٨ - المصرية |
| الله دراز | |
| احمد امين | ١٩ - ظهر الاسلام |
| بدوى طبانة | ٢٠ - قدامة بن جعفر |
| ارسطو ترجمة عبد الرحمن بدوى | ٢١ - فن الشعر |
| ابن رشيق القيروانى | ٢٢ - العمدة |
| ابن رشيق القيروانى | ٢٣ - قراضة الذهب |
| ابن الاثير | ٢٤ - الكامل |

ابن خلدون	٢٥ - المقدمة
الدهياوى	٢٦ - الطبع والصناعة
شوقي ضيف	٢٧ - الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
عبد العزيز اليمنى الراجكوتى	٢٨ - النثف من شعر ابن رشيق وابن شرف
روز غريب	٢٩ - النقد الجمالى
احمد امين	٣٠ - النقد الادبى
محمد مندور	٣١ - النقد المنهجى
الواحدى المراكشى	٣٢ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب
احمد توفيق المغربى	٣٣ - المسلمون فى جزيرة صقلية
ياقوت	٣٤ - معجم البلدان
ياقوت	٣٥ - معجم الادباء
ياقوت	٣٦ - المجموعة المغربية
قسطنطين الحمصى	٣٧ - منهل الورد
احمد ضيف	٣٨ - مقدمة لدراسة بلاغة العرب
يوسف سركيس	٣٩ - معجم الطبوعات
ابن سيدنة	٤٠ - المخصص
ابن خلكان	٤١ - وفيات الاعيان
عبد العزيز الجرجانى	٤٢ - الوساطة بين التنبى وخصومه
الثعالبى	٤٣ - اليتيمة

الفهرس

الفصل الأول : عصر ابن رشيق

٧ - ٢٦

صفحة	
٣	مقدمة
٩	الحالة السياسية
٩	أ - في المغرب
١٢	ب - في جزيرة صقلية
١٥	الحياة الاجتماعية
١٨	الحياة العلمية والأدبية
١٩	أ - في القيروان
٢١	ب - في المهديّة
٢٢	ج - المكتبات
٢٤	د - في صقلية
٢٥	شخصية الغرب العربي

الفصل الثاني : حياة ابن رشيق

« ٣٧ - ٦١ »

صفحة

٣٧	أسرته
٣٩	ولادته
٤٢	نشأته الأولى
٤٤	صلاته وعلاقاته
٤٨	مع ابن أبي الرجال
٤٩	شيوخه
٥٢	معاصروه
٥٤	بينه وبين ابن شرف الجذامي

الفصل الثالث : أخلاق ابن رشيق

« ٦٥ - ٦٦ »

٦٢	مسماته
٦٣	قنوعه
٦٦	هجاؤه
٦٧	دعابته وملحه
٦٩	مجنونه
٧١	تدينه
٧١	سلوكه العلمي

صفحة

١٦٨	٩ - القدمات والمحدثون
١٧٨	١٠ - السرقات
١٩٢	١١ - فنون الشعر واغراضه
١٩٥	١٢ - مسألة تستحق الدراسة
١٩٦	١ - النسيب
٢٠٣	ب - المديح
٢٠٦	ج - الرثاء
٢١٠	د - العتاب
٢١٢	هـ - الوعيد والاستنجاز
٢١٣	و - الهجاء
٢١٦	ز - الاعتذار
٢١٨	ح - الوصف
٢٢٢	١٥ - بينه وبين النقاد

الفصل السادس ابن رشيق الشعراء

٢٣٣ — ٢٧٢

٢٣٧	بينه وبين المتنبي
٢٤٤	بينه وبين البحتري
٢٤٦	بينه وبين غيرهما
٢٤٨	هو في الوصف

٢٤٩	١ - وصف الطبيعة
٢٥١	ب - وصف الحيوان
٢٥٤	ج - وصف الفواكه والزهور
٢٥٦	هو في المجنون
٢٥٩	هو في الخمر
٢٦١	هو في الرثاء
٢٦١	أ - رثاء الاشخاص
٢٦٤	ب - رثاء الدول
٢٦٩	هو واغراض اخرى
٢٦٩	أ - العتاب
٢٧٠	ب - الهجاء

الدلائل القومية للطبائِع والنشئة